جواهر التدبر

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسم الكتاب: جواهر التدبر (الجزء الثالث)
المؤلف: أ. د. فؤاد البنا
موضوع الكتاب: دراسات قرآنية
عدد الصفحات: 248 صفحة
عدد الملازم: 15,5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14 x 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 4997 / 2022
الترقيم الدولي: 978-977-278-966-5

القاهرة - جمهورية مصر العربية
01012355714
01152806533
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

جواهر التدبر

(الجزء الثالث)

أ. د. فؤاد البنا

دار البشير

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن جعل لكل شيء قدرا، ثم أما بعد:

فقد استعرضنا في الجزء الثالث من (جواهر التدبر) عشرات العناوين التي سنضعها هنا بين قوسين، وندعو الله أن تكون معينة للقارئ على الاستبصار بكتاب ربه في طريق سيره إلى ربه وعلى التوطن العبادي في محراب الحياة؛ حيث عرفنا فيه أن الله أنزل القرآن (لقوم يؤمنون..) بمعنى أن الإيمان يسبق القرآن، كما كان ديدن الصحابة، وأيقنّا ب(فاعلية القرآن الكريم) في تحقيق الهداية الشاملة لمن أراد، ورأينا (صفات القرآن تبرز قوته الذاتية) بجلاء.

و(عندما يتولى الله ورسوله تعليم القرآن) فإنهما يؤكدان لنا عظمة فريضة التدبر وضرورة فهم مراد الله في نصوص القرآن، وقد ثبت لنا بالبرهان العلمي والعملي (دور تلاوة القرآن في صناعة الحياة)، واتضحت لنا (استقامة طريق القرآن)، وإمكانية أن ننسلك في طريق هدايته إذا انطلقنا في القراءة من (التعقل الخاشع للقرآن) وإذا كنا من أصحاب (المتابعة الحثيثة للقرآن)، وتجنبنا الوقوع في (جريمة تبعيض القرآن)، وأدركنا وقوع (هداية القرآن بين الإنعام والإضعاف) بحسب طريقة تعاطينا معه، واستطعنا رؤية (آيات الله بين عطية التصريف وعقوبة الصرف)

وبهذا الصدد ينبغي ان نتعامل مع (إنعام الهداية) بما يليق بها من شكر، فنستنبط (أنواع الهداية) من ثنايا النصوص، ونستفيد من (تعاضد القرآن والصلاة) في الترقي بذواتنا وتوطين الإسلام في نواحي حياتنا.

وقد لفتت أنظارنا هذه الجواهر إلى (دور الخشوع في تيسير الصلاة)، ورأينا رأي العين (الشغف النبوي بالهداية) حتى أن الله عاتبه على إرهاقه الشديد لنفسه، وتجسدت أمامنا (أخلاق الهداة) وتساقطت علينا (الثمار العملية للعلم)، وتدربنا على (العروج إلى

الحكمة)، من خلال أمور عديدة، وأهمها استثمار (منافع التعلم المنهجي)!

وأبرزت جواهر التدبر بجلاء (أفياء التآلف)، وأوضحت أن (التنوع قوة للمناعة الاجتماعية)، وساقت الأدلة على إمكانية (تعدد الصواب) في نفس المسألة، وبرهنت على بُعد (المسافة بين وحدة الدين وتفرق المتدينين)، وأوضحت الفرق الشاسع (بين التفرق في الدين والدخول إليه من أبواب متفرقة)، ورسمت خارطة (المقاصد والوسائط)، وحثت على (تجفيف منابع العصبيات)، وأبرزت بصورة سافرة (مخاطر ثقافة القطيع)، وحذرت من (مصائب التفرق)، ولم تكتف بهذا بل وفرت بدائل إيجابية يمكنها تحقيق التآلف والاتحاد، من خلال الكشف عن أهم (مقومات الوعي الجمعي) في القرآن بعشر حلقات مطولة انتظمت أهم المقومات التي ينبني عليها الوعي الجمعي لمن يريد التحرر من الفردية السقيمة!

وانطلقت بعد ذلك لتبين (شمائل الرجال) وخاصة (شمائل المخبتين)، واستخرجت من بحر القرآن (نفائس التقوى) و(ذخائر الحرية)، وقدمت كشفاً أولياً لما يمكن أن يجنيه المسلم من (أرباح الإيمان)، ذلك الإيمان الذي يطلب من أصحابه تحمل (أثقال المسؤولية) أينما كانوا!

وصاغت جواهر التدبر (لفتات حول الموضوعية) المفقودة في حياة المسلمين، وكشفت عن وجود (أسلحة معنوية للمؤمنين) يمكنهم التسلح بها للاحتماء من مكر أعدائهم، مع التعلق دوما ب(حبال السماء)، وإتقان (آداب الدعاء)، في طريق التأهل للحصول على (عطاء الفاعلية)!

وأوضحت الجواهر وقوع (قلوب العباد بين الصرف والتصريف)، وضرورة استفادتهم من (تدابير الرحمن) في هذا الكون، وإدراك (أهمية التفكر في المآلات)، والانتباه لوجود (فروق قرآنية دقيقة) بين كثير من الثنائيات المتقاربة والمصطلحات المتشابهة، وضربت المثل بموضوع (التزكي بين الأقوال والأفعال)!

وسعت الجواهر لإكساب متابعيها زاد الحكمة، من خلال إبراز (التجليات الدنيوية

لكون الله سريع الحساب)، وتبيين (ازدواج الجزاء في المعاش والمعاد) وملاحظة (التواشج بين جنتي الأرض والسماء)، وإبراز (القوام المعنوي للحياة)، داعية إلى (مراعاة التكوين المزدوج للإنسان) بالجمع بين المثالية والواقعية، وإلى (تمازج التبشير والإنذار) في الدعوة إلى الله، مع الحرص في كل الأحوال على (عقلنة الجوارح)!

وقد استنبطت الجواهر بعض آيات الأنفس عبر النظر للإنسان (من زوايا الضعف البشري)، وتوقفت مع بضعة (طبائع بشرية) و(سلائق بشرية) محددة، ومن هذه الطبائع العجلة والخوف، حيث أبرزت (خيبات التعجل)، وحلّلت (أنواع الخوف) التي تغزو النفوس البشرية!

وانطلقت بعد ذلك للكشف عن (انقلاب المصطلحات) في عصرنا، ومن ثمارها العلقمية وجود صنف غريب من الناس وهم (الذين يعادون أنفسهم) ولا يتورعون عن السعي لتحقيق (المكاسب القاتلة) على حساب إيمانهم!

وأبانت الجواهر مدى اختلال القيم (عندما تنقلب الموازين) عند البشر، ومن آثار هذا الانقلاب كثرة (آفات العقول) وبروز (آفات المتدينين) وشيوع (آفات اللسان) في زمن الإعلام المفتوح، داعية إلى (التبين والحذر) عموما مع (الحذر من الجبناء) والتوقي من (مخاطر الغفلة) وكاشفةً عن (دور المعاصي في حلول الذل والهوان) بالأمة!

و(عندما يصد المسلمون عن سبيل الله)، كما نرى بعضا من كبرائهم يفعلون فإنهم يكونون قد أصيبوا ب(تفاهات العقول)، ولا بد أن هذا الصنيع قد ابتعد بهم عن (مقومات الشهود الحضاري) على الأمم؛ مما استوجب ويستوجب (حلول عذاب الخزي بالمسلمين) كما نراه في الواقع المعاصر، وآذن بذهاب (ريح الرهبة) منهم، وبالطبع لا نشك بوجود (دور للبطانة في فرعنة الحاكم) الذي أدخل الأحرار (سجون الفراعنة) وجمّد (المقاصد الأساسية للدولة الإسلامية) واقترف سائر (الخطايا المتعدية) في حق الجماهير السادرة في سلبيتها وضعفها، باستثناء مجموعات تكسر ظهورها المظالم وتكمم أفواهها الطواغيت!

وقبل الختام حاولت الجواهر تحديد (استراتيجية الشيطان) في غواية الإنسان وكشفت عن (أسلحة الشيطان) في اصطياد الغافلين، وأبانت (أصناف الكائدين)، ثم أبرزت سنة الله في (انقلاب الكيد الخبيث على أصحابه)، ورسمت (أواني الزمان) موضحة لقضية (مراكمة الزمان لأعمال الإنسان)!

وختمت بتصوير (أطيار الناس) الذين يمارسون التطير بغيرهم والتشاؤم منهم، ثم برسم (تقاسيم الوجوه) بحسب ما يختلج في الصدور، وأكدت على خطورة (مآسي اليأس) على الإرادات، ومؤكدة على ضرورة مواجهتها من خلال (نفحات التفاؤل)!

فإن أصبنا فهذا أملنا بالله والحمد له على توفيقه وتسديده، وإن أخطأنا فهذه طبيعة البشر، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد، ويظل مراد الله مطلقا وأفهام البشر نسبية يعتورها النقص والقصور، ونسأل الله القبول والنفع والحمد لله في كل وقت وعلى كل حال.

فؤاد البنا

مدينة تعز

١٥ مايو ٢٠٢٤م

لقوم يؤمنون: الإيمان قبل القرآن!

تساءل بعضهم فقال: لقد وصف الله القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة، وها نحن نرى ملايين الحفاظ للقرآن وعشرات الملايين على الأقل ممن يتلونه يوميا، لكن أين الهداية الشاملة للقرآن في واقع هؤلاء؟ وأين الرحمة السابغة التي انعكست على حياة المجتمعات التي يستوطنونها؟!

وبالطبع يمكن الرد على هذا التساؤل المهم بعشرات الآيات التي تبين أن الخلل في طريقة تعاطي المسلمين مع القرآن؛ إذ لم يحسنوا فهم نصوصه، ولا تنزيل مراده بصورة سوية، ولا تجسيد تعاليمه في الواقع، لكننا سنكتفي في هذا المقام بآية واحدة يقول الله فيها: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف: ٥٢].

وبتأمل الآية يتضح أن المشكلة تكمن في الإيمان الذي ينقص أغلب المسلمين، فقد أوتي الصحابة الكرام الإيمان قبل القرآن لكن كثيرين من معاصرينا أخذوا القرآن من دون الإيمان فلم تثمر أشجاره في أخلاقهم وأعمالهم، والإيمان منظومة كبيرة وأول أجزائها هي الإيمان بمنهج القرآن في التعاطي مع القرآن، ولب هذا المنهج هو التدبر، والتدبر عملية نسبية تبدأ من فهم المعنى البسيط لما يُقرأ وتصل إلى الغوص في أعماق النصوص لاستنباط معاني جديدة واستخراج هدايات تحتاجها الوقائع المتجددة في حياتنا!

وفي سائر الأحوال لا بد أن يتغلغل التدبر من خلال مستويين:

الأول: التفكر العقلي الذي يحرك مدارك العقل كلها من أجل فهم الآيات من خلال أبعاد عديدة، أهمها: السياق، المقطع، السورة، وكونه مكياً أو مدنيا، مع الاستعانة بظروف تنزل القرآن وما صح من أسباب النزول، وبما لا يخالف أي قاعدة من قواعد اللغة العربية الفصحى التي تنزّل بها القرآن، ولا يناقض حقيقة من الحقائق العلمية، ولا

يصادم مقصدا من مقاصد الإسلام.

الثاني: الخشوع القلبي، بحيث تنفتح صروح الفؤاد وتتفتح شغاف القلب لإدراك جلال القرآن وجماله، الجلال الكامن في معانيه والجمال الثاوي في مبانيه، واستحضار عظمة من يخاطبنا بالقرآن وكأنه يتنزل علينا الآن، والانفعال بالوعد والوعيد الواردين فيه، وإطلاق الخيال للعيش في نفحات الجنة وما تحتضن من آلاء والاقتراب من لفحات النار وما تحوي من أهوال!

وينبغي أن ندرك أن التدبر أشبه بالبُراق الذي ينقلنا إلى آفاق سماوية سامية، لكنه لا يطير من دون جناحي العقل والقلب، ويخبرنا التأريخ بأن الخوارج كانوا ينفعلون بالقرآن على مستوى الخشوع القلبي دون أن يمرروه على العقل، فكانوا من أشد الناس بكاء أثناء التلاوة لكنهم بسبب عدم تشغيل بوصلة العقل ارتكبوا جنايات عظيمة في حق الأمة وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا، وتسببت أفاعيلهم في إبكاء ملايين المسلمين دما، وفي المقابل ظهرت مجموعات من المعتزلة وأضرابهم ممن أحسنوا تفعيل العقل في فهم القرآن وغاصوا في نصوصه مستخرجين الكثير من أسراره، لكنهم لما لم يمرروه على القلب، أصابهم الغرور ومارسوا الكثير من القساوة مع مخالفيهم وأساء بعضهم الأدب مع ربهم!

فاعلية القرآن الكريم

_ جاذبية كلام الله:

من الآيات التي تُبرز الفاعلية الذاتية للقرآن الكريم قوله تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ [فصلت: ٢٦]، فإن كل من بقي فيه شيء من الفطرة السليمة والعقل المنصف يقع حتما في نطاق جاذبية القرآن الكريم؛ نتيجة بلاغته اللغوية المدهشة وتأثيره النفسي الساحر، وعقلانيته القائمة على الأدلة والبراهين، بجانب احتوائه على بوصلة الهداية الربانية الكاملة، واشتماله على وصفات السعادة الدنيوية والفوز الأخروي بالنسبة للفرد، وعلى معادلات التمكين السياسي والشهود الحضاري بالنسبة للأمة.

_ الخوف من تأثير القرآن الكريم:

من عرف القرآن من الكفار عن قرب وأدركوا عبقريته البنيوية وعظمته المعنوية، إما أنهم آمنوا بأنه كلام الله المتنزل من السماء أو عرفوا قدرته الخارقة على الانسياب في عقول الناس وقلوبهم والتأثير عليها بصورة آسرة، وإذا كان الأولون قد بادروا إلى إظهار مزاياه وتعريف الناس بمكارمه وفضائله وقيمه العظيمة؛ فإن الآخرين قد سارعوا إلى التحذير من قراءته وأسهموا في صناعة حوائط صد تمنع وصوله إلى التابعين لهم، وهؤلاء موجودون في كل زمان منذ عصر تنزل القرآن، وقد سجل الله قول فريق من الكفار لبعضهم حيال هذا القرآن، فقال تعالى على ألسنتهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [فصلت: ٢٦]، ونلاحظ أن هؤلاء حتى وهم في مقام التحريض والتجييش ضد القرآن فإن نفوسهم مسكونة بالهزيمة أمام قوته العجيبة، حيث يظهر هذا الأمر لمن تأمل قولهم (لعلكم تغلبون)، فبصيص الأمل في الغلبة هو الذي يمنحهم الجرأة للوقوف أمام القوة الكاسحة للقران، وهي القوة التي أمر الله رسوله محمدا بأن

يستثمرها في مجاهدة الكافرين، فقال تعالى: ﴿وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾، وهو الجهاد الناعم الذي يتوسل بفاعلية القرآن في إقناع العقول واكتساب القلوب؛ ذلك أن هذه الآية موجودة في سورة الفرقان وهي سورة مكية، ولم يشرع الجهاد إلا بعد قيام الدولة في المدينة المنورة!

وبسبب شدة جاذبية القرآن وعدم قدرة كبراء الكفار على تفسير قوته أو الطعن في كماله وجماله، فقد أطلقوا عليه بأنه سحر، وهو نوع من الهروب من عالم الشهادة إلى عالم الغيب!

وللعلم فإن الاستشراق بدأ كعمل دفاعي لا هجومي من قبل بعض رجال الدين المسيحي في الأندلس، بعد ما رأوا انجذاب شبابهم نحو القرآن وتأثرهم بنمط الحياة الإسلامية وبروز القيم الحضارية في مدائن المسلمين، فتداعوا لتأليف كتب تتولى تشويه صورة الإسلام لتدريسها لأبنائهم حتى تنشأ في عقولهم وقلوبهم صورة شوهاء تحميهم من جاذبية القرآن!

_ إعجاز القرآن:

القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يجمع بين الإعجاز والهداية في آن واحد، فهو معجزة النبي ﷺ بل معجزة هذا الدين في كل عصر ومصر، ولو تأملنا أسماء القرآن وصفاته لوجدنا أضلاع قوته تتبدى من خلالها!

وبسبب القوة الذاتية للقرآن ظل الإسلام يجتذب الآلاف من ذوي العلم والمكانة الرفيعة في بلدان الغرب لاعتناقه حتى في أسوأ حالات تخلف المسلمين، بينما كان الذين يخرجون منه على قلتهم، من الذين يجمعون بين الجهل والفقر غالبا، ومن ثم فقد نظروا للإسلام من زاوية أخلاق المسلمين وسلوكياتهم البعيدة عن هذا الدين!

وللعلم فإن القوة الذاتية لهذا الدين والتي تنبع في الأساس من القرآن هي التي أدت إلى اختراق واحد من قوانين علم الاجتماع الإنساني، وهو القانون الذي يقول بأن الضعيف مولع بتقليد القوي، والمغلوب عاشق لتقليد ثقافة الغالب؛ فقد كان المسلمون في حالات

كثيرة ينهزمون نتيجة بعدهم عن دينهم، ومع ذلك تأتي أعداد من الذين ينتمون لثقافة الغالب ليعتنقوا الإسلام بعد أن يتعرفوا عليه عن قرب، كما حدث ويحدث لمئات الآلاف من الغربيين الذين ظلوا يعتنقون الإسلام في فترات انهزام المسلمين وضعفهم، ووصل الأمر إلى أن شعوبا كاملة من المغول والتتار اعتنقت الإسلام وهم في ذروة انتصارهم على المسلمين، وبالإسلام قام هؤلاء المغول بفتح بلاد الهند وأقاموا إمبراطورية عظيمة استمرت قرونا من الزمان حتى أسقطها الاستعمار البريطاني سنة ١٨٥٨م!

صفات القرآن تبرز قوته الذاتية!

يمتلك القرآن قوة ذاتية هائلة نتيجة جمعه بين الهداية والإعجاز في آن واحد، ولأنه كتاب لعامة البشر في كل زمان، ويشتمل على شؤون الدنيا والآخرة دون أن ينسى الله فيه شيئا أو يفرط فيه من شيء.

وتتضح قوته الذاتية من زوايا كثيرة، ومنها صفاته التي تشير لمن يتأملها إلى أبعاد القوة القرآنية الخارقة وجاذبيته المبهرة للناس. ومن أهم هذه الصفات:

١ـ العزيز: فقد وصفه الله بأنه عزيز فقال تعالى: ﴿..وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ١]، فكفران من يكفر به لا ينال من عزته شيئا، بل إن كفرهم به يحرمهم من ثماره الملموسة ومنها غرس قيمة العزة في النفوس، وهي الفضيلة التي تقع بين رذيلتي الكبر والهوان، وقد جعلها الله لصيقة بذاته وبرسوله والمؤمنين.

٢ـ العظيم: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والعظيم لا يمكن أن ينال منه من هم دونه، ثم إنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ..﴾ [فصلت: ٤٢]؛ فقد أحكم الله آياته في مبناها ومعناها، ولا يستطيع أن يجد فيه أي عظيم نقصا أو عيبا أو ثغرة، كما يوجد في كلام البشر، وهذا عامل من عوامل جاذبيته لدى الناس.

٣ـ التنزيل وكلام الله: قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢]، ولكونه منزلا من الله فإنه يتصف بالكمال والعدل والتوازن وعدم الانحياز لأحد من الناس، فكلهم خلقه وعبيده، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ..﴾ [التوبة: ٦]، وبلا شك فإن الثقة بجاذبية القرآن بادية من الأمر للرسول عليه السلام ومن يقوم مقامه بإجارة من يستجير بهم من المشركين حتى يسمعوا كلام الله، وكلام الله إكسير يستطيع إزالة الغشاوة عن أعين من

يبحث عن الحقيقة من هؤلاء!

٤_ النّور: قال تعالى: ﴿..وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[النساء: ١٤٢]، فهو ليس نورا بيّنا في ذاته فقط بل هو نور مبين أي يملك القدرة على إبانة طريق الرشد وسط حوالك الفتن كاشفا سبل الإغراء والإغواء!

ولأن مصدر هذا النور هو الله فإن من المحال إطفاءه، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾[الصف: ٨]، ومن ثم فإن القرآن قادر على تنوير العقل والقلب بعيدا عن الخرافات والمخاوف المنبعثة من تصور مغلوط لعالم الغيب، وقادر على إضاءة مجاهل الحياة بتعاليمه الفرقانية التي تنحاز بشكل مطلق لقيم الحق والعدل والحرية والكرامة، وهذا يمنح القرآن قوة إضافية.

٥_ المبارك والكريم: قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٩]، هذا بالنسبة لصفة (مبارك) أما (كريم) فيقول تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦، ٧٧]، ولأنه مبارك وكريم فإن عطاءه للعقول والقلوب والأرواح والأجسام والجوارح، وفي سائر الأوقات والظروف، وفي شتى ميادين الحياة، مما يحتاجه البشر في معاشهم ومعادهم، لا منتهى له، مما يدفع بكثيرين للنهل من منابعه الصافية، هذا بجانب أنه يعطي للعقل مساحة واسعة للتدبر والتأمل وتجسيد صفتي الكرم والبركة في استنباط معاني جديدة تلبي حاجات الناس باختلاف الزمان والمكان، ولا يجيز لرجل دين أن يكون وسيطا بين المرء وكلام ربه، كما في التعبد والدعاء، وغاية ما يفعله أنه حينما يعجز المرء عن الفهم يلجأ إلى أصحاب العلم لسؤالهم: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

٦_ الرحمة والهدى: قال تعالى: ﴿الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ١_ ٣]. وعن الهدى قال تعالى: ﴿ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]؛ ولما كان القرآن كتاب تتجسد فيه رحمة الله بالناس

وحرصه على هداهم بعيدا عن الظنون والضلالات وعن الأحكام الشديدة التي تحمّلهم ما لا طاقة لهم به؛ فإنه يجد إقبالا كبيرا من كل من يعرفه عن قرب!

وللعلم فقد استنبط العلماء قرابة ١٠٠ صفة للقرآن الكريم من كلام الله عز وجل، وما ذكرناه هنا مجرد نماذج وأمثلة، وكل هذه الصفات تُبرز أبعاد العظمة القرآنية وأسباب جاذبية النص القرآني وقدرته على التأثير.

ويستطيع كل امرئ من البشر أن يلج إلى الإسلام من أحد أبواب القرآن المذكورة في صفاته والتي سأضعها بين قوسين هنا؛ فعاشق الفصاحة سيدخل من باب (المُبين)، ومحب الحكمة سيدخل من باب (الحكيم)، وصاحب القلب الطيب سيدخل من أبواب (الموعظة) و(البشير) و(النذير) و(التذكرة)، وسيدخل الطموح من باب (المجيد)!

ويمكن للمريض أن يجد فيه (الشفاء)، ويجد فيه الجاهل (العلم) ويجد فيه الباحث عن الحقيقة (الحق) و(الصدق) ويجد فيه الحائر (الفرقان) و(البصائر)!

عندما يتولى الله ورسوله تعليم القرآن!

من المعلوم للمؤمنين أن القرآن الكريم مصدر الحياة الطيبة في دار المعاش، وسبب النعيم الأبدي في دار المعاد، ومن ثم فإن تعليم آياته للعباد هو أعظم النعم عليهم، وهذا ما افتتحت به سورة (الرحمن)، قال تعالى: ﴿الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]. ومن أجل بيان مدى عظمة هذه النعمة، وهي تعليم القرآن وتفهيمه، فإن هناك ما يلفت نظرنا في هذه الكلمات القرآنية المعدودة، وهي:

١ـ الافتتاح باسم الرحمن، وقد اختاره الله من بين ٩٩ اسما تمثل الأسماء الحسنى لله عز وجل، لأن المقام مقام امتنان بنعمة ستجلب خيري الدنيا والآخرة لمن أخذها بحقها، فكان اختيار هذا الاسم وكأنه يقول بأن تعليم الله للقرآن هو من رحمته بالناس.

٢ـ نسبة تعليم القرآن الكريم لله مع أنه قائله ومنزله تعالى، لكنه يريد أن يبين لنا عظمة مقام التعليم للقرآن حتى يكون حافزا للرسول والعلماء والدعاة، وربما كان الله عز وجل قد علّم جبريل القرآن حقيقة، فقد كان ينزل في كل رمضان يدارس القرآن مع الرسول ﷺ مرة خلال الشهر، وفي آخر رمضان من عمر الرسول دارسه جبريل مرتين!

٣ـ تقديم مقام تعليم القرآن على مقام خلق الإنسان، فقد أورد الله عبارة (علّم القرآن) قبل عبارة (خلق الإنسان)، مع أن الترتيب الزمني بالعكس فقد تم خلق الإنسان أولا، لكنه تعالى هنا قدم ما هو أعظم، وهذه أعظم لفتة للتنويه بالشرف الذي يمثله تعليم القرآن!

٤ـ الحديث عن تعليم الله البيان للإنسان في الآية الرابعة، وهذا تعزيز لما سبق؛ لأن القرآن بشقي الإعجاز والهداية لا يُفهم إلا من صاحب البيان، ومن باب أولى من يقوم بتعليمه!

ولكن لماذا ورد الامتنان بهذه النعمة العظيمة في سورة الرحمن وفي مطلعها بالتحديد؟..

يبدو أن السبب في ذلك هو أن هذه السورة تزخر بجملة من آلاء الله التي لا تعد ولا تحصى، ولأن المقام مقام امتنان فقد بدأ بأعظم المنن والآلاء على الإطلاق، وحينما نقرأ هذه السورة نجد بعد كل نعمة منها يأتي السؤال الرحماني في آية منفصلة: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، والخطاب هنا للإنس والجن، وقد تكررت عبارة الامتنان هذه بنفس الحروف في ٣١ موضعا من هذه السورة غير الطويلة!

ويؤيد هذا الاستنباط ما ذكره الإمام الشوكاني في كتابه (فتح القدير) بهذا الشأن، فقد قال: «ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده، قدم النعمة التي هي أجلّها قدرا وأكثرها نفعا وأتمها فائدة، وأعظمها عائدة، وهي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، وقطب رحى الخيرين، وعماد الأمرين».

وفي مقام آخر امتن الله على المسلمين ببعثة محمد ﷺ فيهم، وإعداده لتعليمهم القرآن بجانب مهماته الأخرى، فقال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ونلاحظ أنه عز وجل بدأ الآية بحرف تحقيق وصدّره باللام (لقد) من أجل تأكيد ما سيأتي من كلام، وأورد فعل الامتنان بكل وضوح (منّ)، وذكر المؤمنين هنا وليس المسلمين؛ لأنه لن يستفيد من هذه المنة إلا المؤمنون، ذلك أن الإيمان يجمع بين العلم الذي يحتاجه التفكر العقلي ويزيده، وبين الإخلاص الذي يحتاجه التخشع القلبي ويباركه. والتلاوة الواردة في الآية تعني القراءة الخاشعة المتأنية التي تتغلغل في ثنايا العقل والقلب، ثم التزكية التي تعني التربية على تعاليم القرآن بما تتضمنه من تخلية لآثار القبضة الترابية التي تجذب المرء نحو الأرض، وتنمية لأشواق النفخة الروحية التي ترقى بالمرء نحو السماء.

أما تعليمه إياهم الكتاب والحكمة، فتعني تفهيمهم منهج التعاطي مع القرآن لاستخراج أسراره الثاوية في نصوصه المحكمة والمتشابهة، والحكمة تعني تعليمهم

التنزيل السوي لتوجيهات القرآن ومعانيه على الحوادث والمشاكل التي تعتمل في الحياة، بطريقة مثالية؛ ذلك أن أجمع تعريف للحكمة هو وضع الشيء في محله وهو أنسب تعريف لما نحن بصدده هنا.

دور تلاوة القرآن في صناعة الحياة!

_ التلاوة الاتباعية:

أنزل الله إلى رسوله محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

وبالطبع فإن للتلاوة معنيين: المعنى اللغوي الذي يعني الاتباع؛ مثل قوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها﴾ [الشمس: ١، ٢] أي إذا تبعها، والمعنى الاصطلاحي الذي يعني قراءة القرآن بتمهل وخشوع، وقد اختير هذا المصطلح للتعبير عن عملية قراءة نصوص القرآن؛ للتذكير دائما بأن الغاية من تنزيل القرآن وتلاوته وتدبره وهو السير خلف توجيهاته وتجسيد تعاليمه في مختلف نواحي الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية.

ونعود إلى الآية السابقة، فهي تؤكد أن المقصود بتلاوة القرآن اتباعه والسير خلفه، فالرسول ﷺ الذي ورد النص على لسانه يؤكد أن الله أمره بأن يتلو القرآن أي بأن يقرأ تعاليمه ويسير خلف هداها مباشرة، ومما يؤيد ذلك أن الجملة التابعة لفعل التلاوة تقول: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾، والاهتداء هو أن يعرف المرء الحق (الفهم) ثم يحسن السير خلفه، وأن يعرف الباطل ويجيد البعد عنه!

ويكرر الله هذا الأمر في سورة أخرى فيقول عز من قائل: ﴿اتلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وكأن الله في هذه الآية التي جمعت ببن تلاوة القرآن وإقامة الصلاة، تجمع بين عماد التصورات الراشدة وعمود الشعائر التعبدية!

_ التلاوة التي تنمي الإيمان:

لقد جاء ضمن صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢]، ونلاحظ أنه تعالى بدأ الآية بكلمة (إنما) حتى تفيد القصر، بمعنى أن من لم تتوافر لهم الصفات التي ستأتي ليسوا من المؤمنين، لكنهم قد يكونون مسلمين بالطبع كما هو حال أغلب المليارين الذين ينتسبون للإسلام اليوم، ولهذا حينما ادعا مجموعة من الأعراب الإيمان ولم يكونوا قد اتصفوا بحقيقة الصفات الإيمانية بعد، خطّأهم الوحي ونقل قصتهم لجميع المسلمين من أجل الاعتبار، فقال تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [الحجرات: ١٤].

ويتضح من الآية أن تلاوة القرآن سواء كانت ذاتية أو خارجية، تزيد في إيمان من يريد، ولكن كيف ستزيد الإيمان إن لم يعانقها العقل بمداركه فيزداد معرفة بمراد ربه، وإن لم يستقبلها القلب بشغافه فيزداد شغفا بدينه ودافعية لتطبيق توجيهاته؟ ثم كيف سيزيد الإيمان إن لم يتم تطبيق الآيات في الواقع العملي ابتداء من الذات ووصولا إلى مختلف شعب الإيمان المتصلة بعمارة الأرض وصناعة الحياة؟!

وبالطبع فإن من تليت عليهم آيات الله فلم تتفكر فيها عقولهم ولم تتشربها قلوبهم، فإنه يدخل ضمن من يخرون أمام آيات الله صُماً وعميانا؛ فقد ورد ضمن أوصاف عباد الرحمن قوله تعالى: ﴿والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صُما وعميانا﴾[الفرقان: ٧٣]، ويا لعظمة هذا التصوير الذي يظهر بشاعة الإعراض العقلي عن آيات الله.

استقامة طريق القرآن

ورد في عدد من آيات القرآن الكريم أن صراط الله مستقيم لا عوج فيه، وأمر الله باتباع هذا الصراط ونهى عن اتباع السبل التي عن يمينه وعن شماله، فقال عز من قائل: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ولخطورة القضية فقد اعتبر هذا الأمر وصيته تعالى لخلقه، ثم ختم بالقول: ﴿لعلكم تتقون﴾؛ لأنه أتى بأمر ونهي، وجماع التقوى هي أن لا يجدك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك!

ويبدو أن الصراط المقصود هو القرآن الكريم، بدلالة أنه قال: فاتبعوه ولم يقل فسيروا فيه أو عليه، والاتباع لا يكون إلا للقرآن، وعن يمينه تتفرع سبل الجهل والضلال والغواية، وعن شماله تتفرع سبل الرياء والنفاق ومرض القلوب.

ومن المعلوم أن انحراف اليهود كان من جهة الإخلاص ولذلك سماهم القرآن بالمغضوب عليهم؛ ذلك أنهم عرفوا الحق وساروا في طريق الباطل بسبب مرض قلوبهم، بينما حدث انحراف النصارى من جهة العلم رغم تحليهم بالإخلاص ولذلك سماهم القرآن بالضالين الذين أرادوا الحق فأخطأوه. ولكي لا يقع المسلمون في ما وقع فيه هؤلاء أو أولئك، فقد منحهم الله القرآن وتعهد بحفظه بنفسه داعيا إياهم إلى الانشغال بالقرآن وحسن التعاطي معه حتى يهتدوا بهداه ويصطبغوا بصبغته.

وبالطبع فإن حجر الزاوية في التعاطي المفروض هو التدبر الذي يتكون من شقين:

الأول: الشق العقلي، وهو الذي يوفر العلم حتى لا يضلوا الطريق؛ ولذلك فقد ربط الله الازدياد في العلم بتدبر القرآن فقال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربي زدني علما﴾.

الثاني: الشق القلبي، وهو الذي يوفر الإخلاص حتى لا يقع عليهم غضب الله!

وبعبارة أخرى إن العلم يهبهم بوصلة السير الحثيث على الصراط المستقيم، والإخلاص يمنحهم الزاد والعزيمة والدأب، في سبيل مواصلة السير في الطريق الطويل وتجاوز كافة المصاعب من أجل الوصول الآمن إلى الله تعالى.

ولأن الاستقامة بهذا الشمول وهذه الخطورة فقد فرض الله طلب الاستقامة منه في كل ركعة من كل صلاة، ذلك أنها آية من آيات الفاتحة ولا صلاة من دون فاتحة القرآن وأمّ الكتاب!

ولما كان الرسول ﷺ يعلم أن الاستقامة منهج للالتزام الصارم بكل تعاليم القرآن في التعامل الفردي والأسري والاسلامي والإنساني، وكذا في الحكم والسياسة والقضاء والاقتصاد والاجتماع والفن وسائر ميادين الحياة، لذا فقد كان دائم الخوف من قول الله تعالى له: ﴿فاستقم كما أمرت﴾، حيث ورد في الحديث أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل الرسول ﷺ عن الشيء الذي جلب له الشيب باكرا، فقال: «شيبتني هود وأخواتها»، واختلفوا حول الشيء الموجود في سورة هود والذي سبب له الشيب، فذهب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله إلى أن الذي فعل به ذلك هو قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾!

التعقّل الخاشع للقرآن!

أوضحت إحدى آيات القرآن الكريم أن الحكمة من إنزال القرآن باللغة العربية هي تسهيل تعقله من قبل المؤمنين، قال تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾، ذلك أن اللغة العربية أغنى لغات العالم بالمفردات التي تراعي الفروق الدقيقة بين المفاهيم والأشياء والمشاعر والظواهر، فمفردات واشتقاقات أكبر معاجمها اللغوية تزيد عن ١٣ مليون مادة، بينما أكبر معجم باللغة الإنجليزية تبلغ مواده ٨٠٠ ألف، وأكبر معجم باللغة الفرنسية تبلغ مواده ٤٠٠ ألف!

والتعقل الوارد في الآية يفيد ثلاثة أمور:

أولها: التلاوة الجميلة لأنها الطريق للتعقل.

ثانيها: التدبر التأملي لأنه مضمون التفهم العقلي والإدكار القلبي.

ثالثها: العمل التطبيقي، لأن الغاية من تنزيل القرآن هي الاهتداء بهداه الأقوم والسير وفق تعاليمه الربانية المعصومة، وذلك في كافة مجالات الحياة، حتى أن الاتباع من معاني مصطلح التلاوة، فتلاه في اللغة أي تبعه، وبالطبع فإنه لا يمكن للمرء أن يكون عاقلا ما لم يفعل ما ينفعه ويتجنب ما يضره، والمتأمل في نصوص القرآن يرى بوضوح أن تعاليمه تتضافر بمختلف الأساليب والصيغ من أجل جلب المنافع للناس في المعاش والمعاد، ودفع المضار فيهما. ومن ثم فإن جملة ﴿لعلكم تعقلون﴾ هي أجمع الآيات التي تتحدث عن الغاية من إنزال القرآن الكريم.

وكان القرآن قد أورد قصة الحياة القصيرة لآدم وحواء في الجنة، وذكر كيف أن عدم الالتزام بتعاليم الخالق رغم بساطتها قد أدى إلى الطرد من الجنة والإهباط إلى الأرض، ثم عقّب الله على ذلك فقالتعالى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[طه: ١٢٣]، ذلك أن الاتباع هو الهدف الغائي من تنزيل القرآن الكريم.

ومن أجل الاستفادة المثلى من هدايات القرآن فقد ربط الله ربطا وثيقا بين التدبر العقلي والتذكر القلبي، كما في قوله تعالى: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾، واستخدم هنا أداة الحصر (إنما) ليؤكد أن الطريق الحقيقي لتحقيق التذكر القلبي هو تفعيل مدارك العقل في التفكر، إذ بتفعيل الناس لهذه المدارك يصيرون من أولي الألباب، وإلا ما فائدة العقول التي لم يتم تشغيلها ولا استثمار طاقاتها؟! إنها تصير حينئذ وكأنها لم تكن!

وفي هذا السياق قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ [الحج: ٤٦]، فقد جعل القلوب أداة للتعقل، تعبيرا عن المزج بين التفكير العقلي الجاف والمشاعر القلبية السائلة، بحيث يتكون ما سميناه بالتعقل الخاشع أو الخشوع العقلي.

ولقد حضّ الله على الخشوع فقال عز من قائل: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ [الحديد: ١٦]، وكان ﷺ يقوم ساعات عديدة يردد آية واحدة، فينير بمعانيها وذخائرها المخبوئة عقله، ويلين بوعدها ووعيدها قلبه، حتى روي أنه ﷺ شيبته سورة هود وأخواتها، بينما نجد كثيرا من قراء عصرنا يطول عليهم الأمد لكنهم لا يشيبون؛ بسبب برودة القلوب والانغماس في متع الدنيا!

وصفوة القول في هذه القضية، إن المؤمن الذي يريد أن يستفيد من طريقة القرآن في التعاطي مع القرآن، ينبغي أن يتعاطى معه كأنما أنزل عليه اليوم، ويستنفر ذاته كلها للتعاطي الأمثل معه، بحيث يعطي للقرآن كله، فالعقل يتفكر ويتأمل في رسائل الله، والقلب ينفعل فيخشع ويخضع لمراد الله، والجسم ينسلك ويعمل ما يريده الله.

المتابعة الحثيثة للقرآن

يشتمل القرآن الكريم على منهج متكامل للتعامل الأمثل مع كل الأشياء بما فيها التعاطي مع القرآن نفسه، ابتداء من التلاوة والفهم والخشوع، ومرورا بامتلاك قواعد التنزيل السوي على الواقع، وصولاً إلى التطبيق والتجسيد الصحيحين لقيمه على أرض الواقع، مثلما كان الصحابة الكرام يوصفون بأنهم مصاحف تمشي على ظهر الأرض!

وللأسف الشديد فإن بعض العلماء الذين ظهروا بعد قرون الخيرية الثلاثة الأولى، قد تأثروا بثقافة التخلف التي غشيت عصرهم وببعض علل التدين التي وفدت إليهم من الأمم الأخرى، ومن ثم فقد اختزلوا المنهج القرآني للتعاطي مع القرآن، في التلاوة والحفظ، مثلما اختزلوا الإيمان ذي البضع وسبعين شعبة في أركان الإيمان الستة ولا سيما في التوحيد، واختزلوا العبادة المنبثة في أرجاء الأرض ومجالات الحياة في الشعائر التعبدية متمثلة في الصلاة والصوم والحج، واختزلوا العلوم التي تجلب المصالح للناس وتدرأ عنهم المفاسد في علم الشريعة وسموها العلوم الشرعية...الخ

وفي المقابل فقد تم إهمال التدبر والتنزيل، بل واختزال التطبيق في عبادات فردية لازمة ومعظمها متصلة بالله، مع أن الهداية الشاملة للأفراد والأسر والجماعات والأمة هي الغاية من تنزيل القرآن!

ولأنه لا توجد آية قرآنية تدعو إلى حفظ القرآن على سبيل الإيجاب والتعبد إطلاقا، فقد رأينا من يؤولون آيات التدبر والتعقل لصالح الحفظ والتلاوة، وعلى سبيل المثال وجدنا من يفسر الادكار في قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ بالحفظ!!

وفي قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾، فسّر أغلب المفسرين التلاوة هنا بالمعنى المتبادر إلى الذهن وهو قراءة الحروف مع تطبيق أحكام التجويد كافة، ويبدو أن المقصود بالتلاوة في الآية هو الاتباع، أي يتبعونه حق اتباعه، كما قال ابن تيمية رحمه الله، مستدلاً بأن التلاوة تأتي بمعنى الاتباع، كما في قوله تعالى: ﴿والقمر إذا تلاها﴾

أي إذا تبعها.

ويمكن القول بأن الآية المركزية في مضمار توضيح طريقة التعاطي مع القرآن، هي قوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾، فالقرآن محدود في مبانيه لكن معانيه من البركة بمكان بحيث تستطيع أن تجيب عن كل سؤال وتحل كل إشكال، وتصف الدواء لكل معضلة والمخرج من كل أزمة، ولكن ذلك لا يتم من دون إعمال منهج التدبر بشقي التفكر العقلي والتخشع القلبي، بحيث يمنح التفكر للمؤمن البوصلة للسير المستقيم ويوفر الخشوع القلبي الزاد لمواصلة السير في مختلف الظروف، سواء كان الابتلاء بالسراء أو بالضراء، ويبدو أن هذه هي الحكمة من اختيار صفة البركة للقرآن من بين صفاته الوفيرة في مقام التدبر والتذكر، كأنه تعالى يقول بأن علم الله وعظمته وحكمته قد انعكست على القرآن بالبركة، بحيث يحتوي على كل ما يحتاجه المسلمون في تنظيم سائر شؤون حياتهم، ولكن عليهم أن يستخرجوا مطلوباتهم من خلال التدبر، بحيث يربطون الجزئيات بالكليات والفروع بالأصول والوسائل بالمقاصد والأساليب بالغايات، ولا ينسون بأن فردسة الأرض وفق منهج الله هي الطريق لاستعادة الفردوس السماوي المفقود!

جريمة تبعيض القرآن!

من المسائل المعلومة بالضرورة أن القرآن كتاب هداية متكامل ودستور حياة شامل لكل الجوانب الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والترفيهية في دنيا المسلم، فقد نزل الله الكتاب تبيانا لكل شيء، وأخبر بأنه لم يفرط فيه من شيء، ودعا للإيمان به جملة وتفصيلا من حيث المبدأ، وبالنسبة للتطبيق العملي فإنه يخضع للقدرة والاستطاعة، بمعنى أن التصورات مطلقة والتصرفات المبنية عليها نسبية بحسب الظروف والاستطاعات.

وفي المقابل فقد شنّع الله عز وجل على من جعلوا القرآن عضين، ممن تشيعوا لبعض تعاليمه وعارضوا البعض الآخر، فقال تعالى: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين. الذين جعلوا القرآن عضين﴾، ونهى عن تبعيض القرآن نهياً قاطعا، في سياق الحديث عن إيمان بني إسرائيل ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر، حينما وجه لهم سؤالا استنكاريا يقول: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾، وهذا أبلغ من النهي!

والكتاب هو اسم من أسماء القرآن، ومن يتمعن في سر تسمية القرآن بالكتاب، مع أن المصطلح يطلق على أي كتاب، سيجد أن من أسراره التنويه بوحدته البنيوية والموضوعية، فهو متشابه في فصاحته وبلاغته، ومتكامل في تعاليمه وهداياته، حيث لا تناقض ولا تعارض.

ومن معاني الكتاب أنه وحدة واحدة لا تقبل التجزيء والتبعيض، ويرفض الاستبعاد لأي من تعاليمه مثلما لا يقبل أي كتاب نزع صفحة من صفحاته، وإذا حدث ذلك فإنه لا يبقى سليما.

وفي هذا السياق عاب الله على بني إسرائيل عدم تقديرهم لله حق قدره وقيامهم بالتعامل مع التوراة والإنجيل كقراطيس منفصلة عن بعضها، ثم يقومون بإظهار ما

يتناسب مع أهوائهم ويحقق رغائبهم ويخفون ما يتعارض معهما، فقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ [الأنعام: ٩١]، وهكذا فإن من يمارس تجزيء القرآن مهما كانت دوافعه إنما يخوض بكله في اللعب، واللعب لا يربي فردا ولا يقيم مجتمعا، فضلا عن أن يقيم حضارة ويوجِد أمة!

ومن الثمار المرة لجريمة تبعيض القرآن وجعله قراطيس منفصلة، أن وجدنا زعماء لا يعرفون من الإسلام إلا الزكاة وطاعة ما يسمونه بولي الأمر، متجاهلين الحكم بما أنزل الله وإقامة موازين العدل واحترام حريات المواطنين وخدمة حقوقهم، ووجدنا علماء يركزون على طاعة الرسول من زاوية أنهم ورثة الرسول في الطاعة وأن لحومهم مسمومة، متجاهلين أدوار العلماء في التربية والتعليم ومحاربة المنكرات وتجفيف منابع الآثام والتصدي للفاسدين، والصدع بكلمة الحق في وجوه الظالمين والمستبدين، ووجدنا تيارات وفرقا تشيعت لنصوص من القرآن تؤيد ما تعتنقه من أفكار جزئية أو منحرفة؛ بتأويل باطل أو متعسف لبعض النصوص وتجاهل تام لبقية النصوص، وفي ذات السياق وجدنا آباء لا يعرفون من القرآن إلا آيات طاعة الوالدين، وأزواجا لا يعرفون إلا حقوقهم وهلم جرا، ويذكرني هذا بما روي عن أشعب الذي اشتهر بطمعه ونهمه الشديد على الطعام، فقد قرب له أحد الكبراء وجبة دسمة، وعندما هم أن يمد يده طلب منه المضيف أن يُسمعه شيئا من القرآن الذي علم أنه يحفظه عن ظهر قلب، فقال له: كنت أحفظه ونسيته ولم أعد أتذكر إلا قوله تعالى: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا في سفرنا هذا نصبا﴾!

ونستنتج مما سبق أن الجميع معنيون بحقوقهم دون واجباتهم، وبالجزء الظاهر من الحقيقة دون الوجه الخفي من أمام أعينهم، مع تضخم للذوات وتزكية للنفوس، وصولا إلى احتكار تام للحقيقة المطلقة وتسفيه الآخر وتفسيقه وربما تكفيره، مما زاد من حالة التمزق في أمتنا ووسع ظاهرة الغثائية بين أبنائها!

هداية القرآن بين الإنعام والإضعاف!

_ إنعام الهداية:

من أعظم نعم الله على عباده أنه أوضح لهم طريق الهداية بكتاب عربي مبين، ويسره للقراءة والفهم والادكار والتطبيق، بل وتعهد لعباده بأن يمنحهم هدايته جاعلاً هذا الأمر حقا عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إن علينا للهدى﴾، ولنتأمل قليلا عبارة (علينا) لنفهم المقصود هنا، ثم تعهد بأن يريهم طريقه المستقيم، فقال تعالى: ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾، أي أتعهد بأن أجعله مستقيما في منظومة المعتقدات والأقوال والأخلاق والأفعال التي ينبغي أن يكون عليها المسلم، وكما قال التابعي مجاهد: «الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه لا يعرج على شيء». وفي ذات السياق قال تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي على الله استقامة الطريق؛ ذلك أن منهج الإسلام يتسم بأنه: فطري، وسطي، عقلي، متوازن.

وفي ذات الوقت فقد منح الله عباده الحرية لكي يسيروا في الطريق الذي أقامه لهم أو ينحرفوا إلى السبل التي تتفرع منه، ليستحقوا الثواب بجدارة أو يحل بهم العقاب بسبب ما اختارته عقولهم وما سلكته أقدامهم وما كسبته أيديهم!

وكما قال ﷺ:» كلكم يدخل الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»!

_ إضعاف هداية القرآن:

جاء القرآن الكريم كتاب هداية عامة للناس، وفي داخله كتاب هداية خاصة للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ [البقرة:]. ويمتلك القرآن الكريم قوة ذاتية هائلة تكمن في مصدره الرباني وإحكامه من قبل من يعلم من خلق، غير أن هناك عددا من العوامل التي تعمل عملها في إضعاف هذه الهداية، وأهمها:

١ _ ضعف تدبر القرآن الكريم بسبب الناس طاقتهم على التلاوة والحفظ والاستذكار.

٢ _ تكلف بعض المفسرين في تفسير بعض الآيات، ذلك التكلف الذي يجانب قواعد التفسير وضوابط الفهم المعروفة عند أئمة العلم، مما يدقعه بعيدا عن جادة الهداية، مثل الذين يبالغون في التعمق فيأتون بتفسير باطني لا يلتزم بمقاصد القرآن، ولا بقواعد اللغة العربية، ولا بأصول الفهم المتفق عليها.

٣ _ اختلاف المفسرين بصورة تصل إلى حد التناقض في كثير من الأحيان وكثرة الأقوال في الآية الواحدة، مما يوقع القراء في حيرة ويزهدهم بالتدبر وقراءة كتب التفسير، مع أن القرآن ميسر للذكر والفهم، ما أعمل القراء مدارك عقولهم واستثمروا طاقة التدبر والادكار، ولا يمكن لاختلاف الأفهام أن يصل إلى حد التناقض والتضاد، إلا إذا ابتعد المفسرون عن جادة الصواب ونسوا أن المقصد الأساسي لتفسير الآيات هو تحقيق الهداية المنشودة.

٤ _ الاهتمام بالمباني القرآنية أكثر من المعاني، حيث اهتم كثير من علماء الدراسات القرآنية بعلوم الوسائل المتصلة بالقرآن أكثر من الاهتمام بالغاية من تنزل القرآن وهي الهداية، ومن خلال عنايتي بهذا الموضوع خلال أكثر من عقدين من الزمن اتضح لي أن الكتب المؤلفة في خدمة المبنى القرآني أضعاف الكتب التي انغمست في إبراز معاني القرآن واستنباط هداياته!

آيات اللّه بين عطية التصريف وعقوبة الصرف!

_ نعمة التصريف:

من خصائص النظم القرآني المتميزة ما سماه القرآن بالتصريف، وهو إيراد المعاني بأساليب متعددة والدخول على العقول والقلوب من مداخل متنوعة، واستخدام مختلف أساليب التأثير على الوعي والوجدان، كالقصص والأمثال والبراهين والمواعظ والوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد..﴾ [طه: ١١٣]، أي وزعنا الوعيد في مواضع عديدة وأتينا به بصيغ وأساليب متنوعة، بحيث يتأثر كل شخص بالأسلوب الذي يتناسب مع تكوينه الخاص.

وفي ذات الدرب قال عز من قائل: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل... ﴾ [الكهف: ٥٤]، وتفيد عبارة ﴿من كل مثل﴾ بأن كل أنواع الأمثال المستخدمة في لغة العرب، وهي أعظم لغات البشر وأكثرها ثراء، موجودة في كتاب القرآن.

ولأن الله يعلم طبيعة خلقه فقد صاغ القرآن بهذه الطريقة المحكمة والمؤثرة، ولا بد لكل صاحب فطرة سوية أن يفهم عقله ويتأثر وجدانه بأساليب القرآن أو ببعضها، كما حدث ويحدث لكثير من منصفي الشرك وأهل الكتاب، ومن لم يتأثر عقله أو ينفعل قلبه وهو يتلو أو يسمع لآيات من القرآن فإن خللاً كبيرا يسكنه وتسبّب بعدم وقوع التأثر المفترض، ومن هنا فقد عجّب الله رسوله الهادي من انصراف هؤلاء رغم تصريف الآيات لهم، كما في قوله عز وجل: ﴿انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون﴾ [الأنعام: ٤٦]، فالتصريف عطية رحمانية والصدوف داء يحمله المرء في ذاته فلا يلومن إلا نفسه!

_ مقاصد التصريف:

أورد الله في قرآنه أن الغرض من تصريف الآيات تحقيق عدد من المقاصد، أهمها:

١_ التفقه في دين الله، فكل أسلوب يضيف من المعاني والأسرار ما لا يوجد في غيره من الأساليب، وحتى في إطار الأسلوب الواحد فإن تأثيره يختلف، وينبع هذا الاختلاف من اختلاف عنوان السورة، وموضوعها، والسياق الذي ورد فيه الأسلوب، والطريقة التي صيغ بها، وهذا يُكسب المؤمن ثروة معرفية دقيقة ويحثهم في ذات الوقت على الاستفادة من منهجية التصريف القرآنية في دعوتهم وتأليفهم وإصلاحهم ومحاضراتهم وخطبهم ودروسهم، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [الأنعام: ٦٥]، بمعنى أن التصريف أرجى للفقه والوعي، وقد ذكر الله هنا (لعلهم) التي تفيد الرجاء لأن التصريف لا يعمل بطريقة آلية وإنما بحسب ما يبذل المرء من جهد في التفاعل معه وما يُخلي من مدارك لاستيعابه، وبحسب قوة ذكائه وتنوع مواهبه ووفق استعداداته النفسية والروحية!

٢_ التذكر والانسياق: قال تعالى: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذّكّروا..﴾ [الإسراء: ٤١]، لكن التذكر لا يحصل إلا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣_ اكتساب التقوى: قال تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدث لهم ذكرا﴾ [طه: ١١٣]، ومع أن الذكر يتضمن الشعور برقابة الله التي تعصم من المعاصي كما التقوى، إلا أن التقوى أقوى من التذكر، ففي حالة التذكر قد ينسى المرء بعض ما يعرف تحت ضغط الشهوة أو العادة أو المصلحة، لكن التقوى إن حيزت صارت منهجا حازما يمنع المرء من ترك الواجبات ومن حضور المحرمات في كل الأحوال!

٤_ الشكر: والشكر مبني على المقاصد السابقة، فمن رأى فوائد التصريف ولمس ثمارها اندفع إلى شكر المنعم بكل جوانحه وجوارحه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾ [الأعراف: ٥٨].

_ عقوبة الصرف:

يمكن تعريف الصرف هنا بأنه شعور شخصي أو رغبة ملحة بالابتعاد عن القرآن،

وهو تيسير إلهي لانصراف من أرادوا الانصراف بملء إرادتهم، ويحدث ذلك لعدم وجود الأهلية لنيل هدايا القرآن وهداياته، وهذه أهم عوامل الصرف التي ذكرها القرآن نفسه:

١_ الكبر:

قال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض..﴾ [الأعراف: ١٤٦]، والصرف هنا هو العمى عن رؤية الهداية المختفية وراء آيات الله المسطورة في كتاب القرآن أو المنظورة في كتاب الكون أو الثاوية في تركيبة الإنسان، ولا غرابة أن لا يرى المتكبرون هدايا الله، فهم يغمطون الناس حقوقهم ويبخسونهم أشياءهم، ويسيرون في الأرض مرحا ظانين أنهم سيخرقون الأرض ويبلغون الجبال طولا؛ مما يصرفهم عن رؤية هدايا الله!

٢_ عدم تفعيل أدوات الفقه:

فقد خلق الله للإنسان جهاز وعي يستطيع عن طريقه أن يتعلم ويتفقه، لكن عدم إعماله يفقده وظيفته مع المدى تماما، ولذلك علل تعالى صرف بعض القلوب عن آياته فقال تعالى: ﴿صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧]، أي لم يستخدموا عقولهم لفهم آيات ربهم.

٣_ الانصراف والصدوف:

وهو الإعراض والميل والزيغ والابتعاد عن أنوار القرآن ونطاق جاذبيته، ولا يمكن أن يمنح الله هدايته لمن أعرض عنها ورفض استقبالها، قال تعالى: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ [التوبة: ١٢٧]؛ فالجزاء الإلهي من جنس العمل، حيث ييسر لهم ما يريدون فقط.

إنعام الهداية

من أعظم آلاء الله على عباده أنه أوضح لهم طريق الهداية بكتاب مبين وجعل فهمه ميسرا للمُدّكرين، بل وتعهد لعباده بأن يمنحهم فيوض هدايته، فقال تعالى: ﴿إن علينا للهدى﴾، حيث تحمل لفظة (علينا) معنى الالتزام الرباني، ثم تعهد بأن يريهم طريقه المستقيم ما فتحوا أعينهم مستبصرين الطريق، واستخدم لفظ (عليّ) مرة ثانية، فقال تعالى: ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾، وكما قال التابعي مجاهد: «الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء». وفي ذات السياق استخدم تعالى مرة أخرى لفظة الإلزام لنفسه (على) فقال عز من قائل: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي عليه ضمانة استقامة الطريق، ومن يتأمل حقيقة الإسلام بعمق فسيجد أن الاستقامة فيه واضحة بيّنة؛ ذلك أنه:

١ـ فطري أصيل ويتسق مع التركيبة المزدوجة للإنسان من القبضة الترابية والنفخة الروحية.

٢ـ وسطي غير متطرف نحو جهة اليمين أو جهة اليسار.

٣ـ عقلي منطقي، لا مجال فيه للجهل والخرافات والخزعبلات.

٤ـ متوازن غير ميال نحو بُعد على حساب آخر.

وفي ذات الوقت فقد منح الله عباده الحرية التامة لكي يسيروا في الطريق الذي أقامه من أجلهم وأحبه لهم، وجعلهم في ذات الوقت قادرين على الانحراف نحو السبل التي تتفرع عن الصراط المستقيم، من أجل إتمام عملية الابتلاء، فيستحقوا الثواب عن جدارة الاختيار أو يحل بهم العقاب نتيجة ما هوته عقولهم وما سلكته أقدامهم وما كسبته أيديهم!

وكما قال ﷺ في هذا السياق:» كلكم يدخل الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»، أو كما قال ﷺ!

أنواع الهداية (١)

_ هداية السنن:

قال تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ [النساء: ٢٦]، فقد احتوت قصص القرآن الكريم على سنن الله في التقدم والتخلف، الاتحاد والتفرق، القوة والضعف، الانتصار والانهزام، وأظهرها عز وجل وهي تعمل في الواقع لمن كان له عقل يتفكر في طرائق إعمالها وقلب يتدبر في كيفية توطينها واستثمارها، وفؤاد يعتبر بمآلاتها.

_ هداية الاعتبار:

قال تعالى: ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ [طه: ١٢٨]، وسنة الإهلاك هي من السنن المذكورة في القرآن، ومن يبذلون الجهد في فهم القرآن فإن الله يمنحهم هداياته المتعددة ومنها هداية الاعتبار، ولقد نبه الله الذين تصل إليهم وراثة الأرض أن يدرسوا العوامل التي نزعت هذه الأرض من سابقيهم وأوصلتها إليهم فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأعراف: ١٠٠]، ذلك أن تكرار نفس الأسباب يستدعي نفس النتائج، وهذا الأمر لا يتخلف ولا يتبدل أبدا.

_ هداية الإلهام:

بجانب خلق الله للإنسان من عنصري القبضة الترابية والنفخة الروحية، فقد ألهم كل نفس بشرية نزعتي الخير والشر، فقال تعالى: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾[الشمس: ٧، ٨] واستعدادات الانبعاث موجودة في عنصري التراب والروح، وقد بدأ بالفجور قبل التقوى، لأن الفجور من أوضار التراب، والإنسان خلق من التراب قبل أن ينفخ الله فيه من روحه، وتقوم التقوى بمجاورة الفجور.

وذكر الله هذا الإلهام بلفظ آخر وهو الهداية، وذلك في عدد من الآيات، مثل: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] اي ألهمناه معرفة طريقي الخير والشر، ولكي يبين الله أن هذا الإلهام محايد وأن الإنسان هو الذي يختار أو يرجح احد الطريقين، فقد قال تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ [الإنسان: ٣].

_ هداية الدلالة والإرشاد:

وهذه الهداية مبذولة من جميع الأنبياء ومن ورثتهم في وظيفة الدعوة إلى الله على بصيرة في كل زمان، ولكل الناس والأقوام والأمم، كما حدث لقوم ثمود، قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصلت: ١٧]، حيث أبان لهم نبيهم صالح طريق الرشاد بكل معالم الهداية الضرورية للانسلاك فيه، لكنهم رفضوا اتباعه والسير فيه وأصروا على الانسلاك في سبل الغي، رغم دعم الهداية بمعجزة الناقة!

وقد أوضح هذا الأمر بصورة أكبر مؤمن آل فرعون حينما قال: ﴿يا قومي اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾ [غافر: ٣٨]؛ بمعنى أن سبيل الرشاد لا يصبح متاحا بمجرد قيام الهادي بدوره، ولا بد بجانب ذلك من اتباع المدعوين للداعية؛ لأن سبيل الحق يوصل إلى الجنة ولا يدخل أحد الجنة إلا بملء إرادته وإيمانه الاختياري وبأعماله الصالحة التي يجترحها خالصة لوجه ربه!

أنواع الهداية (٢)

_ هداية التوفيق والإعانة:

قال تعالى في هذا النوع من الهداية: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، بمعنى أن هذه الهداية تأتي ثمرة للجهد الذي يبذله البشر في معرفة الحق واتباعه، فإن الله قد تعهد لهؤلاء بأنه سيوفقهم لرؤية سبل الحق في كل ميادين الحياة ويعينهم على السير فيها، بدلالة أن الهداية جاءت ثمرة للمجاهدة، وأكدها الله بحرف اللام ثم بنسبتها لنفسه (لنهدينهم)، وقال (سبلنا) ولم يقل سبيلنا؛ ففي هداية الإرشاد لا توجد إلا طريق واحدة، لكن الاجتهاد في ميادين الحياة المختلفة ينتج سبلاً متعددة بعدد الميادين التي يعبد المسلم فيها ربه، وخاصة أن القرآن يمنح العقل مساحة واسعة للاجتهاد حتى يصل إلى الحق من أقصر السبل وبأقل التكاليف؛ ولذلك فإن المؤمن مأمور بأن يدعو ربه قائلاً: «اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه».

وهذا الصنف من الهداية نسبي بامتياز؛ إذ يزداد وينقص بحسب الأعمال، والأعمال تزيد بحسب غزارة العلم وقوة الإخلاص فيها، ومن هنا فإن الله تعالى يقول: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: ١٧]، حيث تستمر الهداية بالازدياد إلى أن تتشكل في قلب المؤمن دولة التقوى التي تجعله حاضرا عند مواضع الأمر وغائبا عن مواضع النهي، وذلك في سائر شؤون الحياة.

_ هداية الثبات:

قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢]، فما هي الهداية التي جاءت بعد التوبة والإيمان وعمل الصالحات، مع العطف بحرف ثم الذي يفيد التراخي؟ لا أحسبها غير الثبات على الحق في كل الظروف والأوقات، سواء كان

الابتلاء في ميدان السراء أو الضراء، ويؤكد هذا الأمر قوله تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا﴾ [النساء: ٦٦]، فالثبات أمر عزيز حتى أن الله قال لرسوله المعصوم: ﴿لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وهذا هو سر تكرار الدعاء في كل ركعة من سائر الصلوات: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

_ هداية الحكم:

قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال أيضا:﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤]، ومن الواضح لمن تأمل السياق أن معنى (يهدون بأمرنا) أي يحكمون بأمرنا، والأمر يأتي في القرآن بمعنى الحكم: ﴿ألا له الخَلق والأمر﴾ أي الحكم.

_ هداية الاستفادة من الآخرين:

وصف المولى عز وجل عباده الذين يستحقون البشارة بعدد من الصفات، وجاء فيها: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ [الزمر: ١٨]، وهكذا نفهم بأن من يستفيدون من نقاط قوة غيرهم ومواضع إبداعهم، فإنهم يجمعون بين الهداية السديدة والعقل الرشيد، ذلك أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، كما جاء في حديث بهذا المعنى عن الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام.

تعاضد القرآن والصلاة!

_ معادلة الإصلاح!

يصبح المرء مؤهلا للقيام بدور إصلاحي مؤثر في مجتمعه إذا امتلك مجموعة من المؤهلات، وصلب هذه المؤهلات أمران ذكرتهما الآية الكريمة التي تقول: ﴿والذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ [الأعراف: ١٧٠]

ومن قراءة الآية يتضح أن الطريق إلى الإصلاح يحتاج إلى معادلة تتكون من مطلوبين وهما:

الأول: الاستمساك الصارم بالكتاب السماوي المقدس: فهماً، وتنزيلا، وتطبيقا، وتشير إلى هذه الصرامة عبارة (يُمسّكون)، حيث يتشبثون بتعاليمه كبيرها وصغيرها، محكمها ومتشابهها، ويحسنون تنزيلها على الوقائع بفهم شامل للواقع، ويصيرون إعلانات متحركة للقرآن بتجسيده الواعي على أنفسهم!

الثاني: إقامة الصلاة الدائم بشروطها وأركانها المادية والمعنوية أو الروحية، وهذا ما يفيده قوله (أقاموا)، وبدون توفر كافة الأركان والشروط المادية والمعنوية يصبح الأمر مجرد أداء، والإقامة هي التي تتوافر لها حضور العقل وخشوع القلب، ومن التزاوج بين العقل والقلب يولد المقصد الأساسي للصلاة والمذكور في قوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وهكذا فإن فهم القرآن وحسن تنزيله وصرامة تطبيقه يوفر بوصلة الهداية وخارطة السير في طريق الاستقامة الشامل، مما يجعل سير الداعية على بصيرة، ويؤدي إقامة الصلاة إلى توفير الدافعية والزاد ويوقظ طاقة الإخلاص والاحتساب!

_ التجارة التي لا تبور:

إذا كان تمازج القرآن مع الصلاة يؤدي إلى صناعة أناس مصلحين داخل المجتمع؛ فإن إضافة الزكاة والصدقات إلى القرآن والصلاة يصنع تجارة غير قابلة للبوار لا في الدنيا ولا في الآخرة بل ولا في أي ظرف، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور. ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وقد اختار الله مصطلح التلاوة دون القراءة ليذكّر بأن المراد من القراءة هو المتابعة، فهم يتلون كتاب الله أي يسيرون خلفه، ولن يحدث السير خلف نص مبهم أو غامض، ومن ثم فإن التدبر والفهم من أساسيات التلاوة، ويثمر التصور الصحيح المبني على تدبر خاشع للقرآن، يثمر إقامة شعائر صحيحة وإنجاز أعمال صالحة، وعمود الشعائر هو الصلاة التي تتم إقامتها بشروطها وأركانها وآدابها المادية والمعنوية، مما يؤدي إلى ظهور مقاصد الصلاة في حياة المصلين!

أما عمود الأعمال الصالحة فهو إنفاق المال سرا وعلانية، سواء من خلال الزكاة أو الصدقات، وهؤلاء المتصفون بهذه الخلال الثلاث هم أصحاب التجارة التي لا تبور، والذين يجزيهم الله في الدنيا والآخرة، ويشير إلى الجزاء الدنيوي قوله تعالى: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ ذلك أنه يقوم على العدل، بينما يقوم الجزاء الأخروي على الفضل الإلهي، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾!

دور الخشوع في تيسير الصلاة!

لقد عاب الله على بني إسرائيل وجود فجوة كبيرة بين ما يدّعونه من إيمان ويدْعون إليه من صلاح وبين ما يتجسد في ذواتهم من أخلاق ويظهر في حياتهم من سلوكيات، فقال عز من قائل: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ [البقرة: ٤٤]، وزاد النكير عليهم لأنهم يتلون الكتاب بشكل مستمر كما يفيد الفعل المضارع ﴿تتلون﴾.

ولأنهم يتلون الكتاب بغفلة سادرة لا يتوافر لها التفكر العقلي ولا الخشوع القلبي؛ فقد ختم الآية بمطالبتهم بالتعقل ﴿أفلا تعقلون﴾، وبالطبع لو كانوا يُفعلون مدارك عقولهم وشغاف قلوبهم أثناء قراءة الكتاب ما أصابهم هذا الانفصام النكد في الأصل ولا نشأت هذه الفجوة الخطيرة بين دينهم وتديّنهم؛ لأن التدبر يشتمل على التفكر العقلي والخشوع القلبي وهما يزرعان في العقل والوجدان معرفة قدر الله والخوف مما عنده من عقاب، وبهذه المعادلة تنشأ البيئة الخصبة لنمو ملَكة التقوى التي تدفع صاحبها نحو العمل بتعاليم الكتاب الكريم بكل صدق ودأب.

ومن أجل تجسير الفجوة بين ما نقوله وما نفعله فقد أمرنا الله جميعا من خلال خطابه لبني إسرائيل بالصبر وإقامة الصلاة، فقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[البقرة: ٤٥]، وكأن الصبر والصلاة جسران صلبان يربطان بين الأقوال والأفعال بكل اقتدار وسلاسة!

وأخبرنا الله أن الصلاة مسألة كبيرة وليست هينة؛ ذلك أنها تحتاج إلى طهارة القلب والجسد، ومن أجل إقامتها بحق فإنها تحتاج إلى عدد من الشروط والأركان التي لا تُقبل إلا بها، ثم إنها تتكرر خمس مرات في أوقات مضبوطة بصرامة خلال اليوم والليلة، وتحتاج إلى استمرار وديمومة كل يوم حتى خروج الروح، لكنه عز وجل أخبرنا في

نفس الآية بأن الصلاة ليست كبيرة على الخاشعين؛ ذلك أن التحلي بالخشوع واستحضار عظمة المعبود وتذكر ضخامة الأجور الدنيوية والأخروية؛ يهوّن هذه الأمور كلها بل ويجعل الصلاة مع المدى البعيد متعة روحية وسياحة عقلية وواحة نفسية، يشتاق المرء لولوجها ويتلذذ بالاسترواح تحت ظلالها الندية، كما كان ﷺ يقول لمؤذنه بلال رضي الله عنه: «أرِحنا بها يا بلال»!

ومن الطبيعي أن الالتذاذ بالصلاة خاصة والطاعة عامة لا يصل إليه المسلم إلا بعد مجاهدة ومكابدة في طريق استكمال الأركان واستيفاء الشروط بشقيها المادي والمعنوي، مرتقيا من منزلة الإسلام إلى درجة الإيمان، وبعد أن يتذوق حلاوة الإيمان يرتقي إلى سدرة الإحسان، وهناك تنمحي الفواصل بين عالمي الغيب والشهادة، بحيث يعبد المرء الله وكأنه يراه أمامه أو كأن الله يراه من عل، ثم إنه يرى الجنة فيشتعل التياعُه، ويرى النار فيشتد ارتياعُه، وكيف لا يبتهج بالصلاة من يناجي الله وكأنه أمامه عيانا بيانا، مستحضراً الجنة عن يمينه والنار عن شماله؟!

الشغف النبوي بالهداية!

_ أجر التبليغ هو اهتداء الناس:

ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى قال لنبيه محمد عليه السلام: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾ [الفرقان: ٥٧]. وبتأمل الآية يتضح أن محمدا ﷺ لا يريد مقابل تبليغه من أمته أجرا إلا من شاء منهم أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وهذا الاستثناء يفيد أن الرسول اهتداء المدعوّ إلى طريق ربه، هو أفضل أجر يطمع بالحصول عليه؛ ذلك أنه ﷺ كما وصفه ربه (رحمة للعالمين)؛ فهو يفرح بنجاحه في استنقاذ أي شخص من النار ويسعد بإرشاده إلى سواء السبيل التي ستوصله إلى الجنة بإذن ربه!

وهذا الاستمتاع المحمدي الشديد بالهداية يضاف إلى الفروق القائمة بين الرسول ﷺ وبين سائر الأنبياء والمرسلين، فقد ثبت بنصوص القرآن أن الواحد منهم كان يقول لقومه، كما قال نوح: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وقد تكررت هذه العبارة الواردة في الآية بالحرف الواحد داخل سورة الشعراء على ألسنة هود وصالح وشعيب ولوط عليهم السلام، وهذا كان ديدن جميع الرسل، بينما أخبرهم محمد ﷺ بأنه لا يريد منهم أجرا قط، وبالنسبة لمن اهتدى منهم فهذا أكبر أجر يحصل عليه مقابل ما بذل من جهد في تبليغهم رسالة ربهم، وهذا يبرز خلقه العظيم الذي مدحه الله به، ورحمته السابغة التي أخبرنا الله عنها!

_ ركوب المستحيل في سبيل الهداية:

نتيجة شغف النبي الشديد بالهداية وامتلائه بالرحمة، فقد ظل يبذل كل مستطاع من أجل هداية كل من يعرفه من الناس، وهذه وظيفته بالطبع، لكنه تجاوز التكليف حينما حاول أن يعمل فوق المستطاع حتى أصابه الحزن على من لم يهتد، وكاد أن يهلك نفسه بسبب عدم نجاحه مع بعضهم، كما ورد في أكثر من آية، لكن الله ولكونه صاحب العلم

المطلق، تدخّل بضع مرات ناهيا إياه عن تحميل نفسه فوق طاقته وعن أن يقتل نفسه حسرات على من لا يستحقون، من مثل قوله تعالى: ﴿أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ [يونس: ٤٣]، فكأنه يقول له: إن مهمتك هي هداية الإرشاد المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢]، بحيث تضع المرء على مفتتح الطريق مع توضيح كافة المعالم له بطريقة حكيمة، ونلاحظ أن الحديث هنا عن وظيفة قائمة ومستمرة كما يفيد الفعل المضارع (تهدي) مع التأكيد بحرف اللام، غير أن المسير الآمن في الطريق الطويل يحتاج إلى أن يفتح المرء عينيه حتى يرى أين يضع قدمه في كل مرة مع امتلاك إرادة السير، وهذا لا شأن للنبي به وإنما بالشخص المهتدي؛ لأن المرء لا يدخل الجنة إلا بإرادته الحرة ومشيئته التامة، وكما قال الصادق المصدوق: «كلكم يدخل الجنة إلا من أبى...»!

وبسبب الشغف المحمدي بالهداية ورحمته السابغة مرة أخرى، فقد استمر بإرهاق نفسه في محاولة هداية صناديد قريش، فعاتبه الله مرة أخرى عبر سؤال استنكاري يقول: ﴿أفأنت تُسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ [الزخرف: ٤٠]؟!

وبسبب هذه الطبيعة المحمدية نفسها بجانب رأفته بعمه أبي طالب الذي رباه صغيرا وحماه كبيرا، فقد حاول الرسول الرحيم اجتراح المستحيل في سبيل هداية عمه، لكن الله قال له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦]، وهداية الله ليست هداية إجبار وإنما هداية إعانة لمن انسلك في طريق الاستقامة بقدميه، والباب لا يُفتح إلا لمن طرقه بملء إرادته!

_ الشغف الذي تسبب بالعتاب السماوي:

لو تفكرنا في المواضع التي نزل الوحي يخاطب فيها النبي ﷺ على اجتهادات خاطئة، لوجدنا أن شغفه بوظيفته وشدة رحمته بأمته هما من دفعاه للوقوع في هذه الأخطاء الاجتهادية، وأهمها:

١_ العبوس في وجه الأعمى عبدالله بن أم مكتوم كما ورد في مطلع سورة عبس، فقد

وقع الحادث نتيجة حرص الرسول على هداية بعض كبراء قريش حينما أصغوا آذانهم له، وكانوا لا يفعلون ذلك في العادة!

٢_ أخذ الفدية من أسرى قريش في غزوة بدر؛ فقد أخذ الفدية رحمة بهم ورجاء أن يهتدوا ويصبحوا مؤمنين، مع مراعاة أقاربهم المسلمين أيضا.

٣_ الإذن لبعض ضعفاء الإيمان بالبقاء في المدينة عند الخروج إلى غزوة تبوك؛ فقد كان من باب إحسان الظن بهم وتألّف قلوبهم وعدم مجابهتهم برفض أعذارهم.

٤_ تحريم العسل أو إحدى زوجاته على نفسه ﷺ؛ فقد كان من أجل إرضاء بعض زوجاته، كما هو معروف في أسباب نزول مطلع سورة التحريم.

أخلاق الهداة

_ حلم الداعية ورحمته:

ارتكب قوم لوط أبشع الجرائم وأقذرها، وخسفوا بنظام الفطرة وقلبوه رأسا على عقب، وحينما أسرفوا في بهيميتهم وانحطاطهم أرسل الله مجموعة من جنوده لتطهير الأرض من رجسهم، ومر هؤلاء الجنود المتمثلون على هيئات آدمية بالخليل إبراهيم عليه السلام، وعندما علم بمقصدهم شرع في المجادلة دفاعا عنهم، كما في الآية ٧٤ من سورة هود، فوصفه الله بقوله: ﴿إن إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب﴾ [هود: ٧٥]، وبقدر ما أثنى الله على حلم إبراهيم فقد نهى عن الفعل وهو المجادلة عن قوم يختزلون أنواع الرجس والدنس، فقد صدر الأمر القاطع باستئصالهم من شأفتهم وتطهير الأرض من نجاستهم: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ [هود: ٧٦].

وفي مقابل الحليم إبراهيم نجد في عصرنا أناسا ينتسبون للدعوة إلى الله، والحقد يملأ قلوبهم على من يخالفهم في موضوعات فرعية من مسائل الاجتهاد الفكري والفقهي والسياسي، ولو استطاعوا لأطبقوا عليهم السماء ومنعوا عنهم الهواء!!

_ عظمة أخلاق الرسول محمد:

مدح رب العالمين المصطفى محمدا ﷺ بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، وتتبين عظمة هذه الشهادة مما يأتي:

١_ أن الشاهد هو خالق الوجود والذي لا تساوي الدنيا كلها عنده بمن فيها وما فيها جناح بعوضة!

٢ _ استخدام حرفي التوكيد إن واللام التي في بداية حرف الجر، ولم يقل أنت على خلق عظيم.

٣_ المجيئ بحرف (على) الذي يفيد الاستعلاء في لغة العرب، وكأنه يقول في هذا المقام إنك لم تجسد أخلاق الإسلام فحسب بل اعتليت فوقها، أي تبوأت منزلة ما فوق الأخلاق، وهذا واضح على سبيل المثال في رحمته، فقد تجاوز الرحمة المشروعة إلى حد أنه بسبب رحمته كاد أن يقتل نفسه حسرات على من لم يهتدوا، مثل عمه أبي طالب، حتى أن الله عاتبه في أكثر من موضع ونهاه عن إرهاق نفسه مع من لا يريد الاهتداء!

٤_ استخدام ضمير المخاطب ولم يقل إنه لعلى خلق عظيم، وهذا فيه تقدير أكبر.

٥_ استخدام كلمة (خُلق) بصيغة المفرد في وصف عدد من الأخلاق، فهو تعالى لا يمدح خلقا محددا بل يمدحه بكل الأخلاق، واستخدام كلمة مفردة ينم عن مزيد من التعظيم بمعنى أنه كان في الذروة من كل خلق وكأن الأخلاق كلها قد امتزجت وصارت خلقا واحدا في شخصيته ﷺ: صدقا وأمانة وعدلا ورحمة وتواضعا وكرما وشجاعة وحلما وصبرا.....الخ

٦_ استخدام كلمة عظيم في وصف خلقه ﷺ، وكلمة عظيم لها دلالات كبيرة إذا جاءت من رجل عظيم فكيف إذا جاءت من أعظم العظماء وخالقهم ومربيهم؟!

الثمار العملية للعلم

_ العلم العملي:

ليس العلم في الرؤية الإسلامية مجرد معرفة نظرية يزدان بها العقل، وإنما هو منهج للتفكير المنطقي في الحياة وللتعامل العقلاني مع كل شيء، وهو دافع لصاحبه للانسلاك في طريق الحق ورافع له نحو آفاق الأخلاق الكريمة والتعامل الحسن، ونفهم من هذا أن السلوكيات الشاذة تنتصب كبرهان على جهل صاحبها!

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قال السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين﴾ [يوسف: ٣٣]، فقد اعتبر أنه سيصبح من الجاهلين إن استجاب لدعوات نسوة المدينة اللاتي يراودنه فيها عن نفسه، ويطالبنه بالانغماس في المواقعة الجنسية خارج إطار الزواج، وكأن مرتكب الموبقات ينسلخ من علمه تماما!

ولقد عرّف كثير من علماء السلف العلم بما يتفق مع هذه الرؤية الثاقبة، حتى أن سفيان بن عيينة قال: «إنما العلم الخشية»، وبالطبع فإن الخشية تتضح من خلال رقي الأخلاق واستقامة السلوك. وقال الحسن البصري في هذا الشأن: «إنما الفقيه: الزاهدُ في الدنيا، الراغبُ في الآخرة، البصيرُ بدينه، المداومُ على عبادة ربه، الورعُ، الكافُّ عن أعراض المسلمين، العفيفُ عن أموالهم، الناصحُ لهم «.

_ علم الرجاء:

إنما تتضح حقيقة العلم في المحطات العملية، ومنها أن صاحب العلم لا يعرف اليأس ولا يتسلل إلى قلبه القنوط مهما ساءت الظروف واسودّت الأيام، فهو يعلم علم اليقين أن الله على كل شيء قدير، وأنه تعالى كل يوم في شأن، وأن أمره كائن بين الكاف والنون، ويدرك أن اشتداد العسر مؤذن بولادة اليسر، وأن الأنوار تخرج من أرحام الظلمات،

ولذلك فإنه لا يزال يرفع راية الأمل ويستظل تحت مظلة الرجاء.

والنموذج القرآني في هذا السياق هو نبي الله يعقوب، فرغم أسفه البالغ على فقدان فلذة كبده يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن، إلا أنه لم يفقد الأمل، وعندما قال له قومه: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرَضا أو تكون من الهالكين﴾ [يوسف: ٨٥]، رد عليهم بلغة العالم بأقدار خالقه وبإيمان الواثق بحكمة ربه: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٨٦]، فما هو العلم الذي كان يعلمه ولا يعلمونه؟

يبدو لي أنه العلم بقدرة الله، واليقين بانسكاب رحمته مهما أجدبت الأحوال وقست الظروف، ومعرفة أن الحياة سلسلة من الابتلاءات التي تحتم على الإنسان التقلب بين السراء والضراء، وأن الفرج يعقب الشدة كما يعقب النهارُ الليل!

وعندما أخبرهم في ما بعد أنه يشم ريح يوسف قالوا له: ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ [يوسف:٩٥]، وبالفعل جاء البشير من قبل يوسف، فرد عليهم بروح العالم بالله والواثق بانبلاج صباح فرجه: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [يوسف: ٩٦]، ونلاحظ كيف أن علمه مرتبط كله بعلم الله وقدرته ورأفته، ولم يذكر نفسه بشيء؛ ذلك أن الغيب لا يعلمه إلا الله!

_ جهالة العُصاة:

إن الجهالة بمقام الله وعدم معرفة جلاله وعظمته تورث المرء فقدان الحساسية أمام المعاصي وقد يصاب باللامبالاة في اقتراف الآثام ويسقط في قعر الخطايا، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾، فقد كان الصحابة يرون «أن كل من عصى الله فهو جاهل»، وفي المقابل فقد اعتبر الله العلماء أشد الناس خشية له، قال عز وجل: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء...﴾، ذلك أنهم يعلمون عظمته ويدركون جبروته وانتقامه ممن عصاه،وقد استخدم الله حرف (إنما) الذي يفيد الحصر والقصر، لكي نعلم أن من لا يعرف الله فإنه لا يخشاه، وهذا دافع قوي جدا لكي

يكتسب المسلم العلم الذي يزرع الخشية من الله في جوانحه!

ويروى في هذا السياق أن عبدالله بن مسعود قال: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً»!

وهذا هو العلم العملي الذي يصنع أرقاما صحيحة ويبني ذواتا فاعلة، يمكنها أن تعمر الأرض وتصنع الحياة في سعيها لأن تستأنف أمتها العروج الحضاري وصولا إلى ذروة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

العروج إلى الحكمة!

_ النظر إلى المتغيرات من منظار الثوابت:

قال تعالى لنبيه محمد عليه السلام: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله..﴾[النساء: ١٠٥]، وأرجو أن تتأملوا مليا في عبارة (بما أراك الله) قبل أن تسترسلوا في قراءة المقال.

إن الحكم بين الناس يتصل غالبا بمسائل من ملتبسات المسائل ومتشابهات القضايا ومن مستجدات الحياة، وتدخل ضمن مجال المتغيرات، وليست من الثوابت المعلومة من الدين بالضرورة، والحاكم هنا هو الرسول ﷺ ومن يقوم مقامه إلى قيام الساعة، ومرجعية الحكم هي القرآن المجموع بين دفتي كتاب مبين، وينبغي أن يستنبط الحاكم أحكام القضايا المستجدة في ضوء علل وأسرار الأحكام الثابتة في القرآن (بما أراك الله)، بحيث ينظر إلى الفروع من خلال كواشف الأصول، ويعيد الجزئيات إلى الكليات، ويجتهد في ابتكار الوسائل والأساليب وفي تكييفها على ضوء المقاصد والغايات.

وبالطبع فإن هذا الأمر يظل اجتهادا بشريا يمتلك إمكانات الصواب ويحمل احتمالات الخطأ، غير أن الخطأ نادر أو قليل جدا نتيجة هذا الانضباط المقاصدي الصارم.

وأهم مقاصد الشريعة الإسلامية هي العدل، ولذلك خصه الله تعالى بالذكر في خطاب آخر للرسول ﷺ يخص الحكم، حيث قال تعالى: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط..﴾[المائدة: ٤٢]، ونقل القرآن عن الرسول ﷺ أمر الله له بالعدل في قوله تعالى: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾، واستخدم فعل الأمر وليس صيغة الأمر للتأكيد على أهمية هذه القضية وخطورتها، وقد استنبط علماء الأصول من هاتين الآيتين وأمثالهما أن العدل هو المقصد الأسمى للشريعة الإسلامية.

_ امتلاك مقاليد الحكمة:

ما يزال المجتهد أو الحاكم أو القاضي يتدرج في تنزيل النصوص على الوقائع، والثوابت على المتغيرات حتى يمتلك خبرة ثرية حول طرائق التنزيل مضيفا إياها إلى قواعد الفقه، وبامتلاك الفقه والخبرة يكون العالم قد وصل إلى ذروة الحكمة التي قال الله عنها: ﴿ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وربما كان هذا هو السر وراء ربط الحكمة بالكتاب في أحد عشر موضعا من آيات القرآن الكريم. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢]، وتعليم الكتاب والحكمة يشير إلى تعليمه كيفية تدبر القرآن وفقه الواقع.

_ تنزيل الثابت على المتغير:

لما كان التعريف الجامع للحكمة هو أنها تعني وضع الشيء في محله، فإن الحكمة الواردة في قوله تعالى: ﴿ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، هي القدرة على تنزيل نصوص الوحي على وقائع الحياة بصورة صحيحة، ذلك أنه لا يستطيع فعل ذلك إلا من جمع بين فهم الوحي والوعي بالواقع، وهذا هو الفقيه الحقيقي، كما قال ابن القيم: «لا يكون الفقيه فقيها حتى يجمع بين فقه الواجب وبين فقه الواقع».

وبهذا يتضح لنا من تدبر الآيات السابقة، أنه لا يمكن اعتلاء ذروة الحكمة من دون الصعود عبر سُلّم المقاصد وإتقان خارطة الثوابت والمتغيرات.

منافعُ التعلم المنهجي

_ الاستفادة المثلى من العلم:

لقد مدح رب العالمين نبيه يعقوب عليه السلام فقال: ﴿وإنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٦٨]، يعني أنه صاحب عقل ذكي ومنهج سليم مما مكنه من الاستفادة المثلى من العلوم التي علمه الله إياها، وتخبرنا خبراتنا في الحياة بأن أناسا أجادوا استثمار معارف قليلة فنفعوا وانتفعوا، وذلك بسبب توافر المنهجية السليمة، ومن مفرداتها استحضار روح التعبد لله بطلب العلم والتصرف في الحياة بحسب ما تعلم، وكم وجدنا أناسا تزدحم المعارف في عقولهم لكنهم لا يستطيعون توليد أفكار منها ولا تنعكس على سلوكهم وأخلاقهم، ومهما فعلوا فإنهم لا يستطيعون استخراج حلول للمشكلات المستجدة من ثروتهم المعرفية المحفوظة، ذلك أنهم حينما حصّلوها وطّنوها في الذاكرة فقط ومن دون أي تفعيل لمدارك: التحليل والتركيب والاستنباط والاستقراء والخيال والنقد، مما يجعل فائدة المعارف محدودة، بل قد تصبح وبالاً على بعض أصحابها، كما حدث لكثير من الفرق التي حفظت ولم تفقه كالخوارج والشيعة!

_ اتساع النفع وعمق التعقل:

يؤكد لنا المولى عز وجل عبر سؤال استنكاري أن الفرق شاسع جدا بين من يعلمون ومن لا يعلمون، فقال تعالى:﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ [الزمر: ٩]، وقد ختم الآية بحصر التذكر والاستفادة من الثروة المعرفية في أصحاب العقول، وهم الذين شغّلوا المدارك العقلية كلها وليس الذاكرة وحدها التي تساوي سُبع العقل فقط، وكأن الآية تشير إلى أن من لم يُفعلوا مداركهم العقلية فإنهم يصيرون بلا عقول!

وفي هذا السياق يؤكد كثير من أساطين التربية أن حشو العقل بالمعلومات والمعارف

من دون منهجية علمية في الطلب والترتيب والاستفادة، بحيث تهضم هذه المعلومات وتغربلها، وتضع ما هو نافع منها ضمن المنظومة الذاتية؛ إنما يجعل هذه المعلومات عبئا على العقل، ولا يستطيع صاحبها أن يبني عليها لكي يأتي بجديد!

ومما يؤكد أن التعلم المنهجي يحتوي على محطة غربلة تجعل صاحبها قادرا على التمييز ليس بين ما هو حسن وسيء فقط بل بين ما هو حسن وأحسن، قوله تعالى بعد بضع آيات من الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ [الزمر: ١٨]، ونلاحظ كيف ختم الآية بعبارة أولو الألباب التي وردت في نهاية الآية السابقة، لكنه هناك أورد أنه لن يتذكر إلا أولو الألباب، وهنا أكد أن المتصفين بجملة من الصفات وآخرها القدرة على الغربلة والاستفادة مما هو أحسن، هم أولو الألباب!

أفياءُ التآلف

_ دور التوحيد في صناعة الوحدة:

من يتأمل نصوص القرآن الكريم يدرك أن الوحدة من أهم ثمار الوحدانية لله تعالى؛ ذلك أن توحيد الله يجعل المرء في معية الله، ومعية الله تورث المؤمنين التوحد؛ حيث تزرع في قلوبهم التآلف، كما قال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

هذا بجانب أن توحيد الله يوفر نسقا متكاملا للنظر إلى الكون والحياة والإنسان، وتنتصب أمهات هذا النسق كقواسم مشتركة، فتصبح قاعدة واحدة للانطلاق وسقفا واحدا للتعدد تحت ظلاله الوارفة!

_ التوحد قرين الوحدانية:

يجمع القرآن الكريم في مواضع عديدة بين الوحدة والوحدانية، وهي صورة من صور اقتران حقوق الله وحقوق الإنسان، ووصل الأمر إلى حد أن الله تعالى حينما وصف المجتمع المؤمن قدم التوحد على الوحدانية، وذلك حينما ذكر ولاء المؤمنين لبعضهم قبل طاعة الله ورسوله، في قوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة: ٧١]. ومن الواضح أن المولى عز وجل قد وضع الصلاة والزكاة بين الوحدة والوحدانية وكأنه يقول بأن حقوق الله التي تقوم على قاعدة الصلاة وحقوق الناس التي تقوم على قاعدة الزكاة، لا يمكن أن تتحقق بصورة تامة في الواقع من دون تحقق وحدة المجتمع ووحدانية الله، وإذا توفرت في مجتمع ما رباعية: الوحدة، والوحدانية، وحقوق الله، وحقوق الإنسان؛ فإن هذا المجتمع يصبح أهلا لتنزل رحمة الله

عليه، وهذا ما ختمت به هذه الآية العظيمة: ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾.

_ المنافقون أعداء الوحدة والوحدانية:

لما كان المنافقون أداة من أدوات تمزيق الوحدة داخل المجتمع الإنساني الذي ينتمون إليه وتشويه الوحدانية الربانية التي يزعمون الإيمان بها، فقد شن عليهم القرآن حرباً شعواء،وخاصة بعد الآية التي أوردناها في الفقرة السابقة، وهي في سورة التوبةالتي أطلق عليها المفسرون أسم (الفاضحة) للمنافقين!

قال تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ [التوبة: ١٠١].

ومردة المنافقين هم المتفوقون منهم والذين بلغوا شأواً بعيداً في تجسيد آفة النفاق، ولذلك فإن الله يعذبهم مرتين،الأولى لما مزقوا من عرى الوحدة بإرجافهم وتآمرهم مع الأعداء وتمزيقهم لصفوف المسلمين، والأخرى لما شوهوا من قيم الوحدانية، بشكوكهم حول وجود الله وتقديمهم نماذج قبيحة عن المسلمين أمام الأمم الأخرى، والله أعلم.

_ ارتباط الذل بالعزة:

ما فتئ القرآن الكريم يربط قيمة الذل بقيمة العز، كما في قوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤]. وكأنه يقول بأن داخل كل إنسان مشاعر ذل ومشاعر عز.

وعندما تنصرف طاقة الذلة إلى أوساط المؤمنين، فستذهب طاقة العزة نحو الكافرين، والعكس صحيح،ونلاحظ أنه حتى في العلاقة مع الكافرين فإنه لا يجوز الكبر والغرور والعنجهية عليهم،إلا وقت الحرب نفسها وضد المحاربين، كنوع من أنواع الحرب النفسية، مثلما قال ﷺ عن مشية أبي دجانة في غزوة أحد: «هذه مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع»!

_ العزة قيمة وسطية:

من المعلوم أن العزة قيمة وسطية وأنها فضيلة بين رذيلتي الكبر والمهانة،وسنعود في هذا الإطار إلى الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ [المائدة: ٥٤]

وبإمعان التأمل في الآية نجد أن فيها إشارة إلى أن المجتمع الذي يتخلى عن هذه القيم المتلازمة سيخسر مكانته لصالح غيره من الأقوام والمجتمعات ممن تتوافر فيهم هذه القيم،ولذلك ختم الله الآية بفاصلة تحتوي على اسمين من أسمائه تعالى: «واسع عليم»، وكأنه يشير إلى أنه تعالى واسع النظر لجميع الناس بمختلف أعراقهم وألوانهم وعليم بمن يمتلك المؤهلات لعمارة الأرض ووراثة التمكين، وهو نوع من الوعيد الخفي للمسلمين بأن الله قد يسحب منهم التمكين ويعطيه لمن يستحقونه، وهذا عين ما حدث في الواقع خلال العصور الأخيرة، حينما حادوا عن القيم الحضارية في الإسلام مكتفين بأداء الشعائر التعبدية من دون روح، في أبأس صورة من صور العلمانية التي يرفضها الإسلام وتلفظها تعاليمه الداعية لجعل الأرض كلها محرابا لعبادته عز وجل، وفق تعاليم القرآن الذي جعله الله هاديا لكل ما هو أقوم في كافة جوانب الحياة!

التنوع قوة للمناعة الاجتماعية

احتفى القرآن بالتنوع في مواضع كثيرة من سوره، وامتنّ الله عز وجل على عباده بنعمة التعدد الذي أوجده لهم في أحضان الطبيعة، ومن صوره تعدد الألوان في المخلوقات كلها، مثل ألوان التربة والصخور كالجُدد البيض والحُمر والغرابيب السود [سورة فاطر: ٢٧]، وفي هذه التربة يتم استنبات البذور التي تُسقى بماء واحد فيُخرج الله به زرعا مختلفاً ألوانه [سورة الزمر: ٢١]، ومن الأشجار تظهر ثمرات ذات ألوان مختلفة [سورة فاطر: ٢٧]، رغم أنها مزروعة في تربة واحدة ويسقيها الماء ذاته، وتترعرع في نفس الظروف والمناخ، وينتقل القرآن للحديث عن الكائنات الحية فيقول: ﴿ومن الناس والأنعام والدواب مختلف ألوانه كذلك﴾ [فاطر: ٢٨].

ولأن القرآن يقدم لنا التنوع السائد في مشاهد الطبيعة، يقدمه في معرض الامتنان الرباني على البشر، فإننا نستنتج من ذلك أن التنوع نعمة جزيلة، ثم إن القرآن يقدم لنا تعدد الألوان كآيات وهي المعالم التي أوجدها الخالق على طريق الهداية من أجل ضمان الوصول الآمن، ويطالبنا بأن نمارس التفكر فيها والاعتبار بها، مثل قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم..﴾[الروم: ٢٢]، وبالطبع فإن استخدام مصطلح الآيات يقتضي التفكر والاعتبار.

ويضرب لنا القرآن المثل بفائدة التنوع من خلال العسل الذي تنتجه حشرة صغيرة وهي النحل، كما قال تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩]، ومن المعلوم أن العسل أقوى عنصر لتقوية جهاز المناعة في جسم الإنسان، وذلك بسبب التنوع الآتي من كل الأزهار والثمار، حيث تمتص النحل رحيقها وتمزجها في بطونها بطريقة رتبها الله بقدرته وحكمته، حتى يصبح للعسل ذلك التأثير الساحر وكأنه إكسير حياة!

وتؤكد الوقائع الحياتية أن المجتمع الذي يمتلك تنوعا منصهرا في بوتقة الثوابت العامة والمصالح المشتركة، أنه صاحب مناعة اجتماعية عالية جدا، مما يجعله في غاية التماسك والصلابة، بصورة تجعل من المستحيل أن يؤتى من خارجه!

وهذا مشاهد ماضيا وحاضرا، فإن التنوع نعمة تتطلب التوظيف لا نقمة تتطلب المحاصرة، ومنحة تستوجب الشكر لا محنة تستدعي الصبر، لكن النعمة قد تنقلب إلى نقمة إذا انتقل التنوع من ساحات التكامل إلى ضوائق التآكل، والثقافة الحية هي التي تستطيع توظيف التنوع لإذكاء الطاقات وتسريع عمليات البناء والتنمية، بحيث تقيم مجتمعا متعاونا بتخصصاته المختلفة مثل مجتمع (النحل) أو (النمل)، بينما تقوم الثقافة السقيمة بإيقاظ التناقضات النائمة وإشعال مواقد الفتنة، جاعلةً المجتمع الذي يدين بها مثل مجتمع (العنكبوت)!

تعدد الصواب(١)

_ الذِّكر بين التعجل والتأخر:

قال تعالى عن الحُجاج الذين وصلوا في مناسكهم إلى المبيت في منى ورمي الجمار: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ [البقرة: ٢٠٣]، أي فمن ذكَر الله تعالى ورمى الجمار وبات بمنى في يومين أو في ثلاثة أيام فلا إثم عليه، وبالطبع فإن لنزول الآية سببا استدعى نفي الإثم عن الطرفين وليس إثبات الأجر، لكن الله أراد أن يمنحنا برهانا على إمكانية تعدد الصواب في مسألة عبادية محضة، ليقول لنا إن تعدد الصواب من باب أولى في المسائل الاجتهادية المنبثة في مختلف الميادين المسؤولة عن عمارة الأرض وصناعة الحياة!

ويبدو أن تقييد هذه الإباحة بجملة (لمن اتقى) الواردة في الآية هي تأكيد على صوابية التعدد هنا؛ لأنه يتم في مسألة فرعية، ما دام هذا التعدد يتم تحت راية التقوى وهي عنوان جامع لمختلف الثوابت المعلومة من الدين بالضرورة؛ ذلك أن زبدة التقوى هي أن لا يجدك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، وهذا منتهى الطاعة والالتزام العبادي الشامل!

ومن المؤكد أننا حينما نقول بتعدد الصواب فإننا لا نقول بالتساوي الحرفي في الأجر، وإنما بالتساوي تحت راية الصواب وانتفاء الخطأ، ويبقى التفاوت النسبي قائما في الأجور بحسب المعايير المعروفة والمذكورة في نصوص أخرى.

_ النخيل بين القطع والترك:

جاءت الشريعة لتحقيق المصالح وتكميلها ولدرء المفاسد وتخفيفها، وقطع الشجر من صور الإفساد في الأرض. وكان بنو النضير قد احتموا من المسلمين في حصون منيعة لدرجة أنهم اعتقدوا معها أنها مانعتهم من الله نفسه وليس من المسلمين فقط!

وقد طال حصار المسلمين للحصن في ظل اختلال موازين القوى بين الطرفين، فالمسلمون في عراء الصحراء ومناخها القاري الذي ترتفع فيه حرارة النهار وتنخفض برودة الليل، وليس معهم أطعمة ولا مياه كافية ولا وقايات من هوام الصحراء بما فيها العقارب والأفاعي السامة، بينما يتنعم اليهود داخل بيوتهم المترفة والتي يحميها حصن منيع، وتوجد داخل الحصن واحة تزخر بالمياه والثمار الزراعية بجانب الأطعمة المخزنة، وهنا اشتغلت عقول المسلمين للبحث عن مخرج لهذا المأزق، ولا يزال الناس مختلفين حينما يُعملون عقولهم في قضايا ذات أبعاد وأوجه متعددة، فاقترح بعضهم القيام بقطع أشجار النخيل الصغيرة الموجودة خارج الحصن لدفع اليهود للقتال أو الاستسلام، فانقسم الجيش إلى قسمين:

الأول: بقي مع الأصل في الشريعة وهو عدم جواز قطع النخيل لأن هذا من صور الإفساد في الأرض.

الثاني: وافق على هذا المقترح معتقدا أن تقطيع الشجر مفسدة أصغر من بقاء المسلمين عرضة لأخطار الصحراء إلى أمد غير معلوم.

ولما كان أصحاب هذا الرأي أكثر فقد قامت قيادة الجيش بتبنيه فورا، ونجح هذا التكتيك في دفع بني النظير للتفاوض على الاستسلام. وبعد انقضاء الحدث كان الفهم السائد أن الفريقين قد اجتهدا، فأصاب أحدهما وأخطأ الآخر، فتساءلوا من المصيب فباء بالأجرين ومن المخطئ الذي حصل على أجر واحد، فنزل قوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾[الحشر: ٥]، أي أن الفريقين مصيبان ومأجوران، وكأن الذين بقوا على الأصل مأجورون من زاوية قلوبهم التي حرصت على الالتزام بالنصوص، بينما أجر الآخرون من زاوية عقولهم التي اجتهدت مداركها من خلال المقاصد الشرعية، فأفضى الحل إلى درء مفسدة كبرى بارتكاب مفسدة صغرى!

تعدد الصواب(٢)

_ تنافس الأنبياء والأولياء على القرب من الله:

بيّن تعالى أن الأنبياء والأولياء الذين يتخذهم المغفلون أندادا لله، طالبين منهم جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم، إنما يدعون من لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً بل هم منهمكون في سباق بينهم للوصول إلى الله بصورة أسرع ولنيل منزلة أقرب، فقال عز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وما يهمنا هنا هو أن الله ذكر بأن المدعوين في سباق بينهم، باحثين عن أفضل الطرق وأنجح الوسائل لكي يكون كل واحد منهم هو الأسبق في الوصول والأقرب في المنزلة، كما نفهم من: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، ومع تعدد الطرائق والوسائل فإنهم جميعا ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، ومع تنوع الطرق والأساليب فإنها كلها صائبة ما دامت تحقق الغاية وهي القرب من الله من خلال العروج إليه بجناحي الرغبة برحمته والرهبة من عذابه، وهذا الأمر قرينة على تعدد الصواب مع التفاوت النسبي بينها بحسب درجة القرب وقوة الحب، وهذا ما دعا له الله في مقام آخر حينما قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

وقد يقول قائل: كيف تنطبق الآية على المدعوين من الأنبياء والأولياء مثل المسيح عليه السلام وقطب الأقطاب عند الصوفية عبدالقادر الجيلاني وهم قد ماتوا، بينما النص يقول: ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة..﴾ والمضارع يفيد الاستمرار؟

فأقول: إن الآية تنطبق على الأنبياء الموتى وعلى الأولياء الأحياء منهم والأموات، فقد كان هذا السباق ديدنهم جميعا في حياتهم، بدلالة اسم الإشارة للبعيد في مطلع الآية (أولئك)، وقد أتى بالمضارع ليشمل الأحياء وليقول للناس إن الموتى من شدة تنافسهم على القرب من الله واستمرارهم في الجمع بين الخوف والرجاء حتى آخر دقيقة من أعمارهم

فكأنهم ما زالوا يتسابقون في مضمار التنافس، وهذا يوضح شدة افتقارهم إلى الله!

_ الفوارق بين المؤمنين:

أخبرنا الله بأنه قد أورث الكتاب لمن اصطفاهم من خلقه، فقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١ _ ٣٣]، وبناء على تعاطيهم مع الكتاب فقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الظالمون لأنفسهم، وهم الذين خالفوا تعاليم الكتاب فاقترفوا الكبائر وفرطوا بالواجبات، وقد اختلف المفسرون حول هذا الصنف وهل يدخلون ضمن المصطفين أم لا.

الثاني: المقتصدون وهم الذين يكتفون بأداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات ولا يسارعون في الولوج من أبواب القربات.

الثالث: السابقون بالخيرات، وهم المحسنون الذين لم يقنعوا بأداء الحد الأدنى من المطلوبات العبادية بل سابقوا إلى معالي الأمور ونيل الدرجات العلى وسارعوا للدخول إلى الإيمان من مختلف الأبواب، وكانوا حاضرين في صناعة الحياة بفاعلية عالية.

ومهما يكن أمر الظالمين لأنفسهم ولو أخذنا صنفي المقتصدين والسابقين بالخيرات لوجدنا فريقين مختلفين في المسالك لكنهما خرجا من رحم الاصطفاء ودخلا الجنة، مع الاختلاف النسبي في نوعية الجزاء بما يتفق مع الاختلاف النسبي في الأعمال!

_ الكفارات على رأي من يقولون بالتخيير:

وينتصب تعدد الجزاءات في الكفارات على من يقولون بالتخيير فيها كقرينة أخرى على تعدد الصواب، مثل كفارة اليمين التي ورد ذكرها في الآية ٨٩ من سورة المائدة، حيث جعلت كفارة اليمين: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم أو تحرير رقبة، وإذا عجز عن هذه الثلاثة الأمور ينتقل إلى الدرجة الثانية وهي صيام ثلاثة أيام.

المسافة بين وحدة الدين وتفرق المتدينين!

من يقارن بين مقاصد الإسلام العظيمة وأوضاع المسلمين المتخلفة؛ يصاب بالدهشة من البون الشاسع بينهما في كل الجوانب؛ نتيجة ما طرأ على أفهام المسلمين وسلوكياتهم من تغيرات مخيفة، ابتعدت بأوضاع التدين النسبي عن قيومية الدين المطلق، وبدلا من البقاء على المحجة البيضاء زغنا نحو مسالك بكل الألوان وصولا إلى المسلك الحالك السواد!

وقد أورد لنا القرآن نموذجا متصلا بقيمة حضارية عظيمة وهي الوحدة، حيث يتجسد فيها البون الشاسع بين الوحدة التي يدعو لها الدين وبين التفرق الذي يصنعه التدين المغشوش أو المنقوص، فقال عز من قائل: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣]. فإن القرآن يعظم الوحدة المشار إليها ب﴿أمتكم أمة واحدة﴾، ويجعلها من القيم الأساسية التي تضاهي وحدانية الله، بل إنه يقدمها في الذكر على الوحدانية المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾، لكن المسلمين الذين أصابتهم علل التدين، قاموا بتقطيع الإسلام الواحد ﴿أمرهم﴾ كتقطيع الحداد للحديد إلى زبر متفرقة، ويصبح كل فريق كأنه زبرة تهوي على رؤوس الناس الذين لم يسلكوا مسلكه، والزبرة هي مطرقة الحديد الضخمة، كما قال ذو القرنين: ﴿آتوني زبر الحديد ..﴾، أو كتقطيع الكتاب الواحد إلى كتب متعددة ويصبح كل جزء منها زبورا منفصلا عن الآخر مثل زبور داوود!

وهذا يعني أن كل فريق يأخذ القطعة التي يراها مناسبة لأهوائه، ويطير فرحاً بها، ومن معاني الفرح بها اعتقاده أن الحق كله في ما أخذه وأن الحقيقة المطلقة أصبحت ملك يمينه وحده، بينما يرى أن الآخرين في ضلال مبين، وهذا يعمق حالة التفرق والتمزق التي تعاني منها الأمة!

وقد أورد القرآن نموذجا لشخص فقه دينه فجعله التزاحم بين الوحدة والوحدانية في ظرف ما يقدم الوحدة، وهو نبي الله هارون الذي أبقاه أخوه موسى عليهما السلام مع قومه نيابة عنه، حينما ذهب لميقات الله في جبل الطور، وفي هذه الأثناء قام السامري بإغواء بني إسرائيل وأقنعهم بعبادة العجل الذي صنعه لهم من الذهب المأخوذ من المصريين، ورغم محاولات هارون لردعهم إلا أن خوار العجل فتنهم وخاصة أنهم كانوا حديثي عهد بوثنية المصريين التي تأثروا بها كثيرا حتى سكنت العقل الباطن لكثيرين منهم، وكان هارون إزاء هذا الانحراف بين خيارين: أن ينتصر لوحدانية الله ويقوم بثورة ضد السامري فينقسم اليهود إلى قسمين، أو أن يبقى مع الجماعة الواحدة حتى يعود موسى، وهذا ما فعله، وحينما عاد موسى غضبان أسفا وعاتب أخاه بشيء من العنف لأنه بقى معهم ولم يفارقهم، قال له هارون: ﴿إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ [طه: ٩٤]، وتشير جملة ولم ترقب قولي إلى أن موسى أوصاه بالمحافظة على وحدة الجماعة مهما كانت الظروف؛ ولذا فقد اقتنع بتبرير هارون وقام باحتضانه والدعاء له معه!

وللأهمية البالغة للوحدة ولدور الدين في التوحد، فقد أخبرنا القرآن أن مضمون رسالات الأنبياء الخمسة المعروفين ب(أولي العزم من الرسل) هي ما ورد في قوله تعالى: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣]، وأشار في ذات الآية إلى صعوبة التوحد بالنسبة للمشركين، فقال: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾؛ وكأنه يشير إلى أن اختلاف مصادر التلقي وتعدد الطواغيت الذين يجعلونهم أندادا لله تجعل وحدة المشركين شبه مستحيلة، ولذلك فقد حذر المسلمين من أن اختلافهم في الدين، وهو الثوابت والقطعيات والكليات والأصول الواردة في الوحي، سينقلهم من التوحيد إلى الشرك، قال تعالى: ﴿ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا..﴾[الروم: ٣٢]، والشيع هم الذين جعلوا القرآن عضين فأخذوا بعضه وتركوا بعضه، فكأن كل طرف قد تشيع لنوع من النصوص في القضايا التي تحمل وجهين، مثلما يتشيع الناس للزعماء والقادة!

وقد حذر الله المسلمين بصورة قطعية من التفرق في الدين، ولكن من خلال مخاطبة النبي ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾[الأنعام: ١٥٩]، وهذا أمر غير مباشر للنبي عليه السلام بالبراءة منهم؛ لأنهم ابتعدوا عن مضمون رسالته الشاملة وعن منهجه في التعامل مع هذه الرسالة والتي لا تضمن للمسلمين وحدة أمتهم وائتلافهم، ولا أمنهم واستقرارهم ولا قوتهم وعزتهم ولا تقدمهم ورفاهيتهم، إلا أن تم أخذها جملة واحدة كما فعل النبي ﷺ وصحابته الكرام، الذين لم يفرقوا بين العقيدة والشريعة، ولا بين الأخلاق الظاهرية والمشاعر الباطنية، وكانوا حريصين على وحدة الأمة مثل حرصهم على وحدانية الإله!

ومن ثم فإن المسافة بيننا وبين العروج الحضاري ستظل شاسعة، ما لم نردم الهوة التي تفصلنا عن القيم الحضارية التي أقامت خير أمة أخرجت للناس وفي مقدمتها الوحدة والحرية!

بين التفرق في الدين
والدخول إليه من أبواب متفرقة!

_ تعدد التفرق المنهي عنه:

ورد في القرآن الكريم قول الله تعالى لنبيه محمد عليه السلام: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء...﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ذلك أنهم قد بدّلوا وغيّروا الدين الإلهي، ولم تعد تجمعهم آصرة الدين القيم مع الرسول، ذلك أن الإسلام حينما يتم تجزئته يصير شيئا آخر غير الإسلام!

وبالطبع فإن الدين قد جاء بالكليات والأصول والمقاصد التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ذلك أنها تمثل القواسم المشتركة بين جميع الناس بمختلف نفسياتهم ومداركهم ومستوياتهم، وبشتى أعراقهم وعوائدهم ومناطقهم، ولم يأت الدين بالجزئيات والفروع أو بالأساليب والوسائل، ومن هنا فإن عبارة (دينهم) الواردة في الآية تعني ثوابتهم التي هي الكليات والمقاصد والأصول، بمعنى أن التفرق المنهي عنه والمتسبب في اجتلاب العذاب العظيم لأصحابه في داري المعاش والمعاد هو التفرق في الثوابت المعلومة من الدين بالضرورة، وينطبق على هذا المجال قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾، والبينات هي القواطع الظاهرة والقطعيات اليقينية، ويدخل ما عدا الثوابت في التعدد السائغ والذي لا يجوز فحسب بل قد يكون مطلوبا لكونه وسيلة لخلق التدافع الطبيعي بين الناس وإذكاء التنافس بين المؤمنين على التجويد والتحسين وصولاً إلى التطوير والابتكار، وينطبق على هذا المجال قوله تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾، ويكون المجتهد المصيب مستحقا لأجرين والمخطئ لأجر واحد، وقد يتعدد الصواب في بعض المسائل، كما في الوسائل ما دامت جميعها تحقق المقصد المنشود.

_ الدخول من أبواب متفرقة:

من المعلوم أنه لا يوجد كتاب هداية مثل القرآن الكريم، لا في شمول هداياته للفرد والأسرة والمجتمع والأمة والعالم كله، ولا في جمعه بين ثنائيات: الروح والمادة، الدنيا والآخرة المثالية والواقعية، ولا في تنوع إعجازه بين البياني والعلمي والتشريعي والغيبي، ولا في تفرد أساليبه البلاغية الساحرة وتفنن صياغاته البيانية المحكمة، ولا في طرق تأثيره الخفية والجلية على العقول والقلوب والنفوس، ولقد قال الله تعالى لحبيبه محمد: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [الأنعام: ٦٥]، أي أن تصريف الآيات وتنويع الأساليب مدعاة للفهم العميق، ولعل الله أراد بكلمة (انظر)، تجاوز الإخبار للرسول إلى لفت نظره لمنهج التنوع في الأساليب والوسائل من أجل الولوج الناجح إلى العقول والقلوب حتى تفهم المراد ويسكنها التأثر، بحيث تمتلئ الجوانح بالقناعة والإيمان فتتحرك الجوارح للعمل والتطبيق!

_ الانصراف عن الثوابت:

لقد سطّر الله كليات الإسلام وأصوله ومقاصده العامة في كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير، وصاغ تعاليمه بطريقة ميسرة للذكر والادكار أي للتلاوة والفهم والتأثر، طالبا من المسلمين القيام بدورهم من خلال إعمال مدارك العقل وأحاسيس القلب، حيث قال عزّ من قائل: ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾؟، وقد تكررت هذه العبارة بذات الحروف في أربعة مواضع من سورة القمر.

ولهذا فقد استنكر الله على من ينصرف عن الثوابت القطعية المعلومة من الدين بالضرورة، فقال تعالى: ﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تُصرفون﴾ [يونس: ٣٢]، أي فمن أين تُصرفون عن هذه الثوابت وكيف؟ وهي مصوغة بصورة واضحة لا تقبل التأويل، ومقنعة لا تقبل الشك، وفي ذات الوقت تتضمن ما يلبي حاجات الجسم ويتفق مع طبيعة الفطرة، وما يلبي أشواق الروح وأتواق العقل، وما يحقق السعادة الدنيوية والفوز الأخروي بالنعيم الأبدي!

وأمّ الثوابت المذكورة في الآية هي أن الله هو الرب الحق للناس، لأنه وحده من يخلقهم ويرزقهم ويحييهم ويميتهم ثم يبعثهم ويجازيهم على ما كسبت أيديهم، وما عداه من اتخاذ الأرباب والمتربين إنما هو باطل محض وضلال مبين، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!

المقاصد والوسائط

_ البحث عن الوسائل المحققة للأهداف:

أمر الله عز وجل حبيبه محمدا عليه السلام بإشاعة التذكير العام، فقال تعالى: ﴿فذكّر إن نفعت الذكرى﴾ [الأعلى: ٩]، ولأول وهلة ربما يتبدى للقارئ من ظاهر القول أن الذكرى عندما لا ينتفع منها الناس فينبغي التوقف عن الاستمرار فيها، ويبدو لي أن الآية لا تعني أن الذكرى إن لم تنفع المستهدفين فإن الداعية يقلع عن التذكير، وإنما هي توجيه للداعية بأن وظيفته لا تقتصر على التذكير سواء استفاد الناس أم لم يستفيدوا، فهذا نوع من الأداء الميكانيكي السالب وكأن اهتمامه قاصر على إسقاط الواجب ولا وجود لروح الدعوة وشغف الهداية فيه، وكأن الله يطالب الداعية بأنه مثلما يجب عليه التذكير فيجب عليه أن يبحث عن الوسائل الموصلة للذكرى إلى قلوب الناس وعقولهم، أو الانتقال في ممارسة الدعوة إلى مجال آخر أو ميدان آخر أو مجتمع آخر ينفع فيه التذكير.

وهذا الأمر حينما يتم تدبره سنجد أنه يحمل معنى الدعوة للتجديد والتنويع والدخول من أبواب متفرقه، وعدم الجمود على الوسائل والأساليب التقليدية، مع ما يقتضيه ذلك من رسم للخطط العلمية المحكمة، ثم مراجعة الخطط والممارسات وهو ما يسمى في عصرنا بالنقد الذاتي، وذلك في ضوء فهم طبائع الناس ونفسياتهم وطرائق فهمهم، ومعرفة عوائدهم ومصالحهم، وفقه الواقع الذي ينغمسون فيه بكل متغيراته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكذا في ضوء الخبرات الذاتية السابقة وتجارب الآخرين!

وربما كان هذا الأمر هو السبب لقول بعض الأنبياء لأقوامهم: ﴿لقد أبلغتكم رسالات ربي.....﴾، وهو إنما بلغ رسالة واحدة مع تعدد أركانها وشروطها، لكن حرصه على تغيير درجة التركيز على الأولويات والأهداف وتطوير الأساليب والوسائل، أظهر الرسالة في كل مرة كأنها مختلفة، فجاء التعبير القرآني (رسالات) وهي في الحقيقة رسالة واحدة!

وربما كان هذا الأمر شبيها بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾، يعني اجتهدوا في فهم مراد الله بحيث لا يفقدكم ربكم عند أوامره ولا يجدكم عند نواهيه، واستخدِموا الوسائل والأساليب التي ترونها أكثر نجاعة في تحقيق هذه الغاية، سواء ورثتموها عن أسلافكم أو اقتبستموها من منافسيكم وخصومكم أو ابتكرتموها باجتهاداتكم وعبقريتكم!

ومما يشير إلى ترجيح هذا المعنى أن فعل الأمر (ذكِّر) في الآية الأولى، جاء على وزن فعِّل وكأنه يقول فعِّل كل الوسائل التي تساعد على نجاح التذكير ووصول النفع إلى المخاطبين.

_ مراعاة المقصد:

ينصبّ اهتمام الإسلام على المقاصد والغايات وليس على الأشكال والمظاهر، وفي هذا السياق نعرف أن الإسلام حرّم الفرار من الزحف أمام الأعداء، إذا كان الغرض منه المحافظة على النفس وليس فيه مصلحة عامة للمجتمع أو للأمة، وأجاز ماعدا ذلك كأن يكون تكتيكاً ضمن استراتيجية كسب المعركة على المدى القريب أو البعيد، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]. وتحرّف القتال يحمل معنى التكتيك والمناورة، بينما يحمل التحيز إلى فئة معنى الاستدراك وتعديل موازين القوة، إذا كان الاختلال يمكن أن يؤدي إلى فناء مقاتلي المسلمين.

ومن هنا فقد اعتبر الرسول ﷺ أن جيش خالد بن الوليد الذي انسحب من معركة (مؤتة) كُرّاراً لا فُراراً، بعكس عامة المسلمين الذين أسرهم الشكل الظاهر أمامهم ولم يلتفتوا إلى المقصد والمآل، فاستقبلوا الجيش في المدينة المنورة بمظاهرة تهتف: يا فرار يا فرار، فرد عليهم الرسول ﷺ قائلا: «بل كرار»!

تجفيف منابع العصبيات

_ واحدية الأصل الإنساني:

تكلم القرآن صراحة في عشرات الآيات عن واحدية الأصل الإنساني، سواء في الخلقة المادية الأولى من نفس التراب ثم النفخ فيها من روح الله، أو في الخلقة الثانية من آدم ثم من آدم وحواء، وهناك آيات تؤيد نفس المعنى ولكنها تحتاج إلى شيء من التأمل حتى يتم استخراج هذا المعنى من ظرفه الكلامي، مثل قوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا...﴾ [فاطر: ١١]، ولما كان الله يخاطب جميع البشر بصيغة الجمع، فمن المفترض وفق السياق اللغوي أن يتم التحدث بصيغة الجمع للتراب والنطفة، لكنه لم يفعل ذلك بل لجأ إلى المفرد حتى يؤكد على وحدة الخلقة الأولى، فآدم مخلوق من تراب واحد وأبناؤه تناسلوا من نطفة واحدة التي هي نطفته الأولى المودعة في رحم حواء المخلوقة من ضلعه، وهذا ينسف دعاوى التميز العرقي والسلالي، ويؤكد التساوي بين جميع البشر، وهي الحقيقة التي يقررها القرآن في عشرات الآيات القرآنية بمختلف الأساليب والصيغ، ومنها هذه الصيغة التي تحتاج إلى قدر من التأمل.

_ كرامة الخَلق والأمر:

من المعلوم لكل مؤمن أن الله هو صاحب الخلق والأمر في هذا الوجود، كما قال تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾، وبالنسبة لقيمة الكرامة التي منحها للبشر فإن لها مستويين متصلين بحقيقتي الخَلق والأمر، وذلك على النحو الآتي:

المستوى الأول: الكرامة المتصلة بالخَلق وهي الكرامة العامة الممنوحة لجميع البشر لكونهم بشرا خلقهم الله بيديه ونفخ فيهم من روحه وأسجد لهم ملائكته، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾.

المستوى الثاني: الكرامة المتصلة بالأمر، وهي كرامة نسبية اكتسابية، حيث لا ينالها إلا من أرادوها، من خلال معيار متاح لجميع الناس، وهو الالتزام بتطبيق أوامر الله واجتناب نواهيه في كل نواحي الحياة التي تمتد إلى بضع وسبعين شعبة ينبغي اتباعها، وفي الطرف المقابل توجد بضع وسبعون كبيرة، وعنوان ذلك كله التقوى، وقد ذكرت هذه الكرامة في قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذه الكرامة لا يعلم حقيقتها ومقدارها إلا الله تعالى، وهذا ما تشير إليه فاصلة الآية: (إن الله عليم خبير)؛ فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ولذلك لا ينبني على التقوى حق دنيوي خلاف المعايير التي يتساوى فيها الجميع!

_ توحيد مصدر التلقي:

أخبرنا القرآن أن الناس كانوا أمة واحدة ثم تفرقوا، ولكن متى حدث هذا التفرق؟.. بلا شك أن التفرق قد وقع حينما اتخذوا أربابا متفرقين بدلا من عبودية الواحد القهار، وكان الأوائل يعتقدون أنهم بذلك الصنيع إنما يتقربون بصالحيهم إلى الله زلفى، وربما ظن من قبلهم أنهم بذلك الانحراف يدخلون إلى الله من أبواب متفرقة!

ويبدو أن بذور آفة التفرق تعود إلى عدم تدبر الوحي، فإن كتاب الله يختلف عن بقية الكتب البشرية، فكلما أمعن المرء النظر فيه ظهر له الاتساق التام في مبانيه والتكامل في معانيه بأكمل صورة، بعكس كلام البشر فإن التعمق في قراءته يكشف فجوات من التناقض والتضاد الثاوية فيه؛ ولذلك قال عز من قائل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾.

مخاطر ثقافة القطيع!

_ خطورة ثقافة القطيع:

عندما يعطل البشر جهاز الوعي الذي أنعم الله به عليهم؛ فإنهم ينحطّون إلى دركة الأنعام فيخضعون لثقافة القطيع المتقاطعة مع الوعي الجمعي؛ إذ تحت دعاوى الوحدة واحترام العوائد الموروثة عن الأسلاف والتي ترقى إلى درجة الثوابت، تجرف ثقافة القطيع الأفراد بعيدا عن المقاصد النافعة والمصالح القطعية المشتركة، ولا تتورع في أغلب الأحيان عن الدوس على المنطق العقلي السليم تحت عناوين غرائزية ما أنزل الله بها من سلطان!

ولخطورة هذه الثقافة التي تتولد عن الأهواء المعاصرة والتقاليد الموروثة والأمزجة المتقلبة؛ فقد حذر الله نبيه محمدا من الانسياق مع الأهواء الجمعية مهما بدا بسيطا، كما قال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ [المائدة: ٤٨]، ولخطورة الأمر فلم يكتف المولى بالنهي عن اتباع أهوائهم بل زاد بالتحذير من التعرض لفتنتهم، واستخدم مصطلح الفتنة ليقبح أمرهم ويوضح فداحة الخطب، والتحذير ينطبق على القليل مثل الكثير، ولذلك قال: ﴿عن بعض..﴾ مهما كان صغيرا أو يسيرا؛ ذلك أن الأمر هنا غير متعلق بالمصالح والمفاسد الاجتهادية النسبية وإنما بالقيم والمبادئ القطعية الثابتة!

_ ثقافة القطيع وشجرة الزقوم:

تحدّث القرآن الكريم عن الذين يتقلبون بين لهب النيران فيأكلون من شجرة الزقوم ويشربون من الحميم ثم يرجعون إلى الجحيم، وبيّن بعد ذلك السبب في ورود النار، فقال عز من قائل: ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين. فهم على آثارهم يهرعون﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]، وهذا يعني أنهم دخلوا النار دون أن يكونوا أصحاب نفوس شريرة وقلوب دنسة

أوخبيثة، لكنهم استمرؤوا رؤية آبائهم في الضلال فهرعوا مسرعين لتقليدهم من دون إعمال أبسط مدارك التفكير، وهذا هو جوهر ثقافة القطيع الذي يسير خلف قادته أو قواديه، وبدورهم فإن هؤلاء يسيرون خلف أسلافهم، والقاسم المشترك أنهم يسيرون إلى حتوفهم مغمضي الأعين ومن دون أدنى تفكير!

_ استنقاع ثقافة القطيع:

بعث الله كليمه موسى عليه السلام في المجتمع المصري الفرعوني لا ليدعوهم إلى الإيمان بالله ولكن ليستنقذ بني إسرائيل من أغلال استعبادهم، وأخبرهم صراحة أن الله أرسله لهذا الغرض، فطلبوا منه برهانا على أنه مرسل من ربه، فأظهر لهم برهانين وليس برهانا واحدا وهما العصا واليد، ولأنهم منغمسون في ثقافة القطيع التي أصابها الاستنقاع فقد فرّوا من التسلسل المنطقي إلى اتهامه بأنه ساحر، ولما عاب عليهم موسى إطلاق كلمة السحر بما فيه من تزييف وتدجيل على الحق الذي يشع ضياؤه في الأرجاء، قالوا له: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾ [يونس: ٧٨]، وعند التمعن في هذا النص، نجد في كلام هؤلاء المعتوهين ثلاث آفات:

الأولى: أنهم أسرى لثقافة القطيع التي ورثوها عن آبائهم بعد أن أصابها الاستنقاع كما أسلفنا وصارت عاجزة عن استيعاب الحد الأدنى من متغيرات العصر، حيث قالوا: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾، وفي استخدامهم لعبارة (لتلفتنا) برهان واضح على شدة تجذر طبائع القطيع فيهم، بحيث أصبح مجرد الالتفات أمرا في غاية الصعوبة معتبرين إياه جريمة لا تغتفر!

الثانية: ممارستهم لعملية إسقاط في قولهم ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾، فهذه الكبرياء مستوطنة في قلوبهم وراسخة في أخلاقهم وسلوكياتهم، وما فرعون الذي دفعه كبرياؤه إلى ادعاء الألوهية إلا رأس هرم الطغيان في ذلك المجتمع!

الثالثة: السير خلف أوهامهم بأن موسى وهارون عليهما السلام جاءا للتبشير

باليهودية بين المصريين، وهذا واضح من قولهم في آخر الآية: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾، وغاية ما جاء به موسى وهارون هو الدعوة لإطلاق بني إسرائيل من أسر الاستعباد!

مصائب التفرق!

_ الشقاق البعيد:

إن أسوأ أنواع الخلاف وأشدها عمقا وأخطرها أثرا، هو الاختلاف في آيات القرآن الكريم، سواء كان تأويلاً يخرجه عن بعض مقاصده أو تنزيلا يقيم بعضه ويترك بعضه الآخر من خلال التشيع لوجه واحد من وجهي الحقيقة الواحدة، وربما كان هذا الأمر هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ [البقرة: ١٧٦]، ويشير حرف الجر (في) الذي يسبق الكتاب إلى أن الاختلاف في العمق وليس حول الاستنباط وطرائق الفهم والتنزيل، ورغم ما تحمل كلمة شقاق من معاني الافتراق والتباعد والتباغض والتعادي، فقد زادها الله تأكيدا بوصفها بكلمة (بعيد)، كأنه يقول بأن الاختلاف في القرآن يصل بأصحابه إلى منتهى التفرق والتباغض، وتصبح المسافة شاسعة بين كل فريق وآخر فكل طرف يلتزم شقا بعيدا عن الآخر ويصبحان كأنهما خطان متوازيان، من حيث صعوبة سماع كل شق للآخر واستحالة التلاقي!

_ حساب التفرق في الدين موكول إلى الله:

أخبرنا القرآن الكريم أن الرسول ﷺ لا علاقة له بتاتا بمن فرقوا دينهم وصاروا شيعاً لأفكار مبعضة أو حقائق جزئية أو للأشخاص الذين جعلوا القرآن عضين، إنما أمرهم موكول إلى الله يوم الدين، قال تعالى: ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وهذا يدل على فداحة الخطب وعظم الخطيئة، فالله هو من سيتولى إخبار المفرقين لدينهم بما اقترفوه بنفسه، في مقابل ذنوب يشهد عليها الأنبياء، وذنوب يشهد عليها الملائكة، وذنوب تشهد فيها ألسنة الناس وأيديهم وأرجلهم!

_ الاختلاف في الأفكار يقود إلى الاختلاف في الأفعال:

بعد أن دعا الله المؤمنين إلى التقوى وعدم الموت إلا على الإسلام دعاهم للاعتصام بحبله المتين وعدم التفرق؛ ذلك أن الابتعاد عنه مدعاة للتفرق، ودعاهم لتذكر نعمة الله عليهم في الائتلاف بعد أن كانوا مضرب المثل في الاختلاف، ثم دعاهم لتخصيص طائفة تفي بحاجة الأمة في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [آل عمران: ١٠٢ _ ١٠٤]، وانتقل بعد ذلك لتحذيرهم من الوقوع في آفات التدين التي وقع فيها بنو إسرائيل وأهمها آفة التفرق، فقال عز من قائل: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [آل عمران: ١٠٥]. والعاقبة واضحة في العذاب العظيم الذي يصيب من تفرقوا في دينهم، ولكن لماذا ذكر مفردتي التفرق والاختلاف؟

يبدو لي أن التفرق يشير إلى التفرق في الدين أي الأفكار التي سيتم صنع الحياة بموجبها، أما الاختلاف فيكون في الأفعال التي ستنبني على الأفكار، وهذا أمر طبيعي فإن الأفكار هي الحصان بالنسبة لعربة الأفعال؛ ولذلك فإن كثيرا من البراهين تؤكد صحة تشخيص من يرون بأن أساس أزمات أمتنا كلها هي الأزمة الفكرية، ولو صلحت الأفكار فإن الأفعال ستصلح إلى حد كبير. ولأن أسباب الاختلاف في الواقع العملي ليست قاصرة على اختلاف الأفكار بل هناك أسباب نفسية وقلبية، فقد ذكر الاختلاف بعد التفرق، والله أعلم !

مقومات الوعي الجمعي (١)

_ العناية بالفرائض الكفائية المتعدية أكثر من العبادات العينية اللازمة:

من المعلوم أن الفرائض التي أوجب الله على المسلمين القيام بها تنقسم إلى قسمين:

الأول: يضم ما يخص العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتسمى بالعبادات العينية أو اللازمة؛ لأنها علاقة خاصة بين الإنسان وربه ومطلوبة من كل شخص بعينه ما دام يحمل شروط الأهلية والتكليف، كالصلاة والصيام والحج والفكر والذكر والدعاء.

الثاني: يضم ما يخص العلاقة بين الإنسان وسائر المخلوقات، وتسمى بالعبادات المتعدية أو الكفائية، ذلك أنها تتعدى الشخص إلى غيره من الكائنات والجمادات، وهذه العبادات التي تبقى أجورها تنهمر على الإنسان بعد موته، ما دام هناك من يستفيد منها، وهي المشار إليها بقوله عز وجل: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم...﴾ [يس: ١٢]، لكن العبادات اللازمة ليست لها آثار ولذلك فإن أجورها تنقطع فور موت الإنسان!

وتمثل الفرائض الكفائية تجسيدا مثاليا للتنوع الذي تتطلبه عمارة الحياة، بحيث يدخل كل إنسان إلى مرضاة الله من زاوية التخصص الذي يناسب استعداداته والمهنة التي يتقنها: ﴿ولكلٍ درجات مما عملوا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، مما يؤدي إلى تكامل الأدوار وصناعة الحياة بصورة مثلى، ومن الآيات التي تؤصل للفرائض الكفائية قوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾، وقوله عز وجل: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾، والآيتان وإن كانتا تؤصلان لطلب علوم الشريعة والتفرغ لقضية الدعوة إلى الله من قبل مجموعة من المسلمين، فإن سائر التخصصات الحياتية تقاس عليهما؛ لأن شريعة الإسلام جاءت من أجل جلب المصالح ودرء المفاسد

في المعاش والمعاد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، مع العلم أن بعض المفسرين ومنهم ابن جرير الطبري قد ذهبوا إلى القول بأن المقصود بأصحاب النفرة في الآية الأولى هم المجاهدون، لكن أغلبية المفسرين ترى أن المقصود بها الذين يتفرغون لطلب علوم الشريعة، ولا غرابة في ذلك فإن طلب العلم صورة من صور الجهاد، ولا سيما إذا تطلب هجرة وتغرباً.

ويبدو لي أن الله اختار مصطلح (طائفة) في الآية الأولى لكي يقول بأن واجبها ينبغي أن يجعلها تطوف لتعليم المسلمين جميعا، ومن ثم فإن العدد ينبغي أن يلبي حاجات كل فرقة تسكن منطقة ما من الأرض، بحيث يصل البلاغ الضروري إلى الجميع، واختار مصطلح (أمة) في الآية الثانية للإشارة إلى أن الطائفة التي نذرت نفسها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي أن تكون كافية للقيام بهذا الأمر على مستوى الأمة، وتقاس على هذين الأمرين سائر الواجبات الكفائية، من تفكير وتنظير إلى تربية وتأديب، ومن تطبيب وهندسة إلى تصنيع وبناء، ومن تجارة وزراعة إلى مهن حرفية وأعمال يدوية، وهكذا سائر المهن الداخلة في جلب المنافع ودرء المضار ضمن عملية خلافة الله في الأرض وعمارتها وفق منهج السماء!

ونختم هذه الفقرة بالتنويه بأن الإمام النووي نقل عن السلف الاتفاق على عدم إعطاء شيء من الزكاة لمن انهمك في نوافل الشعائر التعبدية بينما ينبغي إعطاء من تفرغ لطلب العلم من أموال الزكاة حتى لا يشغله طلب الرزق عن طلب العلم، وعلل ذلك بأن الأول منهمك في عبادة لازمة لن يستفيد منها سواه، بينما طالب العلم منهمك في عبادة متعدية وفريضة كفائية سيستفيد منها المجتمع بالجملة!

_ إدراك أن الخلاص الفردي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الخلاص الجماعي:

من المعلوم أن الله أطلق مسمى الأمة على مجموع المسلمين، ذلك أنهم بحسب وصف النبي ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ولهذا خاطب الله المؤمنين جميعا، فقال: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا

منكم خاصة﴾[الأنفال: ٢٥]، فإن الظلم يستنزل العذاب سواء كان ماديا أو معنويا، والعذاب مثل الوباء المعدي إذا نزل بساحة قوم فإنه يصيبهم جميعا، مع الاختلاف النسبي بحسب قوة المناعة الفردية، لكن جهاز المناعة الاجتماعية هو الحاسم في منع العذاب من النزول على الأمة، كما قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ [هود: ١١٧]، فإن الإصلاح والدعوة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقويات لجهاز المناعة الاجتماعي، ومن هنا فإن على كل مسلم أن يسهم في تحقيق الخلاص الجماعي من خلال أفعاله قبل أقواله، بل ومن خلال مشاعره ودعائه، إذ أن الصلاة تلزمه بأن يدعو الله في كل ركعة بالخلاص الجماعي حينما يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] بصيغة الجماعة، وحتى لو قضى المرء سنوات يقيم صلواته بمفرده في مكان نائي من الأرض، فلا ينبغي له أن ينسى الدعاء لمجموع الأمة بالخلاص الجماعي، ولو قال: اهدني الصراط المستقيم لبطلت صلاته!

مقومات الوعي الجمعي (٢)

_ ارتباط وراثة الأرض بمقومات الصلاح الاجتماعي لا الفردي:

أوضح القرآن الكريم أن وراثة الأرض إنما تتحقق بقيم الصلاح لعمارة الأرض وبالأخلاق الاجتماعية، مثل: الحرية، الوحدة، العلم، العمل، العدل، المساواة، النظام، وهذا ما يشير إليه بوضوح قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٥ _ ١٠٧]، فهذا الأمر المحوري (الوراثة أو التمكين) ينبثق من عدل الله ورحمته وحكمته وقيوميته وعظمته التي جعلت الدنيا بضآلة ما هو أقل من جناح البعوضة، ولهذا فقد كتب الوراثة على هذه الصورة، إما في اللوح المحفوظ الذي لا تبديل فيه أو في سائر الكتب السماوية التي تنزلت لإبلاغ الناس بمشيئته تعالى، وجعلها أمرا مفروغا منه بصورة قطعية، وهذا من أسرار استخدام عبارة (كتبنا) وليس فرضنا!

ولأن مقومات الصلاح منتصلة بصلب العبادة لله تعالى فقد أكد الله في الآية الثانية على أن هذه الحقيقة هي بلاغ من الله (لقوم عابدين)، على اعتبار أنها أخلاق جمعية وليست فردية، وهذه المقومات باعتبارها قيما حضارية هي في متناول جميع البشر، فإن غير المسلمين لو اعتنقوها أو تحلوا بها فإنهم يصيرون أفضل من المسلمين في مضمار التمكين وسيحصلون على وراثة الأرض على حساب المسلمين الذين فرطوا بهذه القيم والأخلاق رغم أنها من صميم دينهم؛ بسبب إصابتهم بالأمية الفكرية وإهمالهم لتدبر القرآن وقعودهم عن السير في مناكب الطبيعة وتقصيرهم في عمارة الأرض وصناعة الحياة، كما نرى في العصر الحديث منذ أن تبادل المسلمون المقاعد مع الغربيين، حينما أشرقت شمس الثورة الصناعية من الغرب، وما رافقها وتبعها من انبثاق لقيم الحرية والديمقراطية والعدالة والوحدة والعلم والعمل الدائب لعمارة الأرض وصناعة الحياة

الكريمة للإنسان الغربي، في مقابل حضور دياجير الظلم والاستبداد والجهل والفساد والبطالة والتقليد في حياة المسلم الحديث!

ومن هنا فإن وراثة الغربيين للأرض منذ بضعة قرون تتسق تماما مع ما أورده القرآن في الآيات أعلاه، ولن يستعيد المسلمون زمام المبادرة ويستأنفوا العروج الحضاري ما لم يمتلكوا مقومات النهوض ومنها الوعي الجمعي.

_ تجسيد المقاصد الجمعية في الشعائر التعبدية:

للشعائر التعبدية في الرؤية الإسلامية مقاصد عديدة، ومنها مقاصد اجتماعية تصنع الوعي الوحدوي وتخلق المشاعر الجمعية التي تجعل أمة المسلمين كلها كالجسد الواحد، بحيث يعاني كل فرد فيها من حساسية شديدة تجاه تعرض أي أخ له من ظلم في أي مكان من أي طرف كان، وكأنه هو من تعرض للظلم!

ونقصد بالشعائر التعبدية الصلاة والحج والصيام والزكاة والفكر والذكر، فكلها شعائر ذات أبعاد متعددة، وللبعد الاجتماعي نصيب وافر منها!

فالصلاة التي تمثل عمود الإسلام، الأصل فيها أن تصلى في جماعة حتى تنمي الوعي الجمعي في بعدها العقلي وتنمي الأحاسيس الوحدوية في مستواها القلبي، وحتى في بعدها الجسمي فإن تسوية الصفوف وتكميلها وعدم السماح بوجود فجوات فيها، والحركة الجمعية خلف الإمام، كلها تزرع في الوجدان احترام قيم النظام والانضباط! وحتى لو أقيمت الصلاة بصورة فردية فإن جميع المصلين من شتى بقاع الأرض يصلون نحو نفس القبلة وبذات الأركان والشروط وأعداد الركعات، وحينما يقرأ كل واحد منهم الفاتحة المفروضة في كل ركعة فإنه يردد مع جماعة الأمة: ﴿إياك نعبد واياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٥، ٦]، بصيغة الجمع حتى يستحضر دوما أنه جزء من هذه الأمة التي شبهها النبي ﷺ بالجسد الواحد، وضرب المثال لأفرادها في التآلف والتعاضد بالبنان أو البنيان يشد بعضه بعضا!

ولو تفكرنا في حقيقة صلاة الجماعة التي ينبغي أن تكون وفق نصوص الوحي

ومقاصده، لرأينا أنها مدماك أساسي من مداميك وحدة الأمة، فهي: تجسيد مصغر لجماعة المسلمين ووحدتهم، ونموذج بسيط لما ينبغي أن تكون عليه جماعة المسلمين من تجسيد لقيم النظام والانضباط، وتأكيد عملي على لحمة الجسم الإسلامي وتساوي الجميع على صعيد واحد، ثم إنها تربي الفرد الذي سيصبح لبنة مناسبة تماما في جدار الأمة؛ حيث تشذب الزوائد الترابية الكامنة فيه، والتي تمنعه من الائتلاف مع غيره من المسلمين، وتزرع في وعيه أن تعانق الأرواح قبل تعاضد الأجسام، وتواد القلوب قبل تراص الأقدام، وائتلاف الأفئدة قبل التحام الأكتاف!

مقومات الوعي الجمعي(٣)

_ إبراز قيم الوحدة بين مكونات الأمة في نصوص الوحي ومقاصده:

ظلت عشرات الآيات في القرآن الكريم تترى لتؤكد للمسلمين أنهم كتلة واحدة وكيان واحد، وذلك بمختلف الأساليب والصيغ، ومن ذلك الحديث عن كونهم أمة واحدة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وكأنه يقول: تذكروا في سائر عباداتكم في محرابي الصلاة والحياة أنكم أمة واحدة ولستم أفرادا متفرقين، وحينما يقول أمة فكأنه يقول إنكم من أمّ واحدة، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات]، واستخدم أسلوب الحصر لكي يقول إنه لا توجد رابطة تربطكم غير رابطة الأخوة الإسلامية، وبقية الأواصر العرقية والجهوية والوطنية والقبلية والطائفية والمذهبية والحزبية، إنما هي أدوات للتعارف وروابط للتعاون على البر والتقوى بعيدا عن العصبيات الجاهلية، مع بقاء الدوران حول فلك الإسلام ديدن الجميع!

وبالمناسبة فقد تكرر مصطلح الأمة بمختلف الاشتقاقات والمعاني في القرآن الكريم ٦٤ مرة!

وإذ يرى الإسلام أن المسلمين جميعا جسد واحد؛ فإنه يؤكد لهم من خلال عرضه لقصة بني إسرائيل ومواثقته لهم بأن من يسفك دم أخيه فإنما يسفك دم جسده هو، ومن يُهجّره من أرضه فكأنما يُهجّر نفسه تماما، فقال عز من قائل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ [البقرة: ٨٤]، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وذلك أنأهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر «.

وقس على القتل والتهجير سرقة ماله وانتهاك عرضه والاعتداء على حقوقه وعلى أي من الضروريات والحاجات الخاصة به!

ـ إبراز التعانق بين حقوق الله وحقوق الإنسان وتقدم الثانية على الأولى في الأهمية:

هناك عشرات الآيات التي تربط ربطا وثيقا بين حقوق الله وحقوق الإنسان، وتتقدم في بعضها حقوق الله لأنها الأساس الذي ستقوم عليه حقوق الإنسان، فمن لم يتسلح بالتقوى بحيث يخشى الله ويخاف اليوم الآخر فلن يؤدي غالبا حقوق الناس ولن يتورع عن حرماتهم، وتتقدم في البعض الآخر حقوق الإنسان على حقوق الله من زاوية أن الله غني عن عبادة العالمين لكن الإنسان لا يستغني عن حقوقه الأساسية خاصة ما يتصل بعموم المجتمع من قيم الحرية والعدالة والوحدة والمساواة والعلم والعمل والتفكير والنظام، ومن هذه الآيات الآية الثانية في سورة المائدة والتي يفضي تأملها إلى اكتشاف أنها توجب على المسلمين التعاون مع المشركين على ما يحمي حقوق الناس والتي عنونت لها بمصطلح (البرّ)، وعلى ما يُقدس حرمات الله والتي تعد (التقوى) عنوانا عريضا لها، ونهى المسلمينَ عن انتهاك هذا الأمر بسبب كرههم للمشركين الذين صدُّوهم عن المسجد الحرام وعملوا من قبل على فتنهم عن دينهم، فقال تعالى: ﴿ولا يَجرمنَّكم شَنَآنُ قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البِرِّ والتَّقْوى...﴾ [المائدة: ٢]، والشاهد في الآية هو تقدم حقوق الناس على حقوق الله، مثل قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿فإذا فرغتَ فانصبْ. وإلى ربك فارغب﴾ [الشرح: ٧، ٨]، أي إذا وجدت وقتا غير مملوء بواجب ما من الواجبات العينية المعروفة، فانصبْ في العمل الذي تعتاش منه وتخدم أهلك ومجتمعك من خلاله، واتجه بمناجاتك ودعائك ورجائك إلى ربك، وتقرب منه رغبة في ما عنده في الآخرة، فما في الجنة من النعيم لا يقاربه أي نعيم في الدنيا، وحينما تطلب حسنة الدنيا اجعل نصب عينيك حسنة الآخرة، بحيث لا تنسى نصيبك من الدنيا وتبتغي في ما آتاك الله الدار الآخرة، وهذا هو التعانق الحق بين حق الله وحقوق الناس، مع تقديم حق الناس على حق الله، وخاصة إذا تذكرنا أن العمل المهني هو أوسع الشعب العبادية حركة وأطولها وقتا، حيث يصل في المتوسط إلى ثمان ساعات عمل كل

يوم، ولا توجد أي شعبة عبادية تأخذ هذا الحيز من الوقت كل يوم، بما فيها الصلاة التي يصل متوسط وقتها إلى ساعة وربع تقريبا!

وعلى رأي من ذهب من المفسرين إلى أن معنى الآيتين: «فإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة»، فإن التعانق ما يزال قائما وتقديم حقوق الناس ثابتا في المعنيين!

مقومات الوعي الجمعي(٤)

ـ الإيمان بوجود حساب جماعي يوم القيامة بموازاة الحساب الفردي:

يسود اعتقاد راسخ بين أغلب المسلمين بأن الحساب يوم القيامة حساب فردي صرف، وهذا صحيح من زاوية أن كل إنسان سيسأله الله وحده عن ما اقترفت يداه ولن يسأل غير أو يسأله عن ما اقترفت أيدي غيره، ولن يؤاخذه على ذنوب أحد من الناس ما دام قد أدى ما عليه من واجبات.

وفي ذات الوقت يوجد بجانب الحساب الفردي والكتاب الفردي، حساب جماعي وكتاب جماعي لكل أمة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها..﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، والمقصود بالكتاب هناكتاب أعمالها الجمعية، بدلالة وجود كتاب لكل فرد في العبادات الفردية والذي يأخذه المرء بيمينه أو بشماله، وبدلالة قوله عز وجل في نفس الآية السابقة: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾، أي سيجازيكم الله على أعمالكم المسجلة في هذا الكتاب، ثم إنه عز وجل نسب تسجيل الأعمال إلى نفسه وليس إلى ملائكته؛ حيث قال في الآية التي تليها: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾، وكأنه تعالى بهذا الكلام يعظم خطر الخطايا الاجتماعية؛ لأنها تتسبب بسقوط الأمم والحضارات، وأضاف المولى سبحانه في الآيتين التاليتين للآية السابقة، قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين. وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين﴾ [الجاثية: ٣٠، ٣١]، فكأنه عز وجل حين يذكر أنه سيُدخل المؤمنين وعاملي الصالحات في رحمته، فكأنه يشير إلى أنه سيعفو عن سلوكهم الفردي الذي حال دون تكوين الكتلة الحرجة الضرورية لإقامة الفروض الكفائية موضع التنفيذ، بينما سيؤاخذ الكافرين الذين داسوا على قيم العدل والحرية والمساواة والعلم والعمل؛ لأنهم جمعوا بين الكفر

والإجرام، والإجرام هو النيل من القيم التي تعد مقومات للنهوض الحضاري، وكذا إهدار حقوق الإنسان!

ومما يؤيد هذا الاستنباط أنه تبارك ذكرُه أورد في موضع آخر بأنه يأتي بالشهود على الأمم الواقفة أمام كتب أعمالها الجمعية، وهم النبيون ومن يرثهم من العلماء وخاصة الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل أن تعيش مجتمعاتهم حياة كريمة، كما ورد في قوله عز وجل: ﴿ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾ [الزمر: ٦٩]، ويبدو أن جثيّ الأمم على ركبها والتصاقها بالأرض قرينة أخرى على اقترافها لخطايا التخلف الحضاري الذي جعلها ذليلة خاضعة لمن امتلكوا مقاليد القوة ومقومات الحضارة ممن لم يقعوا في هذه الآفات وإن كانوا غير مسلمين!

ولا شك بأن إبراز مثل هذه الومضة الثاوية في نصوص القرآن الكريم، يزيد من حساسية المسلمين تجاه المبادئ الاجتماعية والقيم الحضارية التي لا يولونها الاهتمام المطلوب، ويخفف من فرديتهم الطاغية، ويساعد في تخليصهم من داء السلبية الملاحظ بشدة في القضايا العامة، ويساعدهم على رؤية الخلل البادي في التمحور حول الخلاص الفردي الذي يتكئ على العبادات اللازمة بشكل أساسي، بحيث يضيف له البحث عن الخلاص الجماعي، مع امتلاك الإيمان بأن الخلاص الفردي لا يتحقق بصورة تامة من دون الخلاص الجماعي !

مقومات الوعي الجمعي(٥)

_ إبراز العداوات الخارجية واستخدام مبدأ المماثلة:

من الأمور التي تنسي البلدان والجماعات خلافاتها الداخلية، استحضار مؤامرات العدو الخارجي، وبلا شك فإن أمة الإسلام تناصبها العداء أطراف متعددة حتى ليمكن القول بثقة بأن «الكفر ملة واحدة»، كما جاء في الأثر، وهذا لا ينفي بالطبع الاختلافات النسبية بين ملل الكفر، ولا يلغي المبدأ القرآني في هذا الإطار والذي يقول عن الكفار وأهل الكتاب بالتحديد: ﴿ليسوا سواء﴾.

ومع أن تعايش المسلمين مع غيرهم أمر مطلوب، ولكن لا يصح أن ينسيهم أحقاد الأعداء، ولا ينبغي لهم أن يغفلوا عن المؤامرات التي تحاك ضدهم والمحارق التي تعد لهم، ويجب استثمار العداوات والحروب التي تهب عليهم من خارج بلدانهم في ردم الفجوات الداخلية بين مكونات المسلمين وصهر الفوارق القائمة بينهم؛ بحيث يصبحون كتلة واحدة بحق ويرصّون صفوفهم، على الأقل في المنطلقات العامة والغايات الكلية التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم وما يمتلكون من ثروات أمام ظاهرة التكالب عليهم التي تعتمل في واقعنا المعاصر بشكل سافر !

ولو أخذنا مفردة القتال وهي منتهى منظومة العداوة، سنجد أن الله يؤكد لنا ثبات العداوة التي يحملها مخالفو الإسلام ولا سيما أهل الكتاب الذين يفترض أنهم الأقرب للمسلمين، فقد قال تعالى عنهم: ﴿ولن ترضَى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ [البقرة: ١٢٠]، وبالطبع فإن حرف (لن) يستخدم في لغة العرب للنفي وهو هنا تأبيدي؛ لأن الخطين الموازيين لا يمكن أن يلتقيا، واتباع المسلمين لملل الكفر مستحيلة، على الأقل بالنسبة للمجموع!

ومن المؤكد أن الأمر ليس مجرد مشاعر قلبية بعدم الرضى عن المسلمين أو بالكراهية

لهم، فإن شعور الأعداء باحتكار الحق والامتلاء بمشاعر الغرور ونشوة القوة؛ يزرع فيهم اعتقادا بإمكانية دفع المسلمين لاتباع ملتهم، عبر الغزو الفكري والعسكري وسائر وسائل الترغيب والترهيب وأساليب الإغراء والإغواء!

ومن هذه الأساليب الاندفاع لمقاتلة المسلمين كلما وجدوا فرصة سانحة لذلك، كما قال تعالى: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، ومن الواضح أن جملة (ولا يزالون) تحمل معنى الديمومة والاستمرار وتؤكد الإصرار والتصميم.

ومع أن أتباع كل ملة يحقدون على أتباع جميع الملل والنحل نتيجة اعتقادهم بامتلاك الحق المطلق؛ فإن الحقد يزداد على الإسلام نتيجة وجود ثلاثة عوامل:

الأول: القوة الذاتية للإسلام والتي جعلته وتجعله قادرا على كسب عقول البشر وقلوبهم واجتذاب أعداد كبيرة إليه منهم، حتى في عصور تخلف المسلمين وسوء تمثيلهم لقيم الإسلام، كما في عصرنا هذا فهو أكثر الأديان انتشارا، كما تقول الأرقام الصادرة من جهات كثيرة، رغم الأوضاع المشينة للمسلمين والتي تشوه صورته!

الثاني: ظهور الإسلام تأريخيا في آخر سلسلة الأديان، بعد الملل والنحل كلها وخاصة الكبيرة، وتوسعه بشريا وجغرافيا على حسابها، فقد قضى على عبادة الأصنام والأوثان في شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا وغربها ووسطها، وأطفأ النار المقدسة عند المجوس إلى الأبد في بلاد فارس وحل محلها، وتوسع على حساب الهندوسية في مناطق شاسعة من شبه القارة الهندية، وانتزع بجهاده الناعم إندونيسيا وماليزيا ومناطق أخرى في جنوب شرق آسيا من البوذية، وانتزع من المسيحية بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا كلها وآسيا الصغرى ومناطق في شرق قارة أوروبا، وانتزع مناطق واسعة في شمال غرب الصين من الكونفوشية، مما جعل القائمين على جميع الأديان يحملون راية العداء للإسلام معتقدين أنهم يثأرون لهزائمهم في الماضي، ويستبطنون شعورا بالخوف من منافس أقوى منهم!

الثالث: الموقع الوسطي والعبقرية الجغرافية، فإن معظم مساحة العالم الإسلامي

تقع في قلب اليابسة التي يستوطنها البشر وفيها ظهرت كبرى الديانات والحضارات، مع سيطرة على أهم البحار والمضائق في العالم، ومن ثم فإن لبلدان المسلمين حدودا ملتهبة بسبب انشداد أولئك إلى الماضي، فالعالم الإسلامي له حدود واسعة مع الهندوسية والبوذية والكونفوشية وهناك حدود تماس أكبر مع العالم المسيحي، أما المجوسية فقد انتهت منذ زمن، واليهودية قليلة العدد لكنها كثيرة الحقد وخاصة بعدما صار أتباعها في عصرنا أكثر نفيرا!

وبالطبع فإن الصراع الأكثر التحاما من الناحية الجغرافية والتاريخية هو مع العالم المسيحي، بحكم عوامل كثيرة من ضمنها أن النصارى والمسلمين أكبر أمم الأرض عددا، ويتنافسان استراتيجيا على صدارة العالم، بجانب أن العالم المسيحي ليست له نقاط تماس مع الأمم الأخرى لا البوذية ولا الهندوسية باستثناء نقاط بسيطة جدا مع الكونفوشية عند الحدود الصينية الروسية، مما جعله يصب أحقاده كلها على الإسلام والمسلمين!

وعن دعوة الإسلام لمعتنقيه إلى استخدام مبدأ المماثلة في القتال الجمعي، قال تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾، وهو رافد جديد للتسلح بالوعي الجمعي.

وفي هذا السياق يؤكد بعض علماء الغرب ومحللون استراتيجيون، أن الغرب بعد سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفييتي والمنظومة الشرقية التي أجبرت الغربيين على الانضواء تحت راية حلف عسكري اسمه حلف شمال الأطلسي، ودفع بالأوروبيين للتوحد، أنه عمل على اختلاق عدو بديل حتى تظل مشاعر الخوف والخطر توفر دافعا للشعوب الغربية للبقاء متوحدة بعيدا عن خلافاتها العرقية والطائفية وثاراتها التأريخية والجغرافية، فتم صناعة البعبع الإسلامي، وأصبح (الإسلام_ فوبيا) عملة رائجة في وسائل الإعلام، وصار الإرهاب معركة عابرة للقارات وخاصة بعد التماهي الشديد مع مخططات الغرب من قبل أغلب حكام المسلمين، والذي جعل الإمبريالية الغربية تزداد طمعا بثروات المسلمين وتعمل بكل جد لقتل أسودهم واستبقاء عملائهم وجبنائهم

كخدام لمشاريعهم مع الإبقاء على صورة شكلية من الاستقلال الزائف!

واستخدم القرآن مبدأ المماثلة حتى في تربيته لأبنائه وحضهم على الصبر وتحمل الآلام والمشاق، فقد خاطب الله صحابة نبيه ومن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة وهو يحثهم على عدم السماح للوهن بالتأثير على إرادتهم: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾[النساء: ١٠٤].

مقومات الوعي الجمعي(٦)

_ إبراز بركة الجماعة:

من يتأمل آيات القرآن الكريم بتدبر خاشع؛ سيجد في مواضع عديدة منه أن الله عز وجل يُشيد ببركة التجمع، ويبارك الجماعة بما يملك من أسباب عالم الشهادة وأسرار عالم الغيب، بجانب عشرات الآيات التي تدعو إلى الوحدة والائتلاف والتآخي بشكل صريح ومباشر.

ومن الآيات التي تُبرز بركة الجماعة قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ [العنكبوت: ٩]، فكيف سيدخلهم الله في الصالحين وهم صالحون في الأصل؟ أوليسوا مؤمنين كما تذكر الآية، ويعملون الصالحات بشكل دائم كما يفيد الفعل المضارع (يعملون)؟!

وفي جواب هذا التساؤل يبدو كأن الله يقول بأنه سيدخل كل فرد في جماعة الصالحين، بمعنى أنه لن يظل الصالح منعزلاً عن الصالحين أمثاله، بل سيصبح خلية في جسم الصلاح الكبير، وهذه إشارة إلى بركة الجماعة، تلك البركة التي تستدعي عطايا ومزايا عديدة وتستجلب أجوراً رحمانية إضافية، إذ أن من خصائص الجماعة في الإسلام تجسيد قيمة الشورى في اتخاذ القرارات ومراقبة الأداء المتصل بعامة الناس، والشورى لها بركة كبيرة وثمار طيبة، ومنها أنها تسمح برؤية الحقائق من زوايا متعددة حتى تبدو مكتملة، وتكفل للجميع المشاركة في صناعة القرار الذي يهم الجمع العام والذي يسميه القرآن الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾[آل عمران: ١٥٩]، وهو الأمر الجامع الذي ينعكس إيجابا أو سلباً على المجموع، ومثلها قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[الشورى: ٣٨]، مع العلم أن الآية الأولى مدنية وتتحدث عن الشورى في الحكم والقيادة، بينما الآية الثانية مكية ووردت في سورة (الشورى)، وتتحدث عن الشورى كقيمة اجتماعية!

وفي هذا المقام يعجبني ما توصل إليه المصلح التركي بديع الزمان النورسي عن بركة الشورى، فقد قال: «إن الشورى الحق تولّد الإخلاص والتساند؛ إذ أن ثلاث ألفات هكذا (١١١) تصبح مائة وإحدى عشرة، فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص. ويخبرنا التأريخ بحوادث كثيرة أن عشرة رجال يمكنهم أن يقوموا بما يقوم به ألف شخص..»!

وهناك آيات تحث على الاستفادة من بركة الجماعة، مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[التوبة: ١١٩]، فلا يكفي المؤمن أن يكون صادقا بل ينبغي أن يكون في جملة الصادقين وأن ينضوي تحت رايتهم الجمعية؛ لأن الله يحب له ما هو أفضل من الأجور، ويحب أن يكون أشد حصانة من شياطين الإنس والجن، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية!

وحينما أرجعت البصيرة كرّتين في قوله عز ذكره:﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، تأكد لي أنه يتضمن دعوة لامتلاك مفردات الائتلاف مع الطيبين، وتتوزع هذه المفردات بين فكرية وسلوكية، وأهمها: الابتعاد عن احتكار الحقيقة المطلقة، التعامل الموضوعي مع المخالفين، الحذر من الإصابة بآفة تورم الذات، تخلية القلب من آفات العجب والكبر.

ويبدو أن بركة الجماعة لا تقتصر على الإنسان بل تتعداه إلى الحيوانات التي ألهمها الله التكتل على شكل قطعان وإلى الطيور التي تحرص على التجمع في هيئة أسراب، فقد كشف العلم الحديث عن أن الطيور التي تطير صافات في أسراب، تستطيع أن تقطع مسافات إضافية لا تقل عن ٧١٪ عما يمكن أن يقطعه الطائر بمفرده، وقدم العلماء المختصون تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة، ولكن ليس مجالها هنا، وما يهمنا في هذا المقام هو أننا وجدنا قرينة إضافية على بركة الجماعة وسط جميع الكائنات، حيث التقليل من الجهد والوقت، والزيادة في السرعة والكفاءة، مع التقليل من مخاطر الطريق، مع العلم أننا نفرق بصورة حاسمة بين الفكر الجماعي وثقافة القطيع، حيث ندعو للأول ونرفض الثاني!

ويواصل القرآن توطين الوعي بأهمية الجماعة والتجمع، في عقول وقلوب قرائه، كما قال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكّرون﴾.

ورغم أن الموضوع الأساسي هنا هو نفي المساواة بين طرفين نقيضين، لكن إحكام الصياغة الإلهية لهذه الآية منحنا فائدة أخرى متصلة بأهمية الوعي الجمعي وما نحن بصدده هنا، فبحسب المتعارف عليه في صياغة المبنى القرآني، فإن الأمر يحتاج إلى مماثلة في المبنى، كما فعل في الجملة الأولى حينما نفى التساوي بين الأعمى والبصير بصيغة المفرد، لكنه في الحديث عن (الذين آمنوا) جاء بصيغة الجمع مقابل مفردة (المسيئ)، وكأنه بذلك يقول إن المؤمن الحق لا بد أن يستظل تحت راية الجماعة المؤمنة حتى يستفيد من ظلها ويستقوي بريحها!

مقومات الوعي الجمعي(٧)

_ تدبر القرآن الكريم:

من يتأمل حقيقة التدبر في القرآن الكريم فسيجد أن له دورا مؤكدا في انسجام شخصية المؤمن وتكاملها: عقلا وقلبا وروحا وجسما، وانسجام الشخصية يلعب دورا أساسيا في أن يصبح المرء ذا وعي جمعي وصاحب شخصية وحدوية، وبالعكس فإن من تفرق شمله وانفصمت جوانحه لا يمكن أن يكون خلية حية في جسم أمته؛ ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه، كما يؤكد المنطق العقلي.

وإذا أردنا توضيح هذه الحقيقة فسنقول بأن الإنسان كائن يحتوي على الكثير من التناقضات؛ نتيجة خلقته المزدوجة من مكونين مختلفين هما التراب والروح مع تعدد العناصر الداخلة في مكون التراب. وإن لم يخضع لتعاليم الخالق كافة فإن أفكاره وأفعاله ستشهد الكثير من التناقض والتباين وقد تصل إلى التصادم والتآكل التامين، فيتفرق شمله وتتمزق فاعليته.

ولا يمكن أن يخلو الإنسان من مفردات التناقض ما لم يستوعب المنهج القرآني بكامل مكونات جهاز الوعي الذي منحه الله إياه، فإنه وحده الكفيل بصهر التباينات الناتجة عن وجود استعدادات الفجور وملَكات التقوى في تركيبته البشرية المزدوجة، وهو القادر أيضاً على وصم شخصيته بالانسجام والاتساق. لكن القرآن لا يحقق هذه الغاية تلقائيا ويحتاج ممن يقرؤه أن يتدبر آياته؛ كما قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ [النساء: ٨٢]، فإن كلام البشر يظهر فيه الاختلاف نتيجة التناقضات الثاوية في تركيبته العضوية والثقافية، وتغير مزاجه بتغير الظروف التي كتب فيها!

وبالتدبر المنضبط بالمنهج النبوي فإن القارئ يلاحظ التشابه اللغوي والتكامل المعرفي

في القرآن؛ مما يسهم في صهر التباينات الثاوية في تركيبته الفردية، وإظهاره في مظهر الشخصية المنسجمة التي تتناسق أبعادها وتتسق مكوناتها بطريقة سلسة ومنسابة، مما يجعله صاحب فاعلية عالية في الحياة مهما يكن الثغر الذي يرابط عنده في صروح الحياة.

وسنظل نؤكد من غير كلل أن تّدبُّر القرآن وفق الضوابط المعروفة، طريقٌ موصل إلى توحُّد المسلمين، فمن يتدبر الآيات التي ورد فيها مصطلح التدبر سيلاحظ فيها أمرين:

الأول: أنها جاءت بصيغة الفعل المضارع الذي يفيد الديمومة والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿أفلا يَتدبَّرون القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أقْفالُها﴾ [محمد: ٢٤]، وهذا يعني أن المرء كلما غفل عن التدبر وقع في سوء الفهم وظهرت في ذاته آفة الاختلاف.

الآخر: إسناد فعل التدبر إلى جمع المذكر السالم، كقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ لِيَدَّبَّروا آياته وليتذكّرَ أولوا الألباب﴾ [ص: ٢٩]، مما يَشي بأن التدبر يستطيع كشف عوامل الالتقاء وإبراز قواسم الاشتراك، ويستطيع اجتثاث عوامل الفُرقة وأسباب النزاع، ولذلك قال سبحانه: ﴿أفلا يَتدبَّرون القرآنَ ولو كان من عندِ غيرِ الله لَوَجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢]، ومن ثمّ فإننا عندما نَحْتسي رحيقَ التدبر فإننا نتخلَّص من ظمأ الفُرْقة!

وزبدة القول إن الفرد لما كان خلية في جسم الأمة أو لَبنة في جدارها، فإن تكامل عقله وقلبه، واستقامة جوانحه وجوارحه، علامةٌ فاصلة على أن تَوحُّد الأمة صار يسيراً جدا.

ومن المؤكد أنه لا ضمانة لتحقق هذا الأمر مثل تدبر القرآن، فإن حضور المَدارك في القراءة يملأ العقل بمشتركات الاتحاد، وإن انْسكاب موجات الخشوع على شغاف القلب يملؤه بدوافع الائتلاف.

مقومات الوعي الجمعي(٨)

_ استيعاب خارطة الثوابت والمتغيرات:

أعتقد أن أهم خصائص الإسلام بعد الربانية هي جمعه المتسق بين ثبات الأصول والكليات والمقاصد وبين مرونة الفروع والجزئيات والوسائل؛ ذلك أن هذه الخصيصة ثمرة لتمازج النقل والعقل، النقل الذي تنهمر منه أصول الهداية الموصلة للناس إلى سواحل التقوى، والعقل الذي يجيد تنزيل نصوص النقل على الوقائع بما يضمن تحقيق مصالح الناس ومراعاة الفروق الفردية والأعراف الاجتماعية بينهم. وبذلك التمازج يتم الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

وبخصيصة الجمع بين الثبات والتغير يمتلك المجتمع جناحي الوحدة والحرية اللذين يحلق بهما في سماء الفاعلية، الوحدة التي تتحقق عبر الالتزام الصارم بالثوابت، والحرية التي تسمح للمتغيرات بالانبثاق التلقائي فيجتهد المجتمع في كل جديد أو يقتبس ما يناسب تكوينه وظروفه ومصلحته!

وقد أثبت استقراء الوقائع في حياة المسلمين أن أحد منابع الضخ للتفرق في واقعهم هو الخلط بين الثوابت والمتغيرات؛ فقد تأكد بأن محاولة التوحد في المتغيرات من أسباب التفرق، مثلما أن التعدد في الثوابت منبع للتفرق الذي يوقع أصحابه في عذاب التخلف والهوان وانطفاء الفاعلية الحضارية، فضلا عن العذاب الأخروي.

وفي إطار هذا الخلط وجدنا مسلمين يعتقدون أن قوة المسلمين تكمن في وحدتهم التي تلغي ما يوجد في واقعهم من مذاهب فقهية وتيارات فكرية وطرق صوفية وأحزاب سياسية، وتجعلهم قوالب متشابهة، وهذا الإلغاء غير سليم ولا ممكن، فإن التعدد من سنن الله والتنوع ثراء كبير وقوة خارقة!

وقد ضرب الله لنا مثلاً على هذا الأمر من الطبيعة بالأزهار التي تختلف ألوانها وتتعدد

روائحها ويتنوع رحيقها، لكنها عندما تمتزج في بطون النحل تصير مادة أخرى ذات خصائص فريدة وثمار مفيدة، ويمكن عَنْوَنة هذه الثمار بالعسل الذي يتضمن الشفاء للناس، حيث يُقوّي أجهزة المناعة في أجسام الآدميين ويجعلها عصية على الأمراض وعوامل الوهن، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَخرُج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩]. وقد أجريت تجارب كثيرة على العسل فوُجد أنه أقوى عنصر لتقوية المناعة، بسبب التنوع الآتي من كل الأزهار والثمار!

وقد يستغرب بعض القراء من ضرب مثَل العسل في مقام الحديث عن أهمية التعدد في مجال المتغيرات، والجواب بأن لهذا المثل القرآني غاية فكرية مخفية بجانب الفائدة المباشرة، فقد ختم الله الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون﴾، والتفكر سيقود إلى الاعتبار والاستفادة من درس التعدد الممتزج والمنساب نحو تحقيق نفس الغاية، وهذا يحتاج من المسلمين إلى مؤسسات ومراكز بحثية تقوم بدور النحل في اقتناص الرؤى والأفكار النافعة من أفواه وأقلام أصحاب الحكمة والخبرة، مهما كانت انتماءاتهم الدينية والطائفية والمذهبية والفكرية والسياسية، ثم تتولى مزج هذه الأفكار والرؤى بمقادير دقيقة في بطون التشارك والتشاور والتثاقف الذي يظهر الحقائق كاملة دون أن يفسد الأخوة والمودة، ثم يخرج منها رحيق الفكر الذي يمنح أمتنا النفع والقوة والفاعلية!

وفي هذا المضمار أخبرنا القرآن الكريم أن طاعة الله ورسوله لا تكفي للإبقاء على جماعة المسلمين موحدة، مع أن اعتناق الجميع للثوابت التي جاء بها الله ورسوله يمثل أساسا متينا للوحدة المطلوبة، لكن المتغيرات إن لم تُضبط عبر نظام صارم ومشاورة منظمة، فإنها ستصير سبباً للتنازع الذي يجلب الفشل ويتسبب بذهاب الرّيح، ومن هنا فقد ورد قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولعدم إدراك بعض متديني عصرنا للتفاعل الواجب مع الثوابت والمتغيرات، فقد وجدناهم يُطبِّقون الأمر الوارد في الآية السابقة ولا يلتزمون بالنهي؛ مما جعلهم سبباً

لتفرق جماعاتهم ومجتمعاتهم، عَبْرَ احتكارهم للحقيقة وتَملّكهم للحقّ، وعَبْرَ رفضهم للمشاورة وإصرارهم على تمضية آرائهم بحسبانها الحق الذي ليس بعده إلا الضلال!

وقد يتساءل أحدنا فيقول: لماذا استخدم الوحي فعل الأمر في الحديث عن وحدة الثوابت، وصيغة النهي في حديثه عن التنازع على المتغيرات؟

ويتبدى لي في الجواب أن الثوابت محل قبول وتقدير كل من يمتلك الحد الأدنى من الإيمان؛ لأنها واردة بنصوص قطعية، والاختلاف حولها ضعيف الورود، ومن يصر على شذوذه سيقف الجميع ضده نتيجة إيمان عامة المؤمنين بقداسة الوحي.

أما في المتغيرات فإن التعدد مؤكد والاختلاف ضروري، وهنا قد تختلط الدوافع العبادية النقية بالدوافع الذاتية السقيمة، ومن ثم فإن حضور الشخصانية وعدم الفقه بالمقاصد، مع غياب فقه الخلاف وآداب الحوار، قد يتضافران في نقل الاختلاف إلى دائرة التنازع المُفسد للقلوب والمُذْهب للرّيح، فجاء النهي الحاسم عن التنازع والتحذير من أضراره!

مقومات الوعي الجمعي(٩)

_ تطهير القلوب من أسباب التفرق والتنازع:

أثبتت أحداث الزمان أن شياطين التحريش مهما أوقدت من جَذَوات الشقاق ونيران الخلاف بين المسلمين، فإنها تظل بدون استعار أو تأثير، ما لم تتوافر قابلية الاشتعال عند المستهدفين، وتتمثل هذه القابلية في إصابة القلوب بالمرض أو بالقسوة، وحينئذ فقط تستطيع وساوس الشيطان أن تشعل نيران الفتنة وأن تلتهم مشاعر الود والحب وأن تصنع مساحات متصحرة وفجوات مهلكة بين الإخوة.

وتأملوا معي قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، لتروا مصداق ما ذكرته آنفا، وتؤكد الجملة الأخيرة من الآية أن الظلم يتسبب في شقاق بعيد الغور كتشققات الأرض، ثم إن الظالمين يَسْبحون في لُجَج الشقاق والتمزق!

ومن أسوأ علل العقول والقلوب احتكار الحقيقة المطلقة، فهي تجعل المرء يخدع نفسه أولاً ثم يتحول إلى معول لهدم صرح مجتمعه وأمته ثانيا، وبلا شك فإن أخطر أصناف الخديعة هي خداع الذات؛ لأنها تمنح الإنسان وثوقية عالية في أنه على الحق المبين، وتجعل الإفاقة منها بعيدة المنال، وقد وصف الله أصحاب هذه الخديعة بأنهم ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ونبّأنا الله على سبيل التحذير بحال الأخسرين أعمالاً، فوصفهم بأنهم: ﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾.

ولكي لا نخدع أنفسنا ينبغي أن نتسلح بأبصار العلم وبصائر الإخلاص، ولنلاحظ كيف تكررت كلمة (يحسبون) هنا، وهي تعبير مخيف عن حالة الانخداع التي يعانون منها؛ نتيجة اعتقادهم بامتلاك الحقيقة المطلقة وجزمهم اليقيني بأنهم على الحق الذي لا يتطرق إليه شك!

وهناك آفات وعلل قلبية عديدة تتسبب في تمزيق الأواصر والتفريق بين الأحبة، ومنها العجب والغرور والكبر والحسد وغيرها.

ولقد منّ الله على العرب، بحكم أنهم أمّة الشُّهود على الأمم، بأن أرسل لهم نبيا من أنفسهم حوّلهم من أعداد متنافرة إلى جماعات متضافرة، ومن كيانات عصبوية متباينة إلى تجمعات واسعة ومتعاونة، فقال تعالى: ﴿لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذْ بَعثَ فيهم رسولاً من أنفسِهم يتلو عليهم آياتِه ويُزكّيهم ويُعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مُبين﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فقد كانوا يعيشون في غياهب الضلال، ومن أهم أعراضه انعدام الوَعي الجَمْعي وطغيان الحِسّ العصبوي الذي ينحو بهم منحى التمزق والاقتتال لأتفه الأسباب، مما جعلهم لُقمةً سائغة للأمم التي تحيط بهم، ولاسيما الفرس والرومان!

_ ترميم صفوف المسلمين بإسمنت الولاء والبراء:

من المعلوم أن قضية الولاء والبراء متصلة بتوحيد الله عز وجل، ومن مجاني التوحيد أنه يمنح الإنسان شعورا عميقا بمَعيّة الله التي تورث المؤمنين التآلف والاتحاد، كما قال تعالى: ﴿هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين. وألَّف بين قلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيزٌ حكيم﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فإن هذا التأليف هو ثمرة توحيد الله وعبادته في سائر مجالات الحياة.

ومن صفات المجتمع المؤمن أنه يستظل تحت راية الاتحاد والوحدانية، وبهذا فقط يستحق تنزل رحمة الله عليه، كما قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة: ٧١]. ونلاحظ أن الآية قدّمت الاتحاد المُشار إليه بالتوالي، على الوحدانية المشار إليها بطاعة الله ورسوله، وبذلك فإنها تلفت النظر إلى الأهمية البالغة للوحدة في صناعة القوة وتحقيق الحرية والكرامة.

ولما كان المنافقون أداة من أدوات تمزيق الوحدة وتشويه الوحدانية؛ فقد شنّ عليهم

القرآن حرباً شعواء، وخاصةً بعد هذه الآية من سورة التوبة والتي أطلق عليها المفسرون اسم (الفاضحة) للمنافقين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يُردَّون إلى عذاب عظيم﴾ [التوبة: ١٠١]. ومردة المنافقين هم الذين بلغوا شأواً بعيداً في النفاق، ولذلك فإن الله يُصْليهم عذابين، الأول مقابل ما مزّقوا من الوحدة والآخر جزاء ما شوَّهوا من الوحدانية.

مقومات الوعي الجمعي(١٠)

_ ربط قيمة الذُّل بالعزة:

جاء في وصف القرآن للمؤمنين قوله تعالى: ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين..﴾ [المائدة: ٥٤]، وكأنه تعالى يشير بهذا الربط بين مشاعر الذلة والعزة، إلى أن طاقة الذل عندما تنصرف وسط المؤمنين، فستذهب طاقة العزة نحو الكافرين بالضرورة، والعكس صحيح، مع التذكير بأنه حتى في العلاقة مع الكافرين فإنه لا يجوز الكبر والغرور عليهم، إلا وقت الحرب نفسها وضد المحاربين كصورة من صور الحرب النفسية كما قال ﷺ عن مِشْية الصحابي أبي دجانة رضي الله عنه في غزوة أُحُد التي كان فيها قدر من التبختر والخيلاء: «هذه مِشية يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع»!

والعزة فضيلة تقع بين رذيلتي الكبر والمهانة، وفي الآية إشارة إلى أن المجتمع الذي يتخلى عن هذه القيم المتلازمة سيخسر مكانته لصالح غيره من الأقوام، ولذلك ختم الله الآية بفاصلة فيها إيماء إلى هذه الحقيقة: ﴿ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾. وبالطبع فإن مشيئة الله لا تظلم أحدا لأنها لا تنفصم عن إرادة الإنسان ولا تتجاوزها، وهذا منتهى العدل الإلهي.

_ تجفيف منابع الفردية الطاغية وإطلاق التربية الشخصية:

يؤكد علماء الاجتماع أن الفرد يختلف عن الشخص، فالفرد يحب الانفراد بنفسه وقد تتورم ذاته فتجعله يؤثر العيش بعيدا عن الآخرين، وإذا اختلط مع الناس فإنه يشعر بالكبر نحوهم ويمارس الاستعلاء ضدهم، بينما الشخص كائن اجتماعي يملك الاستعداد للائتلاف مع أبناء المجتمع الذي يعيش في وسطه!

ولأننا نريد الفاعلية في الكائن الآدمي فإننا بحاجة إلى الجمع في تكوينه بين بعض الخصائص الفردية وبالتحديد التي تجعله متميزا عن الآخرين بمواهبه وقدراته، وبين

الخصائص الشخصانية التي تجعله مثل الآخرين في استعداده للاندماج مع الآخرين والإسهام في تكوين صرح المجتمع الخالي من الثقوب والثغرات!

وحينما نتدبر الآيات ذات الصلة بالمؤمن الصحيح في ذاته فإننا نجده متصفاً بمزيج من الصفات الفردية والاجتماعية؛ بحيث ينهمك في تأسيس ذاته وتنضيج عقله وتزكية نفسه، وفي ذات الوقت فإنه ينفتح على الناس ويتوسع في خدمة مجتمعه ما استطاع إلى ذلك سبيلا!

ونجده يعتز بذاته ويعرف قدر نفسه لكنه يذل لأبناء دينه ويضع جناحه لأقاربه وللضعفاء من الفقراء والمساكين وذوي الإحتياجات الخاصة!

ومن ثم فإننا نحتاج إلى تعميق التفكير العقلي الذي يجعل الفرد متميزا عن الآخرين، وإلى ترسيخ التشابه القلبي الذي يجعله مندمجا مع الآخرين، ولقد منّ الله على المؤمنين بتأليف القلوب فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم﴾ ولم يقل (بين عقولكم)، وهذا يعني أن الكائن الفاعل هو الذي يجمع بين بُعد عقله عن الناس وقُرب قلبه منهم!

_ توريث همّ الأمة للأجيال:

من يعرف طبيعة الإيمان كما يتبدى عند تدبر القرآن، فسيتضح له بأن المؤمنين حقاً يجعلون من أنفسهم آنية يملأونها بهموم الأمة أولاً وبهموم أنفسهم وأهاليهم ثانياً، ذلك أنهم يعلمون أن الآخرة خير لهم من الأولى، وأن الله خلقهم للابتلاء والعبادة، بحيث يحرصون أن لا تصير الدنيا أكبر همّهم ولا مبلغ علمهم ولا غاية رغبتهم، بعكس غير المؤمنين الذين تمسي أنفسهم غاية في حد ذاتها، كما قال تعالى عن بعض هؤلاء: ﴿وطائفة قد أهمّتهم أنفُسُهم ...﴾. ومن أهمّتهم أنفسهم لا يتورعون عن استحلال حرمات بقية الخلق أو بعضهم، ولا يترددون عن الانسلاك في أي طريق يحقق لهم رغائبهم، وهذا منتهى الأنانية!

وعكس الأناني هو الشخص الاجتماعي الذي يعيش لمجتمعه، والاجتماعية درجات

وما يزال المرء يعتلي درجات الاجتماعية حتى يصل إلى الذروة ويصير أمّة!

ومن المعلوم أن الله تعالى قد وصف خليلَه إبراهيم عليه السلام بأنه أمَّة وحدَه، ولو تأملنا سيرته ومسيرته وفحصنا تصوراته وتصرفاته؛ لوجدنا أنه كان أمّةً في أخلاقه وخلاله الشاملة، وأمّةً في أبعاد شخصيته المتكاملة، حتى كادت بشريته أن تضمحل، ثم إنه كان يَحمل هَمّ الأمة بين جوانحه الإنسانية الواسعة، ليس الأمة الأفقية التي تعيش في عصره فقط، ولكن الأمة الرأسية التي ستأتي من نسله إلى قيام الساعة، ولقد أذكى اهتمامه بأمته هِمَّتَه، فظهر في أقواله وأفعاله بل وفي دعائه، ومن ذلك توجهه إلى ربه مع ابنه إسماعيل قائلين: ﴿ربَّنا واجْعَلنا مُسْلِمَين لَكَ ومن ذُرِّيَّتنا أمّةً مُسلمةً لك..﴾ [البقرة: ١٢٨]، وبالطبع فإن ابن الأمّة المسلمة هو الذي ينطلق من تصوراتها ويتخلَّق بأخلاقها، وتمتلئ جوانحه بآمالها، ويتسلح بهمّته لرفع همومها، بحسب إمكاناته وما يمتلك من درجات الوسع.

وهو نفس الهمّ الذي جعل حفيده يعقوب عليه السلام حينما أزفت ساعة موته يجمع أبناءه ليتأكد من توطن أساس الأمة في قلوبهم؛ وهو عبادة الله الذي يجعلهم يدورون جميعا في نفس الفلك مستسلمين تماما لأوامر الله ونواهيه، فقال لهم، كما ذكر القرآن: ﴿ما تعبدون من بعدي...﴾ [البقرة: ١٣٣].

من شمائل الرجال

_ إقامة الصلاة:

من المعلوم أن عشرات الآيات ذات الصلة بالصلاة تأمر المؤمنين دوما بإقامة الصلاة وتصفهم بإقامتها وليس بأدائها، وهذا مطرد في كل المواضع التي ورد ذكرها فيها، ذلك أن الأداء يعتمد على الأركان والشروط المادية، بينما تتطلب الإقامة بجانب ذلك شروطا وأركانا معنوية تتمثل في حضور العقل وخشوع القلب؛ بحيث ينهمر زاد التقوى على القلوب فتزرع مشاعر معية الله التي يشعر بها المؤمن في كل آن، وتنتصب كدولة لله تحكم صاحبها في محراب الحياة، وتتخذ من القلب عاصمة لها!

ومما يؤيد ذلك أن الله بعدما ذكر صلاة الخوف التي تكون أثناء التقاء جيش المسلمين مع جيش العدو في أرض ما، قال سبحانه بعدها: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جُنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ [النساء: ١٠٣]، وكأن أمره تعالى بالذكر الكثيف بعد صلاة الخوف هو تكميل لما نقص من مشاعر المعية بسبب حالة الخوف من العدو والحذر من غدره، وبعد الخروج من حالة الخوف وحضور الطمأنينة فإن الله يأمر بالعودة إلى الأصل وهو إقامة الصلاة، وكأنه يقول إن صلاة الخوف التي تنقصها بعض الشروط والأركان المعنوية ليست إقامة وإنما أداء وإسقاط واجب اقتضته ظروف الخوف والحرب!

_ المرونة وسعة الأفق:

إن صراط الله الموصوف دوما بالمستقيم، يتسم بسعة المساحة والدأب في الحركة من أجل استيعاب المتغيرات، ولا يكف عن التطور حتى يستفيد من كل جديد في عالم الأفكار والوسائل ولو جاءت من عند غير المسلمين، فإذا ضاق أو تجمد أو تقادم، انتقلت أعداد كبيرة من المحسوبين على الإسلام إلى سبل الجحود والنكران أو الجمود والتطرف، ولا

سيما أن هذه السبل زاخرة بكثير من وسائل الإغراء والإغواء.

والآن تأملوا معي قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله..﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وركزوا على عبارة (فاتبعوه)، فكيف نتبع طريقا من المفترض أنه ثابت لا يتحرك؟ وبعد أن تأملتم الآية بتأنٍ ألا تجدون ما ذكرته في الأعلى ضمن ظلال هذه الآية؟!

_ التحفيز على التسامح:

بالتدبر الأمثل للقرآن يتضح أن الله قد حفّز عباده على التسامح مع خلقه بصور عديدة من التحفيز التي تدفعهم للتسامح مع غيرهم، ومن ذلك ما أخبر الله بأنه عز وجل يجازي بالعفو على العفو وبالصفح على الصفح، كما قال تعالى: ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾ [النساء:١٤٩]، وأتبع صفة العفو بصفة القدرة ليزيل من الأذهان كل شك وريب قد ينشأ وليجيب عن كل سؤال قد يطرأ، وبالطبع فإنه لا مقارنة بين عفو وعفو، فقد يعفو الله عن خطيئة كبيرة لواحد من عبيده لأنه، أي عبده، عفا عن خطأ وقع فيه واحد من بني الإنسان، مع التذكير دوما بأن الله يتسامح في حقوقه تعالى خارج نطاق الشرك، ولا يتسامح في حقوق الناس بتاتا.

شمائلُ المخبتين!

_ معادلة الإخبات:

ذكر القرآن الكريم أن القلوب المريضة والقاسية تمثل بيئة خصبة لشبهات الفتنة التي يلقيها الشيطان [الحج: ٥٣]، وانتقل للحديث عن المؤمنين الذين يمثلون النقيض للكافرين، فقال عنهم جلّ ذكرُه: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ [الحج: ٥٤]، فالذين يملكون حظا من العلم النافع في أي من حقول المعرفة، حينما يقرؤون القرآن بروية وتدبر يعلمون أنه بكماله وجماله لا يمكن أن يكون إلا كلام الله صاحب العلم المطلق والقدرة التامة والحكمة التي لا منتهى لها، وهذه بعض معاني كلمة (الحق من ربهم)، ويقودهم العلم بأن القرآن حق إلى الإيمان به كمصدر للهداية والتوجيه، وهذا يقودهم بدوره إلى امتلاء القلوب بالإخبات للقرآن، وهو الخضوع والتذلل والانكسار والانقياد لكل ما يقوله، مما يمنحهم زاد الاستقامة الدائمة في سائر الأقوال والأفعال وفي شتى ميادين الحياة.

وهكذا فإن الإخبات ينطلق من تدبر القرآن وينتهي بالمسارعة إلى تطبيقه في كل زوايا الحياة الفردية والاجتماعية.

_ القلوب السليمة:

أوضح الله أهمية عبادات القلوب وخطورتها في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وصاحب القلب السليم هو من تتوافر له هذه الخصال:

١_ أن تكون إرادته بقوة إيمانه بالله وعلى قدر يقينه بموعوده، وهذا يقتضي خلو القلب من شرك الأنداد. والأسباب

٢ _ أن يكون قلبه خاليا من الضغائن والأحقاد والحسد على ما منح الله غيره من فيوضات عطائه المادي والمعنوي، الدنيوي والأخروي.

٣ _ أن يخلو قلبه من حب ما عدا الله، ذلك الحب الذي يجعله يسير في فلك الحبيب ويجعل كل ما سواه سبباً للوصول إليه ووسيلة لاجتلاب مرضاته واجتذاب رحمته، ولا نقصد بالحب العاطفة الطبيعية التي لا تحولك إلى عابد للمحبوب.

٤ _ أن يزخر قلبه بالخوف من الله وإجلاله وتعظيمه والرهبة بين يديه، ويخلو من الخشية لغيره، بحيث يطمئن قلبه إلى أن من يملك أنفاس الحياة وأسباب الرزق هو الله، وأن كل من عداه وما عداه لا يملكون ضراً ولا نفعا لأحد من الخلائق.

٥ _ أن يمتلئ قلبه بالرضى التام عن الله في ما منح وما منع، وأن يؤمن بأن الله يحب له ما هو أصلح وأنفع، وأن يدفعه الإيمان بالأقدار إلى أن لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أعطاه.

_ صفات المخبتين:

في إطار حديث القرآن عن شعائر الله ومناسكه في سورة الحج ورد قوله عز وجل: ﴿وبشّر المخبتين﴾ [الحج: ٣٤]، ثم افتتح آية جديدة أورد فيها تعريف المخبتين من خلال تعداد أبرز شمائلهم ومآثرهم، فقال عز من قائل: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الحج: ٣٥]، ونستنتج من هذه الآية أن الإخبات ليس مجرد شعور يملأ القلب بالوجل بل هو منظومة كبيرة تتضمن سائر مقومات التقوى. ولكن لماذا نقل مصطلح الإخبات من منطقة المشاعر التي تسكن القلب إلى منطقة الأفعال العبادية الشاملة في محراب الأرض؟

يمكن اختزال إجابة هذا السؤال بالقول بأن الإخبات يخلق الدافع القوي للتخلق الحسن، والصبر الجميل، والعمل الصالح، ويحث على إقامة الصلاة بأركانها المادية والروحية وهي عنوان لحقوق الله، وعلى إعطاء الزكاة ومد اليد بالصدقات بطيب نفس ومن دون منٍّ أو أذى، وهي عنوان لحقوق الإنسان!

نفائسُ التقوى

_ فرقان التقوى:

لما كان التزام الاستقامة على صراط الله أمراً عزيزا بسبب دقة متطلباته؛ فإن المسلم يدعو الله في كل ركعة من ركعات جميع الصلوات بقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، سواء كانت الصلوات مفروضة أو مسنونة، غير أن الدعاء الذي تضمنته الفاتحة لا يجدي وحده شيئا ولو رددناه مليون مرة؛ إذ أن التزام الاستقامة في الأقوال والأفعال وفي البواعث والمشاعر، يحتاج إلى فقه عقلي واع وبصيرة روحية نافذة، ويحتاج إلى إخلاص القلب وشفافية الروح وقوة الجوارح حتى يتم الاستمساك بكل تعاليم الإسلام بقوة.

وقد دلنا القرآن على العمل الذي يمنحنا بوصلة السير المستقيم وهو التقوى، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ [الأنفال: ٢٩]، حيث تتولى التقوى محو ما مر من الذنوب وتمنح صاحبها البوصلة أو الفرقان الذي يهديه إلى الصراط المستقيم في كافة أحواله، فيصبح راشدا في أفكاره ومسددا في أقواله وموفقا في أفعاله.

_ استثمار التقوى:

أخبر الله تعالى بأن المخلوقات الكونية سواء كانت حية أو جامدة، بجانب وظائفها المادية المسخرة للإنسان فإنها تنتصب كمعالم على طريق الهداية، حيث أن التفكر الواعي فيها يؤدي إلى الاستزادة الإيمانية وامتلاك مقاليد اليقين بأن خلف هذا الكون خالقا يمتلك الإرادة والقدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفات الكمال والجلال، فقال عز من قائل: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ [يونس: ٦]، فالآيات هنا هي مخلوقات مرئية في هذا الكون يراها جميع الناس، فلماذا خص الله المتقين بالذكر هنا؟

لأن المتقين هم من يستطيعون استثمار هذه الذخائر الكونية في تقوية إيمانهم ويقينهم بوجود الله ووقوفه خلف هذه الموجودات ووراء التنظيم الصارم لحركة الكائنات كلها من دون تضاد أو تصادم.

_ اكتساب معية الله:

من يجتهد في أن لا يراه الله حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره، فإن الله يكون معه دوما في كافة أوضاعه، فلا يضعف أمام المغريات وزينات الدنيا ولا ينهزم أمام المخاوف ومؤامرات الأعداء، كما قال عز من قائل: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾، ويمنحه الشعور بمعية الله الشجاعة والجسارة فيُقدم ولا يحجم في مواقف الجهاد الناعم والخشن، ويمنح فائض المال للمحتاجين ولا يخشى الفقر؛ إذ لا يفارقه الإيمان قط بأن البشر لو اجتمعوا كلهم على أن ينقصوا من عمره أو رزقه شيئا يسيرا لا يستطيعون!

ولمعية الله في الحياة تجليات كثيرة نفسية ووجدانية ومادية، وقد استخدم الله هذا الإغراء في دعوة المسلمين للتقوى، فقال عز من قائل: ﴿فاتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[البقرة: ١٩٤]، أي ابذلوا كل جهودكم لتجسيد حقيقة التقوى في كل شؤون حياتكم مع استحضار العلم بأن الله يقف دوما مع المتقين، حتى يكون هذا العلم مدداً للصبر وزاداً للسير المستقيم.

_ الوقاية من الخطايا:

قال تعالى على لسان مريم حينما جاء الملك على شكل بشر ليمنحها غلاما: ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾[مريم: ١٨]، أي إن كنت تقيا فإني أستجير بالله منك وأذكّرك بعظمة الله وعقابه الأليم لمن عصاه، وهذا يؤكد لنا أن التقوى تحضر مع المؤمن فتحجزه عن ظلمه وعصيانه المنبعثين من طبائع التراب، وتزيد من شفافيته الروحية ورقيه القيمي وسلوكه المستقيم.

ذخائر الحرية

_ الهداية الاختيارية:

إن الذين يسيرون في طريق الضلال ويغرقون في لجج الغواية، متعللين بأن الله لم يهدهم بعد وأنهم ينتظرونه حتى يمد لهم يد الهداية، إنما يغالط هؤلاء الجبريون أنفسهم بل ويسخرون من الله وتعاليمه التي أوضحت أن أسباب الهداية بيد الإنسان وأنه ما لم يقرع باب الهداية فلن ينفذ إلى بهوها العظيم، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ...﴾[يونس: ٩]، فإن الله هو من يهديهم ولكن بإيمانهم، بما يعني أنهم اجتهدوا في الأخذ بأسباب الهداية فمنحهم الله النتيجة؛ ذلك أن الإيمان الذي يستوطن القلب إنما هو ثمرة للتزاوج بين التفكير العقلي والتأمل القلبي!

_ بين الكسب والاكتساب:

يقرر المولى عز وجل بوضوح تام أن للنفس البشرية ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ويؤكد مصطلحا الكسب والاكتساب حضور الاختيار الذاتي، بما يعني أن الحرية والقدرة مناط التكليف، وأنه لا ثواب ولا عقاب على أمر جاء خارج دائرة الاختيار أو فوق درجة الاستطاعة، كما في آخر آية من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا برهان آخر على أنه لا مكان للجبرية في الإسلام وأنه دين اليسر وعدم التكلف، وأن المبدأ الذي يقوم عليه في هذا السياق هو ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾، وأن كل ما يحمل الإنسان فوق طاقته فليس من الإسلام في شيء وإن تلفع بأرديته وتلفظ بكلماته ورفع شعاراته!

_ مشيئة الهداية أو الضلال:

من المعلوم يقينا أن الله صاحب العدل المطلق، وأن الاختيار مناط التكليف ومعيار الثواب أو العقاب، فلا ثواب لعمل صالح تم عمله كرها وكذا بالنسبة للعمل الفاسد.

ومشيئة الإنسان هذه في اختيار الهداية أو الضلال، الاستقامة أو الانحراف، الصلاح أو الفساد، الإيمان أو الكفر، لا تتعارض مع مشيئة الله تعالى المطلقة وقدرته اللامحدودة في أن يقول للشيء كن فيكون، كأن يجعل البشرية كلها أمة إيمان أو أمة كفر، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ [النحل: ٩٣]، فهو عز وجل بعدله الكامل يراعي إرادة البشر فيضل من يشاء الضلال ويجترح أسبابه منهم، ويهدي من يشاء الهداية ويعاقر أسبابها أيضا، ويؤكد هذا المعنى ختام الآية الذي يقول: ﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾، أي سيسألكم الله يوم القيامة عن كل عمل عملتموه بملء إرادتكم وبمحض مشيئتكم!

أرباح الإيمان!

_ رأسمال الإيمان:

من الحقائق التي تشكل بنيان المنهج القرآني أن ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ [الطور: ٢١]، وأن نصب الموازين في يوم القيامة وعملية الحساب كلها إنما أوجدها الرحمن ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾[إبراهيم: ٥١]، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا.

وورد في القرآن الكريم أن أهم استثمار لجني الأرباح الرافعة للدرجات في الجنة هو الإيمان، قال تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربكلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فالعمل والكسب في الدنيا، وحينما تطلع الشمس من مغربها أو تغرب روح الإنسان ينتهي العمل والامتحان وتبدأ مرحلة الحصاد والحساب.

ويتضح من الآية أن الإيمان أكبر رأسمال يمكّن الإنسان من جني الأرباح في المعاش والمعاد، فجملة ﴿أو كسبت في إيمانها خيرا﴾، تشير إلى اكتساب الأعمال والحسنات من الإيمان، وقد جاءت كلمة خيرا نكرة لتعم كل خير وتستغرق كل نفع، مما جاءت الشريعة لتحصيله دون تفريق بين مادي وروحي أو ديني ومدني أو دنيوي وأخروي!

_ الربحان الدنيوي والأخروي:

جاء الإسلام لتحقيق السعادة الدنيوية للمؤمنين به وضمان الفوز الأخروي بجنة عرضها السماوات والأرض، ولا يوجد فصل في منهج الإسلام بين الدنيوي والأخروي، فالطريق لفردوس الآخرة هو فردسة الدنيا، وفي هذا الشأن يقول عز من قائل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧]، والحياة الطيبة هي التي تطيب فيها نفس المؤمن بما يناله من المتع والمباهج التي تلبي حاجات القبضة الترابية وتشبع أشواق النفخة الروحية،

ومن كرم الله أنه حين يجزي المؤمنين يتعامل بفضله لا بعدله، حيث يأخذ أفضل الأعمال الصالحة في حضور مقومات القبول من علم وإخلاص وغيرهما، ليجعلها معيارا لأجور بقية الأعمال التي أثرت عليها النسبية الإنسانية من ضعف وقصور ونسيان...الخ.

_ درجات التزكي:

أخبرنا المولى عز وجل بأن الدرجات العالية هي من نصيب الذين ظلوا يصعدون إلى أعالي الدرجات الإيمانية عبر التزكي الدائم، فقال تعالى: ﴿ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى﴾ [طه: ٧٥، ٧٦]، والتزكي هو الجهد المبذول لتخلية الذات من أوشاب التراب وطبائع الطين، وتحليتها بالمزيد من أشواق النفخة العلوية وأزواد الروح.

أثقال المسؤولية!

_ المسؤولية عن جهاز الوعي:

منح الله كل إنسان جهاز وعي متكامل يتكون من أربع مكونات أساسية، وهي: السمع والبصر والعقل والقلب، كما أخبر القرآن الكريم في عشرات الآيات، وجعل كل إنسان مسؤولا عن جهاز وعيه، بحيث يُفعل مكوناته في استثمار آلاء الله والاستهداء بآياته، بأنواعها الثلاثة وهي:

١_ آيات القرآن، وذلك عبر التدبر المفضي إلى الاستهداء المفضي إلى القيام بغاية العبادة.

٢_ آيات الكون، وذلك عبر التفكر المفضي إلى القيام بمقصد عمارة الأرض.

٣_ آيات الأنفس عبر التبصر المفضي إلى القيام بوظيفة الخلافة عن الله في هذه الأرض.

ومن المسؤولية عن جهاز الوعي عدم الخوض في أي موضوع من دون علم؛ لأن الإنسان سيُسأل يوم القيامة عن جهاز وعيه ومدى توظيفه التوظيف الأمثل في ما يبني ولا يهدم، ويصلح ولا يفسد، وينفع ولا يضر، كما قال عز من قائل بصورة عامة: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ [الصافات: ٢٤]، ومن الأسئلة التي سيتعرض لها كل إنسان سؤال عن مكونات جهاز الوعي، كما قال تعالى: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويبدو لي أن الفؤاد هنا مزيج من الأفكار والمشاعر التي تستوطن العقل والقلب.

_ مسؤولية القوامة:

القوامة في المفهوم القرآني ليست مكانة شرفية يتمتع الزوج بمميزاتها لكونه ذكرا، ولكنها مسؤولية ثقيلة بشقيها المعنوي والمادي، وتنبعث حقيقتها ابتداءً من مصطلح

(القوامة)، فالزوج (قوّام) على زوجته وأولاده، وكأنهم بالمقابل في حالة جلوس أو استلقاء واسترخاء، فهو (قوام) على حراستهم من مختلف الغوائل المادية والمعنوية، ولا يكف عن السعي في مناكب الأرض بحثا عن الرزق وأسباب الحياة الكريمة لهم، ويجتهد في أن يجلب لأهله المنافع ويدفع عنهم المضار في المعاش والمعاد؛ حيث تقتضي مسؤولية (القوّامين) أن يقوا أنفسهم وأهليهم من لفحات النار والفقر والجهل على حد سواء، وأن يدأبوا لتوفير متطلبات الحياة المعيشية الكريمة فيؤكلوا زوجاتهم وأولادهم مما يأكلون ويسكنوهم حيث يسكنون، ويحموهم مما يحمون منه أنفسهم، وإن استدعى الأمر فإنهم يموتون في سبيل الدفاع عن كرامتهم وحقوقهم، فمن قتل دون ماله أو عرضه فهو شهيد كما أخبرنا الصادق المصدوق!

يتضح هذا الأمر من آية القوامة نفسها، فقد قال تعالى: ﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾، فالنص القرآني يعلل إعطاء القوامة للرجل بأمرين، بالنسبة للإنفاق المالي فمن الواضح أنه من صميم المسؤولية، أما العلة المتصلة بقوله تعالى: ﴿بما فضّل الله بعضهم على بعض﴾ فتحتاج إلى توضيح، فكما فضّل الله المرأة على الرجل في مقام العاطفة والتربية وتحمل أعباء الأمومة، فقد فضّل الله الرجال في مجال الإدارة والإشراف والتوجيه، إذ بجانب الإنفاق المالي أثبتت الدراسات العلمية والأحداث الواقعية أن الرجل إجمالاً أكثر عقلانية وأقوى إرادة وأقدر على الإدارة وتحمل المشاق والتحديات، بجانب اتصاله بالمجتمع والأسواق، ثم إنه أحرص على بقاء آصرة الزواج لأنه هو من يدفع المهر وكل متطلبات الزوجية!

_ قنوت الجبال الصماء:

القنوت في المفهوم القرآني حالة من الطاعة المحضة والخضوع التام لله تعالى، وتشترك فيها الكائنات الحية والجامدة، سواء منها المجبولة على الطاعة أو المالكة لزمام الاختيار.

قال تعالى: ﴿وله من في السماوات والأرض كل له قانتون﴾ [الروم: ٢٦]، فحرف (من) يستخدم في لغة العرب للعاقل والتي تشمل كل الكائنات ذات النفس والحياة.

أما الجمادات ومنها الجبال فيشملها قوله عز وجل: ﴿سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون﴾ [البقرة: ١١٦]، فحرف (ما) يستخدم لغير العاقل أي غير الكائنات الحية ومنها الجبال!

وإذا عرفنا هذا وعرفنا أن الله حينما عرض أمانة الاختيار على المخلوقات كلها، ومنها السماوات والأرض، فاعتذرت عن حمل هذه المسؤولية وحملها الإنسان، فإن الإنسان العاقل يستحي أن تقنت الجبال القاسية الصماء لله ولا يقنت هو لمن خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأبدع خلقته فجعله في أحسن تقويم، وشرّفه على كل الكائنات وفضّله عليها تفضيلا، وسخرها من أجل خدمته ورفاهيته، وأسجد له ملائكته ووظف أنواعا منها لخدمته، وغضب على الشياطين بسببه!

لفتات حول الموضوعية

_ التركيز على المرض:

إن مصطلح المرض بظلاله السلبية، والذي يصيب قلوب صنف من المنافقين، ورد في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا، ولم يصف الله هؤلاء بأنهم مرضى في أي موضع منها وإنما ظل يقول: ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾، وهذا توجيه رباني إلى مهاجمة المرض لا المرضى وكره المعصية لا العصاة، وهذا بالطبع بعد استنفاد الأدوية والتأكد من العجز عن المعالجة بإكسير الحكمة!

وللعلم فقد وسَم الله الناس بالمرض في عشرة مواضع سواء بالمفرد أو بالجمع، وكلها تتحدث عن المرض الحسي الذي يصيب أجسام جميع الخلق، ولا علاقة لها بالمرض المعنوي، مما يبين دقة المصطلحات القرآنية ووصوله إلى منتهى الموضوعية والرأفة حتى بمرضى القلوب!

_ دقة الوصف وعدم التعميم حتى مع الكافرين:

أوردنا في كتابنا (التفكير الموضوعي في الإسلام) آيات عديدة تبين موضوعية الإسلام وعدله في النظر لغير المسلمين، والتعامل معهم بما يراعي الفروق الموضوعية والذاتية بينهم، واستوقفتنا هنا آية تبين مدى دقة التعبير القرآني رغم انبنائه على الإجمال، مع ما يحمل ذلك من إمكانية التعميم؛ فلقد قال تعالى: ﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك...﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فلم يقل الله: ومنهم الكافرون أو الفاسدون ولكن قال: ﴿ومنهم دون ذلك﴾، وهذه العبارة تشمل كل ملل الكفر بمختلف درجاته، والشرك بجميع أنواعه، والنفاق بمختلف نوعياته، والفسق بشتى دوائره، والعصيان بجميع اتجاهاته، ولأن كل هؤلاء ليسوا من الصالحين فإنهم يدخلون تحت سقف (دون ذلك)!

_ أحسن الناس:

إذا تفحصنا آيات القرآن سنجد أنه في منتهى العدل والإنصاف في التعامل مع شتى البشر، حتى في التوصيف الذي يراعي درجات الإحسان ومستويات الإساءة، وبالطبع فإن الإحسان هي أعلى درجات معسكر الإيمان.

ولو تأملنا عبارات القرآن المتصلة بالإحسان؛ لوجدنا أن أحسن الناس هم من يحسنون التعامل مع من حولهم وما حولهم، ومن أبرز ملامحهم أنهم:

يتبعون أحسن ما أنزل إليهم من ربهم

يردون تحيات الناس بأحسن منها

يستمعون القول دون النظر للقائل فيتبعون أحسنه

لا يقربون مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن

يجادلون من يختلف معهم أو يخالفهم بالتي هي أحسن

يجتهدون في أن يقولوا لعباد الله التي هي أحسن

يدفعون السيئات بالتي هي أحسن من الأقوال والأفعال.

وبلا شك فإن هؤلاء سيجزيهم الله بأحسن ما كانوا يعملون؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وقد قال تعالى: ﴿وما جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾

_ الأعمال الصالحة للكافرين:

أخبرنا القرآن في مواضع عديدة وبصياغات متنوعة بأن الله يحبط أعمال الكافرين يوم القيامة؛ بسبب كفرهم وكرههم لما نزل الله، ويتضمن هذا الإحباط اعترافا إلهيا بأن لهم أعمالا صالحة وأخلاقا حسن ولكنها تتبخر وتصير مجرد سراب عندما تسطع عليها شمس الكفر!

ولا يتوقف عدل الله عند الاعتراف بمحاسن الكافرين، ولكنه يتجاوز ذلك إلى

إعطائهم التمكين في الأرض إذا كانت القيم التي تقوم عليها الحضارة عندهم أكثر فاعلية من قيم المسلمين، كما نرى في عصرنا الحديث، وهذا ما قرره الله في كتابه الكريم حينما قال: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾[الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]، ومن الملاحظ أن الله سماهم (عبادي الصالحون) أي الصالحين لعمارة الأرض وصناعة الحياة، أما في الآية الثانية فقد جعل الله تعالى هذه الحقيقة المؤكدة بمؤكدات لفظية ومعنوية، جعلها بلاغا لمن يعبدون الله؛ حتى يدركوا أن الله لا يحابي أحدا من خلقه وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأن أجر إحسان العمل هو التمكين الدنيوي، ومن ثم فإن على المسلمين أن يتخلقوا بأخلاق ربهم في العدل مع الخصوم والأعداء ومن باب أولى مع بعضهم!

أسلحة معنوية للمؤمنين

_ سلاح التحريض:

التحريض سلاح معنوي فتاك؛ حيث يرفع من فاعلية المؤمنين ويفل بأس الكافرين ويطمس فاعليتهم النسبية، وهذا جزء من وظائف التوجيه المعنوي كما نرى في واقع العالم المعاصر كله، وقبل هذا وبعده، نستنبط هذا المعنى من بعض آيات القرآن الكريم.

وبالنسبة لدور التحريض في رفع فاعلية المؤمنين، قال تعالى: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [الأنفال: ٦٥]، فالتحريض الإعلامي يزيد من صبر المؤمنين وثباتهم، حيث يُذكي طاقاتهم المخبوءة ويشعل شجاعتهم الكامنة، ومن ثم فإن فاعليتهم ترتفع بحيث يصبح المتوسط العام لقوة المؤمنين بمعدل مسلم مقابل عشرة من الكفار، مع وجود مؤمنين بفاعلية أكبر من هذا الرقم بكثير، من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن معد الزبيدي وسعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي!

وعلل القرآن الفارق الكبير في الفاعلية بأن الكفار لا يفقهون، وهي عبارة عريضة تحتوي على الجهل بكثير من السنن والأفكار والأسرار التي تفجر طاقاتهم وتقوي عزائمهم وتعلي فاعليتهم الكبيرة، وأولها الإيمان بالله وبأقداره المطلقة، وباليوم الآخر وما يحتويه من مقاعد عالية في أعلى الجنان الخالدة للمجاهدين والشهداء، وآخرها الصبر والثبات!

وبالنسبة لدور التحريض في تحييد بأس الذين كفروا، قال تعالى: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا﴾ [النساء: ٨٤]، وقد ثبت في المعارك التأريخية للمسلمين أن

سلاح التحريض الذي يرمز هنا للحرب المعنوية عموما وما تفعله وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي في عصرنا من قصف فتاك وقتل ناعم، حيث يلعب التحريض دورا مقدرا في إرعاب الأعداء وملئ قلوبهم بالهلع وتسلل الهزيمة إلى دواخلهم من الثقوب المشار إليها في خاتمة الآية الأولى: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾، مما يضعف فاعليتهم ويصيب وعيهم الجمعي بالتلف، ويزلزل ثقتهم بأنفسهم وما يحملون من عقائد وأفكار ومشاعر، دافعاً إياهم نحو الانهزام، خاصة إن أجاد قائد المسلمين عمل تكتيكات ذكية تُظهر قوة جنوده وبأسهم وانضباطهم وإقدامهم وعشقهم للموت، كما كان يفعل القادة العظام للمسلمين!

_ سلاح الذكر:

وحول هذا السلاح المعنوي المؤثر قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ [الأنفال: ٤٥]، وهذه الآية توجه المؤمنين إلى تجاوز خوفهم البشري الغريزي والدوس على هواجسهم المنبعثة من المكون الترابي، عبر التسلح بعزيمة الثبات والتصميم على الانغراس في الأرض حتى يصبح الفرار خارج قاموس المقاتلين، مع تذكر أن الفرار من الموبقات السبع التي حذر منها النبي ﷺ باعتبار أنها تورد أصحابها النار إن ماتوا بدون توبة بجانب أضرارها الدنيوية الفادحة، وبعد ذلك وأثناءه ينبغي اللجوء لذكر الله فرديا وجماعيا بحسب الظروف والحاجة، بحيث يلهج اللسان بذكر الله وتمتلئ الجوانح بمشاعر جلال الله وعظمته، وتذكر قدرة الله التي تحكم هذا الكون وتستطيع أن تقول للشيء كن فيكون، وتذكر نصره عز وجل للمؤمنين مهما كانت فئتهم أقل عددا وأضعف عدة، ما داموا قد بذلوا المستطاع واستفرغوا الوسع، وما داموا ينصرون دينه ويثبتون في مواجهة الأعداء، مؤمنين بأن المنايا لا تأتي قبل الأوان، وأن الآجال لا تتقدم ولا تتأخر، هذا كله بجانب استحضار أن الشهادة اصطفاء رباني لا يمنحه الله إلا للأصفياء من خلقه، وأنها ترتقي بأصحابها إلى مقامات الرفعة بجانب النبيين والصديقين.

وللذكر الجماعي دور كبير في الثبات وارتفاع المعنويات مقابل انخلاع قلوب الأعداء

الذين يفعل فيهم ذكر الله فعل السحر، بمؤثر غيبي لا يعلمه إلا الله ومؤثر سنني تعلمه علوم النفس والتوجيه المعنوي في كل جيوش العالم وأجهزته الاستخبارية!

وهنا ينبغي التفريق بين الذكر الفردي في النفس الذي ينبغي أن يظهر كمال الانكسار والتذلل بين يدي الله، وبين الذكر الجماعي الذي ينبغي أن يكون من القوة بمكان؛ بحيث يحقق هدفه المنشود باقتحام الدواخل وزلزلة القلوب!

_ سلاح الرعب:

ذكرنا في الفقرة السابقة أن لذكر الله تعالى أثناء القتال تأثيرا رهيبا على قلوب الأعداء بفعل غيبي وآخر سنني، وقد يكون الفعل الغيبي ما أورده الله تعالى في قوله: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾ [آل عمران: ١٥١]. وهذا وعد رباني من المولى عز وجل بأنه سيلقي في قلوب المشركين الرعب؛ بسبب شركهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، بجانب العقوبة الأخروية.

وينبغي أن يكون المؤمنون جنود الله في زرع أسباب الرعب داخل قلوب الأعداء، كما كان يفعل السلف الصالح، ومن هؤلاء الصحابي المعروف القعقاع بن عمرو، فقد ورد في كتاب (أسد الغابة) لابن الأثير قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: «لصوت القعقاع بن عمرو في الجيش خير من ألف رجل»!

وإن الصوت الواهن الذي اجتهد صاحبه في إطلاقه بأقصى قوته سيصبح زئير أسد حينما يصل إلى أسماع الكافرين مقتحما قلوبهم!

واتكاءً على تدبر الآية نختم بفائدة أخرى، فحينما تنقلب المعادلة لا قدر الله، ويصيب المسلمين الرعب من مقابلة الكافرين، فينبغي أن يفتشوا قلوبهم للبحث عن الشرك الخفي الذي أورثهم الخوف، مثل تعظيم الأسباب والتعامل معها كأنها أنداد لله، من حيث إضافة النفع والضر لها، مع مراجعة واقعهم للبحث عن الثغرات ونقاط الضعف لمعالجتها وتكميل جوانب النقص!

حبالٌ السماء!

_ حبل الثوابت:

أمر الله أمة الإسلام بالاعتصام بحبله ونهى عن تفرقها بصورة قطعية، وذلك في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقد اختلف المفسرون حول ماهية هذا الحبل، وبالطبع فإن القرآن صالح لكل زمان ومكان من خلال تجدد معانيه، ما أحسن المسلمون تدبر نصوصه لاستمداد هداياته واستنباط رؤاه، وتنزيله على الوقائع في ظل المتغيرات المتسارعة، ومن هنا فإن حبل الله المذكور في الآية يبدو في عصرنا على شكل حبل ينتظم جميع الثوابت المتفق عليها بين كبار علماء الأمة، وهي الكليات والأصول والأحكام التي وردت بنص قطعي الثبوت والدلالة، والتي كان السلف الصالح يسمونها المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، ويكفّرون من ينكر واحدة منها، ولكن ماذا يفيد مصطلح الحبل في هذا المقام؟

يبدو لي أن الحبل يشير إلى:

١_ أن جميع الثوابت وحدة واحدة ولا يجوز قبول بعضها وإنكار البعض الآخر منها؛ ذلك أن الحبل الممتد بين المسلمين وبين الله لو قطع منه جزء مهما كان صغيرا فإن الصلة ستنقطع تماما بين الطرفين.

٢_ أن هذه الثوابت محكمة الصياغة وتستعصي على أي قطع نتيجة إحكام صنعتها وتداخل مكوناتها المتعددة، وكأنها تشبه الحبل المفتول!

٣_ أن هذا الحبل وهو يحيط بالمسلمين ينظم مكوناتهم وطاقاتهم كما يفعل الخيط بالنسبة للمسبحة، ويبدو للرائين كأنه سياج يحرس المسلمين من كل الغوائل والغزاة، إذ تظهر المجاميع داخل الحبل في صورة أمة واحدة عظيمة الشأن ومهابة الجانب، لكن انقطاع هذا الحبل سيؤدي إلى انتثار مكونات الأمة وذهاب ريحها المعبر عن بركة اجتماع

الكلمة ووحدة الصف!

٤_ أن من أمسك بهذا الحبل لا يمكن أن يغرق في متاهات الحياة ولا يحتار في مفترقات الطرقات؛ فهو يعرف طريقه تماما لأنه يربط الجزئيات بالكليات، والفروع بالأصول، والظنيات بالقطعيات، والوسائل بالمقاصد.

_ الاعتصام بالله:

لا يكفي الإيمان بالله وحده للدخول في رحمته عز وجل والحصول على فضله وإحسانه وضمان الاهتداء إليه بالسير الوئيد على صراطه المستقيم، وللحصول على هذه الثمار لا بد بعد الإيمان بالله من الاعتصام بعظمته عز وجل واستجلاب معونته والتعلق برحمته، كما قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾ [النساء: ١٧٥]، ولأن ضمير الغائب يعود في لغة العرب التي تنزل بها القرآن إلى أقرب مذكور؛ فإن الهاء في (به) يعود إلى الله لأنه أقرب مذكور، فما الذي يضيفه الاعتصام بالله إلى الإيمان به تعالى؟

يبدو أنه يشير إلى أن المؤمن يأخذ بالأسباب ويجتهد في عمل الصالحات، ولكن ينبغي أن يحذر من التزيين الشيطاني الخفي والذي قد يخلق في نفسه شيئا من الزهو والعُجب بالذات، ولكي لا يحدث هذا الأمر فإنه باعتصامه بالله ينفكّ من كل عمله ويرتمي في باب الله كأنه لم يفعل شيئا، وهنا فإن الله يمنحه عطاء خاصا من خزائن رحمته وفيوضات فضله، وهذا ما يشير له الشق الثاني من الآية السابقة: ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾، وكأن كلمتي (منه) و(إليه) تشيران إلى هذه الخصوصية في الأجر التي تتناسب مع خصوصية الانبتات عن الأعمال والارتماء في باب الله وكأنه لم يعمل شيئا!

ويمكن القول بأن إيراد الاعتصام بالله بعد الإيمان به تعالى في هذه الآية، يشبه ما ورد في سورة الفاتحة من ذكر للاستعانة بالله بعد عبادته عز وجل، فلأول وهلة يبدو أنه ذكر لخاص بعد عام، لكنه إيراد للأسباب والأعمال التي يقوم بها المرء على أكمل وجه

ثم ينقطع عنها ويقف منكسراً في باب الله طالبا منه قبول ما مضى والتوفيق والإعانة في ما سيأتي، وهذا ما يتضمنه مصطلحا (الاعتصام) و(الاستعانة)؛ ولذلك ذكر الصراط المستقيم في الموضعين!

من آداب الدعاء

_ الانكسار أمام جلال الله:

يخبرنا استقراء قصص الأنبياء الواردة في القرآن بأن من آداب الدعاء إظهار كمال التذلل أمام باب الله والانكسار أمام جلاله، وتعمد اختيار أبرز عنوان لانكسارك في الواقع الذي تعيشه، فقد دعا نوح ربه بمظلوميته وغلبته أمام قومه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر﴾، ودعاه زكريا بكبر سنه وضعف جسمه: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي واشتعل الرأس شيبا﴾، ودعاه أيوب بمرضه الذي أضر بجسمه: ﴿إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾، واستعطف يونس ربه بتقصيره الذي قاده إليه ضعفه البشري، لكنه فزع من ذنبه وتاب منه وندم عليه: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

_ طمع الداعين:

مع أن الطمع مصطلح ذو دلالات سلبية إلا أن له بعض الظلال الإيجابية حيث يأتي بمعنى شدة الرجاء من الله، ولهذا فقد كان الطمع مطلوبا في دعاء المؤمن لربه، كما قال تعالى: ﴿وادعوه خوفا وطمعاً﴾ [الأعراف: ٥٦]، بحيث يتم المزج بين الخوف من عقاب الله مع الطمع بعفوه وفضله بمقادير متوازنة، وقد أورد الله هذه الثنائية ضمن صفات المؤمنين فقال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً..﴾ [السجدة: ١٦]، وهذا يعني بأن الله يحب الطماعين الملحاحين بما في يديه من عفو ومغفرة ورحمة، مثلما أنه لا يحب الذين يطمعون بما في أيدي الناس!

_ الحذر من الوقوع في الاعتداء:

الاعتداء منظومة متعددة الأبعاد ومتعدية المجالات، ويمكن أن تصل إلى الداعين لربهم، ولهذا فقد أوصى مولانا جل وعلا عباده فقال: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف: ٥٥]، وفي قوله (إنه لا يحب المعتدين) تحذير من الوقوع

في أي واحدة من صور الظلم، ومعناه المباشر مجاوزة الحد في مبناه أو معناه، ويتم في مبناه برفع الصوت بطريقة غير طبيعية، فقد ضبطت الآية السابقة إيقاع الداعي بقوله تعالى: (وخفية) أي بصوت واهن، ونهى النبي ﷺ عن رفع الصوت في الدعاء، ويكون كذلك بالتكلف في الصياغة والانشغال بالألفاظ على حساب المشاعر!

أما الاعتداء في المعنى فيكون بتجاوز القوانين والسنن الإلهية وبتجاوز التعليمات الرحمانية، مثل سؤال الله تعالى ما لم يجوزه شرعاً من الإثم وقطيعة الرحم والحصول على أموال الآخرين أو الوصول إلى أعراضهم، أو طلب شيء من الله مع الانغماس في الحياة بأعمال تناقض الطلب!

قال ابنُ القيِّم: الاعتداءُ في الدُّعاء هو كلُّ سؤال يناقض حكمةَ الله، ويتضمَّن مناقَضَة شرعه وأمره، أو يتضمَّن خلاف ما أخبر به؛ فهو اعتداءٌ لا يحبُّه الله ولا يحبُّ سائلَه.»!

عطاء الفاعلية!

_ يمين العطاء والجزاء:

يتخذ القرآن الكريم في العديد من آياته، من اليد اليمنى رمزا للفاعلية الإيجابية والعطاء الكريم الذي يفك الرقاب من ربقة العبودية، ويخلص البطون من جوع المسغبة، ويدفئ الأيتام من صقيع الفقد، ويحرر المساكين من ذل الحاجة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فكّ رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا مترية. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة﴾ [البلد: ١١ _ ١٨]، فقد قدم الله صفات أصحاب الميمنة قبل ذكرهم، وجعلهم مقتحمين للعقبات ومعتقين للرقاب ومطعمين للجوعى ولا سيما الأيتام والمساكين، بجانب التسلح بالإيمان العميق والتواصي بالصبر والتراحم.

وكأن اليد اليمنى هي الناظمة لكل هذه الأعمال، فهي التي تزيل العقبات من طريق الضعفاء، وهي التي تفك رقاب المساكين وتخلصها من أغلال العبودية والضعف والاستكانة، وهي التي تمتد لبلسمة جروح المنكسرين وإعطاء المحرومين، فتجفف دموع اليتامى وتمسح على رؤوس المساكين!

ولأن الجزاء من جنس العمل فإن الذين مدوا أيمانهم بما جادت به أنفسهم السخية؛ سيجازيهم الله يوم القيامة بجعلهم يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم، والذين أدخلوا السرور إلى قلوب المكلومين والمحرومين سيرزقهم الرحمن سرور الفرحة الكبري حين استلامهم لكتبهم بأيمانهم، كما قال تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا﴾ [الانشقاق: ٧ _ ٩].

_ حياة الفاعلية:

يتقلب المسلم المعاصر بين الأفكار الميتة المتدحرجة من أعماق التأريخ وبين الأفكار

المُميتة والقادمة من أكناف المادية الغربية؛ إذ تتضافر مع بعضها وتتظاهر لتطفئ فاعليته، مهما اختلفت في المنطلقات والمقاصد، وبدون الحركة والفاعلية فإن المرء يعد في عداد الموتى، والحياة لا تكون إلا ثمرة وحي رباني يربط العقل بالنقل وعالم الشهادة بعالم الغيب، ويوصل الأرض بالسماء والدنيا بالآخرة، ولهذا فقد قال تعالى: ﴿يا أيها الذي آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؛ ففي الوحي إكسير الحياة للعقول والقلوب والأرواح!

وفي المقابل فقد وصف الله الذين يدعون من دون الله بأنهم ﴿أموات غير أحياء وما يشعرون ايان يبعثون﴾ [النحل: ٢١].

ولقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء﴾ [النمل: ٨٠]، وكرر العبارة ذاتها في مقام آخر، وذلك في الآية الثانية والخمسين من سورة الروم.

قلوب العباد بين الصرف والتصريف!

من المعلوم أن الله تعالى في غاية الرحمة بعباده، وأنه حريص على هدايتهم إلى أبعد حد، ويحب لهم الخير أكثر من آبائهم وأمهاتهم، ومن مظاهر رحمته السابغة أنه يصرّف لهم الآيات في القرآن من أجل أن تتشرب قلوبهم الهداية بشتى أنواعها وميادينها، وتعتنق عقولهم عقيدة الإيمان بكل أبعادها وشُعبها، وذلك من خلال منظومة فاعلة تضمن انسياب الخير من الجوانح إلى الجوارح.

وفي هذا الإطار يقول تعالى: ﴿وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درستَ ولنبينه لقوم يعلمون﴾ [الأنعام: ١٠٥]، ويمكن القول بأن التصريف القرآني منهج للولوج إلى العقول والقلوب من مداخل متعددة وفي ظروف مختلفة وتحت رايات وعناوين متنوعة، مع تغيير أساليب الخطاب وتطوير وسائل التأثير، واستخدام الوعد والوعيد في استثارة طاقتي الرجاء والخوف، وتوظيف الأمثال والقصص في حقن العقول بالأفكار وزراعة القلوب بالمشاعر، بحيث تتضافر سائر الطرائق في صناعة التأثير المطلوب، وصولا إلى جعل مدارك العقل تتشبث بالتوحيد وجعل حقائق القرآن تتغلغل في شغاف القلب.

ويشير اسم الإشارة (وكذلك) الوارد في مطلع الآية إلى البصائر المذكورة في الآية السابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾[الأنعام: ١٠٤]، فكل آية من آيات القرآن الكريم تحتوي على بصيرة يحتاجها المرء في دروب الحياة اليومية المليئة بالكُبد وخاصة في ظلمات الفتن الحالكة، لكنها لا تفيد من أغمض عينيه ولم يطلق طاقات التفكر والتدبر والتفقه والتبصر الثاوية في ذاته، ومن ثم فإنها دعوة مفتوحة لتفعيل فريضة التدبر التي تتضمن عملية الاستبصار أو التبصر أو الإبصار، كما في جملة: ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾!

وفي المقابل فإن من لم يفتحوا أبصار التدبر ولم يستفيدوا من تصريف الآيات؛ فإن

الله يعاقبهم من جنس ما اختاروا لأنفسهم، وهذا مقتضى عدل الله بعد أن رفضوا رحمته وفضله، حيث يصرف الله قلوبهم عن آياته، كما قال عز من قائل:﴿صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧]، وواضح بأن الصرف عقوبة لعدم التفاعل مع التصريف، كما تشير نهاية الآية ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾، أي أن صرف قلوبهم جاء بسبب انصرافهم عن التدبر وعدم استفادتهم من إمكانات التصريف في التعقل والتفقه، ويتأكد هذا المعنى حينما نقرأ الآية كاملة، قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾[التوبة: ١٢٧].

وعقوبة الصرف شديدة الخطورة بلا شك؛ لأنها تدفع بأصحابها نحو فكر الأنعام والدواب، حيث التعطيل التام للأسماع والأبصار والعقول، وطغيان الغفلة وغياب الوعي، والذهول عن حقيقة الحياة وسر الوجود، وصولا إلى دركة: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠]!

وللعلم فإن تصريف الآيات ورد ذكره في عشرة مواضع من القرآن الكريم، وثلاثة من هذه المواضع مذكورة في سورة الأنعام، وكأن تصريف الآيات وسيلة فعالة لمقاومة فكر الأنعام، وضمانة أكيدة لعدم السقوط في دوامة ثقافة القطيع!

تدابيرُ الرحمن

_ تحريم المنع:

للتحريم معنى اصطلاحي معروف في الشريعة الإسلامية، ومعظم ألفاظ التحريم في القرآن وردت في سياقه، لكن هذا المصطلح ورد بمعنى التبغيض والمنع الفعلي، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام حينما كان رضيعا: ﴿وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، فحينما امتنع موسى عليه السلام عن الرضاعة من مختلف المراضع اللاتي جيء بهن ليرضعنه في بيت فرعون، لم يكن الامتناع لتحريم شرعي يملك أن يطبقه أو يرفضه، كما في سائر المحرمات التعبدية، ولكن الله ألهمه هذا الأمر وجبله عليه حتى يعود إلى حضن أمه، وهذا يعلمنا أن لا نقرأ المفردة بطريقة مبعثرة وإنما وفق منهج علمي متكامل إحدى مقوماته هي السياق الذي وردت فيه الكلمة!

_ المنَح التي تأتي على شكل محن:

قد تأتي عطايا الله للناس على شكل بلايا ومصائب ورزايا، بمن فيهم الكافرين الذين أخذهم الله بعذاب استأصل شأفتهم، فقد كان يبدأ بإعطائهم إنذارات تنبههم إلى سوء ما يعتنقون من أفكار وما يجترحون من أفعال، كما قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾، لكنهم لم يستفيدوا من عطية التنبيه الذي كان بإمكانه أن ينقذهم من عذاب الدنيا والآخرة؛ وذلك بسبب قلوبهم التي جعلتها الخطايا كالحجارة أو أشد قسوة، وبسبب تزيين الشيطان لما يفعلون، كما أوضحت الآية اللاحقة للآية الأولى، قال تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٤٣]؛ ومن هنا فقد ردّوا يد الرحمة الممتدة إليهم بصورة عنيفة، فجاءهم العذاب الذي اجتثهم من الجذور ورمى

بهم في مزابل التأريخ في انتظار العذاب الأخروي!

وبالمثل فإن الله يمنح إنذاراته لمن بقي فيهم خير من عباده، من خلال المرض أو المصيبة في المال والنفس، والعاقل هو من يتضرع ويؤوب مصححاً السيرة والمسيرة!

_ دور التآلف في توطين العزة والحكمة:

امتنّ الله على عباده بالتأليف بين قلوبهم فقال عز من قائل: ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ٦٣]. ولأن الفاصلة التي ترد في نهاية الآية في العادة متصلة بشكل وثيق بما ورد في متن الآية، فيبدو كأن الله يقول إن صاحب العزة والحكمة المطلقتين هو الذي منح شيئاً من هاتين الصفتين لأصحاب الائتلاف المأمور به، ولا غرابة في ذلك فإن الائتلاف يتحقق من وحدة المنطلقات والمقاصد وكذا الكليات والأصول، مع التعاذر والتغافر في الفروع والجزئيات والأساليب والوسائل، مما يؤدي إلى تقوية الفاعلية في سائر مجالات صناعة الحياة، وقوة الفاعلية لا بد أن تجلب لأصحابها الهيبة والعزة والمنعة، ثم إن التنوع في المتغيرات تحت سقف الثوابت وبروز الحرص على الوحدة في سائر الأحوال سيؤدي إلى التشاور والتحاور في مختلف القضايا الخلافية، وبالتشاور تتلاقح الأفكار وتتكامل الرؤى، وتتضح أبعاد الحقيقة ويتم اختيار أفضل الآراء واتخاذ أفضل المواقف في كل مناسبة، وبذلك يستحق هؤلاء الحكمة، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، سواء كان فردا أو جماعة أو مجتمعا، وهذا يعني أن سائر طاقاته المادية والبشرية تتجه إلى البناء وكل أفكاره وأوقاته تستثمر في التنمية.

أهمية التفكر في المآلات

_ التفكير بمآلات المحرمات:

عندما نتدبر القرآن نجد أن الله يريد منا إيمانا يقينيا جازما يقوم على البراهين العقلية والمنطقية والمصلحية والواقعية، وهذا لا ينطبق على العقيدة وأركان الإيمان فقط، ولكن على كل شرائع الإسلام وأخلاقه، حيث يريد منا أن نعرف أسرار الواجبات وثمارها المرجوة، وأن ندرك أضرار المحرمات ونفكر بمآلات التمادي فيها.

ومن الآيات التي دعتنا للتفكير في أضرار المحرمات ومآلاتها، قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام: ١٥١].

والشاهد في الآية يكمن في خاتمة الآية: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾، فاسم الإشارة (ذلكم) استخدم للإشارة إلى كل ما مر من التوجيهات؛ ولذلك استخدم اسم إشارة للبعيد، ثم إن الله لا يوصي إلا بأشياء في غاية الأهمية وتدخل في صميم خدمة الإنسان حيث جلب المصالح في ما يتعلق بالكليات الخمس الكبرى ودرء المفاسد عنها، وحتى عندما تغيب عنا العلة في الإيجاب أو التحريم ينبغي أن نعتصم بأمرين:

الأول: الثقة القلبية اليقينية بحكمة الله، وأنه لا يوصينا إلا بما ينفعنا في المعاش والمعاد، والمشار إليه في جملة (ذلكم وصاكم به).

الثاني: التفكير العقلي في أضرار هذه المحرمات والبحث العلمي والنفسي والاجتماعي عن مآلات الانغماس فيها والتمادي في مقارفتها، والمشار إليه بقوله: (لعلكم تعقلون).

ولارتباط الأمرين ببعضهما ارتباط القلب بالعقل فقد صاغ الله الأمرين في عبارة واحدة لا يمكن تجزئتها!

_ التفكر بمآلات الخطايا:

دعا الله المؤمنين للسير في الأرض وقراءة آيات الله في الأنفس والآفاق والاعتبار بمصائر الأمم والنظر في مصائر القرى التي عاقرت الخطايا واجترحت الآثام وكيف أصابتها مختلف الأضرار وصولا إلى تنزل العقوبات والعذاب الاستئصالي.

وعلى سبيل المثال حينما مر الله على قصة قرى سدوم التي كفرت بنبيها لوط واقترفت أبشع الخطايا، قال لمشركي قريش ولكل المخاطبين حتى قيام الساعة: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، يعني أفلا تشغلون مداركم العقلية لتروا كيف كانت النتائج (العذاب) من جنس المقدمات (الخطايا)، وإذا رأيتم ذلك هل تعتقدون أن تكرار نفس المقدمات لن يؤدي إلى ظهور نفس النتائج؟!

وذكر الله قصة أولئك المنحطين الشاذين في موضع آخر، وبعد أن ذكر كيف اجتثهم مع قراهم قال: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾[العنكبوت: ٣٥]، والآية البينة هي البحر الميت الذي بقي من آثار عذاب الله لتلك القرى الفاسدة، حينما خسف الله بها الأرض وجعل عاليها سافلها حتى صارت أخفض منطقة في الأرض، ثم طهرها الله بأمطار لا تصلح مياهها للحياة ولا للأحياء، ولكن من لم يعتبر بالآية المادية البينة فكيف سيعتبر بغيرها من الأمور المعنوية؟!

فروق قرآنية دقيقة

_ بين الاستغفار والتوبة:

مع اتصال مفهومي الاستغفار والتوبة بمحو الذنوب والتخلص منها، فإنه يوجد فرق دقيق بينهما وليسا شيئا واحدا، كما يقول دعاة الترادف، ويتضح ذلك من كلام شعيب عليه السلام لقومه: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه..﴾ [هود: ٩٠]، فترتيب المصطلحين والفصل بينهما بحرف العطف (ثم) الذي يفيد المغايرة ووجود فرق زمني بين الأمرين، ويبدو لي أن الاستغفار يتجه نحو الماضي، بينما تتعلق التوبة أكثر بالمستقبل، حيث التسلح بإرادة التصحيح والعزم على عدم الارتكاس في المعصية مرة أخرى، وقد يكون بين المفهومين عموم وخصوص، فالاستغفار عملية تخلّص من الذنوب التي اقترفت في الماضي، بينما تشتمل التوبة على هذا الأمر بجانب الندم على اقترافها وتجفيف منابعها، والعزم الأكيد على عدم العودة إليها بأي حال من الأحوال، وتتضمن التوبة أيضا رد الحقوق إلى أصحابها أو استسماحهم، وكأن الاستغفار يتمحور حول حقوق الله بينما تتمحور التوبة حول حقوق الإنسان!

_ الفتنة والابتلاء:

قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ [التغابن: ١٥]، فلماذا قال فتنة ولم يقل ابتلاء مع أن كليهما امتحان؟

لأن الفتنة أخطر من الابتلاء، وإمكانية النجاح فيها أصعب، وخاصة أنها متصلة بأبرز صنفين من الأصناف التي تشكل زينة الحياة الدنيا وهما الأموال والأولاد، ولذلك ختم الآية بذكر الأجر العظيم، وكان المولى عز وجل قد قرر في الآية التي قبلها عداوة بعض الأبناء والأزواج!

_ عدل التوصيف:

من المعلوم أن مصطلحات القرآن دقيقة جدا، حتى في ما يظنه الناس ترادفا، فهناك فروق دقيقة بين الكلمات المستخدمة بنفس المعنى عند الناس، مثل كلمتي الكذب والإفك.

فالكذب هو عدم الصدق في القول، والكذب نسبي مثل كل الموبقات بالطبع، وحينما تتسع المسافة بين ما قاله الكذاب وما هو عليه المكذوب عليه؛ يكون الكذب قد وصل إلى أبعد مداه وأقذر صوره، ولذلك أطلق الله على حادثة قذف السيدة عائشة رضي الله عنها بالزنا مصطلح الإفك، فقال تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ [النور: ١١]، فقد (جاؤوا) بإشاعة الإفك من عند أنفسهم، ثم إن عائشة أعلم نساء المسلمين وزوجة أحب الخلق إلى الله وأتقاهم، وابنة أحب الخلق إلى قلب رسول الله وأقربهم إليه، ومن أصلح نساء العالمين، ومن هنا فقد توعد الله من أطلق الفرية عليها بعذاب عظيم؛ حتى تتناسب عظمة العذاب مع عِظم الجُرم.

ويبدو لي أن جريمة الإفك تتضمن أكثر من بُعد أو جرم، مثل السحر الذي صنعه سحرة فرعون ضد موسى والذي وصفه الله بالإفك فلم يكن عملية بسيطة وإنما عملية معقدة، ثم إن الإفك لا يصدر إلا من مجموعة من الناس بحسب استقرائي لآيات القرآن الكريم، مثل المنافقين الذين شهد الله بأنهم كاذبون ووصفهم بأنهم العدو محذرا منهم رسوله، وختم الآية بالدعاء عليهم واستنكار ما وصلوا إليه من افتراء وانحطاط وإجرام: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ [المنافقون: ٤].

ومما يؤكد ما قلناه أن الإفك لم يذكر مضافا إلى فرد إلا في موضعين فقط، ولهما سياقهما، قال تعالى: ﴿تنزّل على كل أفّاك أثيم﴾ [الشعراء: ٢٢٢]، وقال: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ [الجاثية: ٧]، وعند تمعن الآيتين يتضح أن (الأفاك) المذكور فيهما اسم جنس يشمل كل أفاك وليس فردا بعينه، يعني كل من يلجأ للإفك، ثم إنه استخدم كلمة (أفّاك) وهي على وزن فعال التي تعرف بأنها من صيغ المبالغة في اللغة العربية، وبعد ذلك فقد أضاف له وصفا يزيده قبحا وهو (أثيم) أي كثير الإثم، لأن أثيم على وزن فعيل!

التزكي بين الأقوال والأفعال!

في سأئر العبادات تتضافر الأقوال والأفعال والمشاعر لتصنع عبادة واحدة، سواء كانت مما يخص حقوق الله أو حقوق الإنسان، لكن هذا الاطراد لا يستقيم مع عبودية التزكي، كما سيأتي.

وقبل ذلك نؤكد أن عملية التزكي تتضمن أمرين مرتبطين بالخلقة الأولى للإنسان، وهما:

_ التطهر من أدران القبضة الطينية المأخوذة من تراب الأرض.

_ الاستزادة من أزواد النفخة الروحية التي تمت في السماء.

والعجيب أن في هذه العبادة تضادا كبيرا بين ما يفعله الإنسان وما يقوله، فهو مأمور بأن يأخذ بكل أسباب التزكي، بل ورتب المولى الفلاح على هذا التزكي، فقال: ﴿قد أفلح من تزكّى﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس: ٩]؛ ذلك أن عملية التزكي مستمرة طيلة العمر ومتصلة بسائر العبادات ولا سيما الشعائرية والقلبية، وتشتمل على عمليتين حسابيتين وهما الطرح والجمع، أي طرح العناصر الترابية التي تجذب الإنسان نحو دركة الحيوانية، وجمع العناصر الروحية التي ترتقي بالإنسان نحو درجة الملائكية، وفي هذا السياق أخبر الله بأن من يتزكى فإنه سينفع نفسه، فقال عز من قائل: ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير﴾ [فاطر: ١٨]، ويفيد مفهوم المخالفة بأن من لم يتعب نفسه في التزكي فإنما سيضر نفسه فقط. وأخبر بعد ذلك بجزاء هذا التزكي القلبي والعقلي والعملي والذي تجتمع فيه أعداد كبيرة من العبادات؛ حيث أعلمنا عز وجل بأن من يأتي ربه يوم القيامة مؤمنا قد عمل الصالحات؛ فإنه يصير من أصحاب الدرجات العلى في جنات عدن خالدا مخلدا في نعيمها، وختم الآيتين بقوله: ﴿وذلك جزاء من تزكّى﴾ [طه: ٧٦].

وحينما يتعلق الأمر بادعاء التزكي أو إعلان المرء أنه صار من الصالحين المتقين؛ فإن القرآن يرفض هذا الأمر ويتصدى لأصحابه، كما في قول الله عز وجل: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ [النجم: ٣٢]، وقد عجّب الله رسوله محمدا من أناس يزكون أنفسهم فقال: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا﴾ [النساء: ٤٩].

ولكن لماذا حرّم الإسلام أن يزكي المرء نفسه؟

إن الله الذي نهى الإنسان عن التزكي هو من خلقه، وهو يعلم ما يصلحه وما يفسده، ولأنه رحيم به ويريد أن يتبوأ أعلى الجنان؛ فقد شرع له من التعاليم في جانبي الأمر والنهي ما يكفل له التحرر من أثقال التراب، والترقي نحو السمو الملائكي بحيث يتأهل لارتياد جنات السماوات!

وهو يعلم تعالى أن تزكية أنبيائه ومن يقوم بمهمتهم، لا يمكن ان تنفع الإنسان ما لم يقتنع من داخله ويبادر إلى الاستزادة الدائمة من متطلبات الوصول إلى الكمال البشري، وهذا يجعله دائما في مكابدة مع النفس ومجاهدة مع الشيطان، وفي حالة انتباه لتسويلات النفس وحذر من وسوسات الشيطان، مهما تخفت وراء مشاعر طيبة أو انضوت تحت عناوين وشعارات براقة، لكنه حينما يعتقد أنه قد تزكى راضيا عن نفسه، فإنه سيتخلى عن انتباهه ونباهته ويكف عن حذره، وستنفتح ثغرات في جدار مناعته للنيل منه، وقد ينجح أعداؤه في تزيين سوء ما يشعر به ويعمله من أعمال دقيقة، ومع المدى من المرجح أن يسكنه العجب ويتسرب إليه الغرور، كما حدث لكثير من العبّاد والصالحين الذين زكوا أنفسهم في ذروة روحانية غافلة، ومع المدى تورمت ذواتهم وانتفخت أوداجهم، حتى أن من كان يقول بعد كل إنجاز لقد فعل الله، صار يقول: لقد فعلت، لتصيبه بعد أمد الروح القارونية، وهنا يأتي الخسف والهلاك المعنويان!

التجليات الدنيوية لكون (اللّه سريع الحساب)

من المعلوم أن الجزاء الإلهي سواء كان ثوابا أو عقابا، إنما يكون في الآخرة حيث الخلود الأبدي في الجنان أو في النيران بعد الامتحان الدنيوي الذي امتد طيلة عمر الإنسان، لكن الله قد يثيب على بعض الأعمال في الدنيا قبل الآخرة لحِكم يعلمها، وقد يعاقب في دار العمل قبل الوصول إلى دار الحصاد، وهذا من المعاني التي يحملها وصف المولى لنفسه بأنه ﴿سريع الحساب﴾ والتي في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى وهو يندبنا لتكثيف الدعاء عند المشاعر المقدسة في أكناف بيته العتيق بمكة المكرمة: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢]، وجملة ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ تشير إلى الجزاء الدنيوي الذي يحصده المرء في دار المعاش، مثل مشاعر السرور التي تغمره فتجعل للحياة لذة وللعبادة بهجة، أو الشغف الذي يسكنه فيجعله يستمتع بأبسط الأشياء ويغرق في بحبوحة السعادة، أو البركة التي ترافقه فلا يعرف الحاجة ولا تصيبه الفاقة، أو التوفيق الذي يصاحبه في حياته فلا يحيد ولا يخيب، وقد وردت في بعض الأحاديث صور من الثواب الذي يحصده المؤمن في حياته. ويؤكد هذا المعنى خاتمة الآية التي تقول ﴿والله سريع الحساب﴾.

وفي المقابل هناك خطايا تستنزل الغضب الإلهي وتستعجل الحساب الرباني، وتستوجب العقاب الدنيوي قبل الأخروي، مثل عقوق الوالدين وقطع الأرحام والزنا.

وأهم من هذه الذنوب الفردية، الخطايا الاجتماعية المتصلة بالقيم المسؤولة عن تحديد مكانة أي أمة وسط الأمم، ذلك أنها تدفع أصحابها نحو التقدم الحضاري أو ترمي بهم في قارعة التخلف، فإن عقاب الخطايا الاجتماعية مقدم في الدنيا قبل الآخرة، مثل الظلم

والاستبداد والجهل والفرقة والعطالة عن العمل وتضييع الأوقات وهدر الطاقات والسفه في الأموال، وفي المقابل فإن قيم العدل والحرية والعلم والعمل والوحدة واستثمار الأوقات واستسناح الفرص والاقتصاد بالأموال، هي الروافع الحضارية التي يقوم عليها بنيان أي أمة!

وقد استقرأ العلامة ابن خلدون الحضرمي عوامل قيام الدول وسقوطها وأدرك كيف تصنع هذه العوامل بأصحابها، حتى أنه عَنْون أحد فصول كتابه (المقدمة) بالقول «فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران»، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أبعد من ذلك حينما أكد أن «الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة على الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة»، وهذا ما نشاهده في واقعنا عياناً بيانا!

فهل أدركنا ماذا يعني أن يكون الله (سريع الحساب)؟ ولماذا كررها ربنا ثمان مرات في القرآن بجانب مرتين بصيغة ﴿سريع العقاب﴾؟

ازدواج الجزاء في المعاش والمعاد

_ الثواب الدنيوي والأخروي:

حينما يتم ذكر الثواب الإلهي على العبادات أو بعضها، تذهب خيالات أغلب المسلمين إلى الثواب الأخروي فقط، وهؤلاء يشكلون تيارا عريضا انبنت تصوراته وتصرفاته على أساس الانسحاب الواعي أو غير الواعي من الدنيا إلى الآخرة، ويفسر هؤلاء سائر الآيات ذات الصلة بطريقة ترسخ هذا الاعتقاد وتعزز هذا الفهم المنقوص!

لكن القرآن الكريم يخبرنا في العديد من آياته أنه بجانب الثواب الأخروي يوجد ثواب دنيوي على الإيمان وعمل الصالحات وسائر العبادات، وقد جاء ذلك في معرض الرد على طالبي الثواب الدنيوي دون التفات إلى الثواب الأخروي، كما قال تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا﴾ [النساء: ١٣٤]، فثواب الدارين ملك يمينه عز وجل، ومن حق البشر أن يختاروا لأنفسهم ما يريدون، والله مطلع عليهم فهو يسمع أقوالهم ويبصر أفعالهم!

_ الاقتران الشديد بين الدنيا والآخرة:

حينما نفتش عن الخصائص العامة للإسلام سنجد أن التوازن قيمة حاضرة في تكوين الذات الفردية والأسرية والاجتماعية، وهناك توازن بين الحقوق والواجبات، وتوازن بين كثير من الثنائيات الجدلية في الفكر الديني والبشري، ومنها ما نحن بصدده هنا وهو التوازن بين الدنيا والآخرة.

ولأن القرآن الكريم أحكمت آياته من لدن حكيم خبير، وصاغه من خلق البشر ويملك العلم المطلق بتركيباتهم وطبائعهم وبكل الموجودات في الأرض، فإن القرآن يقيم توازناً صارما بين الدنيا والآخرة، وما يثير اندهاشنا في هذا الشأن أن التوازن بين الدنيا والآخرة في القرآن وصل إلى حد التساوي التام في عدد مرات ذكر كل اسم، فقد

ذكر اسم الدنيا ١١٥ مرة وذكر اسم الآخرة ١١٥ مرة، وفي مرات كثيرة يتم ذكر الاسمين متجاوربن مع تقديم الدنيا دوما على الآخرة لأنها دار العمل وتلك دار الجزاء، مع وجود إشارات مبثوثة في ثنايا القرآن إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن العروج إلى فردوس السماء يتم عبر فردسة الأرض وفق تعاليم الكتاب الذي أخبر جل في علاه بأنه يهدي للتي هي أقوم، وبالطبع فإن هذا ينطبق على كل ميادين الحياة وشؤونها!

_ الثوابان الدنيوي والأخروي:

ذكر الله في مواضع عديدة من القرآن أن عقابه للظالمين من الكفار يتم في الدنيا والآخرة (مثل: آل عمران: ٥٦)، وأنه يحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة (مثل: آل عمران: ٢٢).

وفي المقابل قال عن صنف من المؤمنين: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ومع أن كلمة الثواب تعني الأجر الذي يفوق العمل بكثير، فإن إضافة كلمة حسن قبل الثواب الأخروي دون الدنيوي لفتة مهمة إلى أن قانون الثواب الدنيوي يقوم على قاعدة العدل؛ حيث يشترك المسلمون مع غير المسلمين في التنافس داخل هذا المضمار، بل وقد يتفوق غير المسلمين في مجال القيم الحضارية التي تفردس الدنيا كما نرى في عصرنا والتي سماها القرآن الصالحات واعتبر أن أصحابها هم الصالحون الذين يستحقون وراثة الأرض!

لكن قاعدة الثواب الأخروي تقوم على الفضل الإلهي لمن استقاموا على الطريق؛ ذلك أن عظمة الجزاء في الجنة لا تقارن بحجم الأعمال الصالحة في الدنيا، ولذلك ختم تعالى الآية بقوله: ﴿والله يحب المحسنين﴾، والإحسان هو أعلى درجات العطاء المادي والمعنوي والإتقان العملي، وكل ما يحبه الله من عباده يبدأ به تعالى من خلال تعامله مع عباده!

التواشُج بين جنتي الأرض والسماء!

لقد وعد الله المؤمنين الذين يخافون مقام ربهم فيعظمونه حق التعظيم ويعبدونه حق العبادة، وعدهم بأن يسكنهم الجنة في الآخرة،وهذا أمر مفهوم لدى جميع المسلمين تقريبا، وقد ورد ذلك بوضوح في آيات غير قليلة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وتكمن المشكلة في أن أعدادا ضخمة من المسلمين تقصر الجزاء دوما على جنة الآخرة؛ نتيجة تسيد أنماط متعددة من التدين المغشوش أو المنقوص، وهي أنماط وافدة من الأديان اللاهوتية التي تقصر العبادة على تنظيم العلاقة بين العبد وربه وتهمل الإنسان، وعندما ننتقل من المدخلات إلى المخرجات نجد نفس التضييق للجزاء بحيث يستوعب الآخرة دون الدنيا!

وبصدد تحديد الجزاء على الخوف من مقام الله نجد آية صريحة واضحة تذكر السكن في هذه الأرض، كجزاء دنيوي سابق للجزاء الأخروي، ففي سياق الرد الرباني على الكافرين الذين توعدوا رسلهم بالإخراج مما سموها بأرضهم إن لم يعودوا إلى ملتهم الجاهلية، وعد الله بإهلاك الظالمين، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

ويلفت نظرنا في هذا النص عدم تعيين زمان أو مكان لهذا الوعيد الرباني للظالمين والوعد الإلهي للمتقين، مما يؤكد أن هذا الأمر سنة ثابتة مهما تغير الزمان والمكان والناس، إذ أن طبائع الكفر والظلم واحدة، والرد الرباني ثابت لا يتبدل ولا يتخلف!

لكن وعد الله هذا لا يتحقق بمعجزات وخوارق غيبية، وإنما من خلال السنن التي تعتمل في الحياة والتي أودع الله فيها مشيئته، وتمثل امتحانا ابتلائيا لعقول المؤمنين وعزائم المتقين وهمم الصالحين، ولا يمكن استثمار هذه السنن إلا عبر تضحيات المجاهدين

ومصابرة الحاضنة التي يعيشون فيها من المؤمنين.

ومهما يكن الأمر فإن المنهج القرآني يؤكد هنا، وفي مواضع أخرى كثيرة، أن الجزاء مزدوج على الخوف من جلال الله والخشية من عظمته، ذلك الخوف الذي يثمر تفتق الأعمال الصالحة من أكمام العبادات، ومن أرحام العبادات اللازمة تولد العبادات المتعدية، وبمراكمة هذه العبادات ولا سيما المتعدية إلى الناس والمسماة بالفرائض الكفائية، يتم توريث الأرض للصالحين وتحقيق التمكين الدنيوي للمؤمنين العاملين، وهم الذين يسعون لفردسة أرضهم من خلال منهج متكامل يزخر بالقيم المسؤولة عن إقامة الحضارة، وأهمها العلم والعمل والعدل والمساواة والحرية والوحدة.

وعمارة الدنيا هي وسيلة لوراثة الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ من الدنيا﴾ [القصص: ٧٧]، ووصف الله الذين تربّوا على يد من وجّه له الأمر الوارد في الآية السابقة، فقال عز من قائل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [النور: ٣٧]، وكأنه يقول بأن من صفات الرجال الحقيقيين الانهماك في عمارة الدنيا من زوايا تخصصاتهم المهنية، وفي ذات الوقت فإنهم يتصلون بالله ويبتغون مرضاته ويعملون بدأب من أجل دخول جنته، ولا يمكن أن تلهيهم الدنيا عن الآخرة، والتجارة هنا مجرد مثال، حيث تبقى الدنيا وسيلة تعمل جوارحهم من أجل عمارتها بينما تظل الآخرة غاية تملأ جوانحهم!

القوام المعنوي للحياة

الحياة هي المرآة التي يتجلى فيها جمال الإنسان أو قبحه، خيره أو شره، سموّه نحو درجة الملائكية أو انحطاطه في اتجاه دركة الشياطين، وكما أن للإنسان قوامين متصلين بالجانبين المادي والمعنوي (الروحي)؛ فإن للحياة قوامين بذات الطريقة.

وحينما نتمعن في آيات القرآن سنجد أن الله تعالى قد جعل الماء عماد القوام المادي للحياة، كما قال جل شأنُه: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، واستخدم القرآن مصطلح شيء ليشمل الإنسان والنبات والجماد من باب التغليب لأن الجمادات أكثر من النباتات والكائنات الحية، أو أنه أراد القول إن الماء عماد حياة الأشياء الجامدة فمن باب أولى الكائنات الحية، مع وضع كلمة كل قبل شيء لتشمل كل أحد وتستغرق كل شيء، وهذا ما يؤكده العلم الحديث، وبإمكان القارئ الكريم البحث عن التفسير العلمي لهذه الآية أو الإعجاز العلمي فيها وسيجد الكثير من العجائب!

وبالنسبة للإيمان فإنه عماد القوام الروحي، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؛ لأن الإنسان بدون عقل يتفكر وقلب يتدبر، ومن دون مشاعر ترفرف في الآفاق وأحاسيس تطير في الأجواء، إنما يصير أقرب إلى الأنعام أو الأموات كما وصف الكفار والمنافقين في أكثر من موضع في القرآن الكريم!

ورغم أن الماء شيء مادي والإيمان شيء معنوي فإنه يوجد بينهما قدر من التشابه، ويتجسد الجانب الأكبر من التشابه في أنهما سببان أساسيان لحياة الإنسان على هذه الأرض، وبدونهما تتصحر الأرض ويجدب القلب، وتأتي رياح الشر الخريفية على أوراق الخير الإيمانية!

وكما أن الماء يتكون من اتحاد عنصري الهيدروجين والأوكسجين، فإن الإيمان يتكون من امتزاج عنصري العلم والإخلاص، ومن العجيب أن القرآن استخدم المثال المائي

حينما تحدث عن فقدان الأعمال لعنصري العلم والإخلاص أو أحدهما، فقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا..﴾، والأعمال هنا هي التي يتوافر لها عنصر العلم الذي يمنحها الشكل المادي، لكنها تفتقد للروح وهو الإخلاص، ولذلك فإنها لا تصير ماء يروي وإنما مجرد سراب يخدع الرائي!

ومن المؤكد أن الإيمان الحق يثمر أعمالا صالحة، لكن الأعمال بدون علم تصير ضلالاً يبتعد بالمرء عن جادة الاستقامة، وإذا فقدت عنصر الإخلاص صارت رياء ناقعاً!

مراعاة التكوين المزدوج للإنسان ورعايته!

_ خدمة القبضة والنفخة!

لأن القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته وتنزّل من لدن حكم خبير ومن قادر اجتمعت في يديه مقاليد الخلق والأمر؛ فإنه دقيق في كل تعاليمه، ولا ينسى في أي موقف يعالج فيه حاجات الإنسان مهما كان بسيطا، أن الكائن الآدمي مخلوق من قبضة الطين ونفخة الروح، مثل قوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا﴾ [النساء:]، حيث يوجه المولى عز وجل أصحاب الميراث الذين يقومون بقسمة ما ترك لهم المورث من مال، أن لا ينسوا أن هذا مال الله في الأصل، ومن ثم فإن عليهم أن يمنحوا شيئا منه لمن حضروا القسمة من الأقارب الذين ليس لهم نصيب في الميراث ومن اليتامى والمساكين الذين يعيشون بالقرب منهم، وبالطبع فإن المال المعطى لهم يملك القدرة على توفير حاجات البعد الطيني في الإنسان، ولذلك فإن النفخة الروحية التي منحت الإنسان الكرامة والأفضلية على سائر الموجودات تحتاج إلى شيء من الدعم في نفس الوقت، ولذلك فقد ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾، فقول المعروف يحافظ على القوام المعنوي للإنسان!

ونهى الإسلام كثيرا عن ممارسة المعطي المن والأذى مع المعطى له، لأن العطاء المادي يعزز البعد المادي، والمنّ أو الأذى يهدر البعد الروحي أو المعنوي وهو أثمن وأكثر نفاسة من الجثمان المادي.

ولما كان درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة بلغة علماء الأصول، فقد فضّل القرآن منع المال مع قول المعروف على إعطاء المال المقرون بالمن والأذى، فقال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ [البقرة: ٢٦٣]، وأتمنى من قرائي الأعزاء أن يتأملوا العلاقة بين معنى الآية وبين ختمها باسمي الغني والحليم.

_ خطورة التفاصيل:

لا ينبغي أن ننسى أبدا أن الإنسان كائن ذو بعدين ترابي وروحي، وبسبب بعده الترابي فإن إمكانات الخطأ والقصور ثاوية في تكوينه، ويمكن أن تظهر الأخطاء في اعتقاده وقوله وفعله. وبالنسبة للقول فإن أخطاءه تنبثق بقوة حينما يخوض في تفاصيل أي موضوع دون امتلاك العلم ودون أن يكون قد أحكم ما يريد قوله من البداية.

ومن المعلوم أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ والسبب هو أن قائله هو الله الذي أحكمه أولا ثم فصله، كما قال تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ [هود: ٢]، وقد أشار في آية أخرى إلى دور العلم في تفصيل الآيات فقال: ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم..﴾ [الأعراف: ٥٢]، وكأن باطن الآية يقول إن الخوض في التفاصيل يحتاج إلى علم أكبر وأعمق، وهذا يحثنا على التعمق في كل قضية ندرسها أو ندلو برأي فيها، أو الجنوح نحو الصمت وعدم الخوض في ما لا نتقن، ومن المعالم الأساسية في تأديب الله تعالى لحبيبه محمد عليه السلام، قوله عز وجل ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وهي دعوة لا نظير لها في كافة الكتب المقدسة للانضباط المعرفي والتحلي بالروح العلمية!

تمازجُ التبشير والإنذار

لأن الله تعالى خلق الإنسان من القبضة الطينية والنفخة الروحية، ولأنه يعلم طبائع خلقه وهو اللطيف الخبير؛ فإنه يستخدم التبشير والإنذار في التأثير على قلوبهم حتى تندفع لمعرفة مراد الله بقوة وتطبقه في حياتها بصرامة، بحيث لا يجد الرحمن عبده عند نواهيه ولا يفقده عند أوامره، وبحيث يقرأ آيات الترغيب فينبعث في وجدانه الرجاء ويقرأ آيات الترهيب فيشتعل في صدره الخوف، وقد تكرر هذا الأمر في عشرات الآيات من القرآن بمختلف الصيغ والأساليب، ومنها ١٦ موضعا اقترن فيها لفظا التبشير والإنذار مع بعضهما، وبهذا التمازج فإن قارب الرجاء لا يمكن أن يوصل العبد إلى شاطئ الأمن من مكر الله، وقارب الخوف لا يمكن أن يوصله إلى القنوط من رحمة الله!

وهناك مقامات يتغلب فيها الإنذار أو التبشير، لاقتضاء السياق ذلك، ومع هذا فإن الأمر لا يخلو من إشارة إلى الشق الآخر من عملة تحريك الوجدان!

وعلى سبيل المثال هناك موضع اشتد فيه وعيد الله، حتى أنه استخدم أسلوبا فريدا في الترهيب، وهو تحذيرهم من نفسه عز وجل، ورغم ذلك فقد مزج الله وعيده الشديد بإشارة لطيفة لرأفته بعباده، فقال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ [آل عمران: ٣٠]، حيث حذر عباده من أن يوما سيأتي لا محالة ستُحضر فيه كافة أعمال العبد وتوضع أمامه بأبعادها القبيحة وتفاصيلها المخزية، منذ أن وصل إلى سن التكليف حتى حلول الأجل، كما قال عز من قائل: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر﴾.

ولأن المقام في الأصل مقام وعيد فإن التعبير القرآني يُعرض عن ذكر من اجترح المآثر ولاقى حسناته، تاركا الخيال يفعل فعله في هذا الموقف الفرائحي الضخم، ويذهب إلى من جمع القبائح وأعمال السوء والذي يتمنى أن تقاس المسافة بينه وبين أعماله السيئة

بالمقاييس الزمانية لا المكانية (أمداً بعيدا)، كناية عن الرغبة بالبعد الشديد عن خطاياه التي تجسدت في صورة وحش يريد افتراسه، كما نفعل في زماننا بقياس المسافات الكونية البعيدة عبر ما تسمى بالسنين الضوئية، وهذا الأسلوب أشد وطأة من قوله تعالى على لسان العاصي لربه، وهو يتحدث عن قرين السوء:﴿يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾[الزخرف: ٣٨]، وبالطبع فإن الأماني لا تغني عن أصحابها شيئا، ما لم يكن المرء قد استغل دنياه لعمارة آخرته!

وقد عزز الله هذا التخويف بوعيد شديد اللهجة، قال فيه تعالى:﴿ويحذركم الله نفسه﴾أي: انتبهوا أن تجدوا أنفسكم في مواجهة مباشرة مع الله عز وجل واحذروا العقاب الذي يليق بعظمته وجبروته، لكنه كعادته تعالى دائما في المزج بين الوعد والوعيد يُرسل جرعة رجاء وومضة أمل، وذلك بختم الآية بذكر رأفته ورحمته، حيث قال عز من قائل: ﴿والله رءوف بالعباد﴾، كأنه يقول إن الأصل فيه عز وجل هو رأفته بعباده فلا تظلموا أنفسكم باستثارة وعيده واستجلاب عقابه الأليم!

ولا يجدر بنا أن نختم الآية دون الإشارة إلى أن هناك من اعتبر أن هذه الجملة ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ تتمة لجملة الوعيد، بمعنى أن تحذير الله لعباده من نفسه إنما هو من رأفته بهم، كما ذهب إلى ذلك سيد التابعين الحسن البصري، ومهما يكن الأمر فالنتيجة واحدة، وهي المزج الحكيم بين التبشير والإنذار، بحيث يظل التوازن قائما بين الرجاء والخوف.

عقلنةٌ الجوارح!

_ نظر الأنعام:

خاطب الله نبيه محمدا عليه السلام، فقال له عن صنف من الناس: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وهؤلاء هم من أوغلوا في التسفل والانحطاط حتى صاروا مثل الأنعام في عدم سماع أصوات الهداية رغم نقائها، وعدم رؤية الحقائق التي تعتمل في الواقع رغم نصاعتها، إنهم كالدواب في بهيميتها، فقد سخّروا جوارحهم فقط لصالح تلبية نزواتهم وتحقيق غرائزهم، وإن كان لهم من عقول نسبية فقد ملأوها بثقافة القطيع الاجتماعي الذي ينتمون إليه، ولذلك فإنهم في نظرهم للرسول، ولكل ممثل للحق في أي زمان أو مكان، لا يرون شخصيته النبوية أو الدعوية وإنما يرونه في صورة منافس للقطيع الذي ينتمون إليه، ولأن عقولهم معطلة فإنهم قد يسيرون في هذا الدرب إلى آخر المشوار، ولا غرابة أن نجد هؤلاء يقولون في الآخرة: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠]، فقد مكنتهم عقولهم أخيرا من إدراك أنهم كانوا لا يعقلون!

_ فهم الجوارح:

وصلت عناية القرآن بالعقل والفكر والفهم إلى سدرة المنتهى، ومن صور هذا الاهتمام أنه جعل الجوارح أداة للفهم مثل العقل والقلب، فالسمع لا يقصد به سماع الصوت فقط وإنما فهمه أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾، فلا يقصد هنا أن آذانهم تعاني من الوقر أو الصمم وإنما من عدم الفهم.

وكذلك الأمر بالنسبة للنظر فإن آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعو للسير في الأرض والنظر إلى آيات الله، ولا تقصد النظر المجرد بجارحة العين وإنما النظر ببصيرة القلب وكاشفة العقل، أي الفهم والاستيعاب والاستفادة من هذه الآيات في دائرتي الاستهداء

و الاستبصار، وهذا هو الاستبصار المطلوب بآيات الله.

_ عمى العقول:

إن عدم القدرة على رؤية العواقب التي تتخفى وراء جدران الوقائع وتختبئ في ردهات الحاضر، وعدم إبصار المآلات التي تلوح في الأفق الملبد بغيوم الفتن، لهو صورة من صور العمى الذي لا يمكن أن يصاب به صاحب الإيمان الحي؛ ولهذا فقد وصف الله غير المؤمنين بأن ﴿لهم أعينٌ لا يبصرون بها﴾، ومركز الرؤية في هذه الحالة هو القلب، كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

والعكس بالعكس فإن صاحب الإيمان الحي يمتلك البصر الذي يعينه على استبصار المستقبل، ويتحلى بالبصيرة الحادة التي تعينه على ارتياد المستقبل ليتمكن من اكتشاف المآلات وإدراك العواقب، ومن ثم فإنه يبني خططه على هذا الأساس.

من زوايا الضعف البشري!

_ تجاوز الغفار عن الضعف الترابي:

أخبرنا القرآن في بعض مواضعه بأن الإنسان كائن ضعيف، وأوجد الهادي منهجا للارتقاء بالإنسان من ثنايا ضعفه إلى فراقد القوة، وعنوان هذا المنهج هو الإيمان، بحيث كلما زاد الإيمان قلّ الضعف، لكن الكمال يظل مستحيلا، والعصمة ماركة خاصة بالأنبياء حينما يتعلق الأمر بالوحي والبلاغ!

ومهما كان صلاح الإنسان وتقواه فإن ضعفه البشري المنبعث من التكوين الترابي، يؤثر عليه في بعض الظروف والزوايا مع الاختلاف النسبي بين الأشخاص، ويظهر الضعف في شكل معاصي صغيرة وأخطاء وتجاوزات، يُنتجها النسيان أو ضعف الإرادة أو قلة التوفيق أو الاغترار بالذات أو الركون إلى الأعمال أو المقارنة بالأسوأ أو غلبة التيار الاجتماعي، وهذا ما نراه في الواقع العملي حيث يستحيل على أي امرئ الانفكاك من ضعفه تماما.

وحينما نقرأ قوله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢]، فقد يتساءل البعض قائلا: إذا كان المرء قد تاب وآمن وعمل صالحا ثم استمر في اهتدائه وثباته على الطريق، فمن أي ذنب سيغفر الله له؟

وجواب هذا السؤال من وجهين:

الأول: أن المقصود به من اقترف الخطايا مهما كانت، ويؤيد ذلك أن الله استخدم مصطلح المغفرة الذي يتصل بالذنوب المقترفة في الماضي حينما يحضر الاستغفار، واستخدم فعل الاهتداء بعد التوبة والإيمان وعمل الصالحات، لما يحمل من معنى الثبات على الاستقامة وعدم الارتكاس ثانية في اقتراف الكبائر.

الثاني: أن المقصود به من كان سائرا على الدرب مداوماً على عمل الصالحات، لكنه لا يخلو

من قصور هنا أو تقصير هناك؛ بسبب تركيبته البشرية؛ بدلالة أنه تعالى استخدم لام التوكيد (لغفار) مع صيغة من صيغ المبالغة (غفار) وهو على وزن فعال الذي يدل على الكثرة، وهذا يشير إلى كثرة الصغائر وتكرار الوقوع في اللمم، فما دام يؤدي الواجبات ويجتنب الكبائر ويحرص على عدم الوقوع في الصغائر، لكنه يقع بسبب ضعفه أو نسيانه، فإنه يمتلك عهدا من الله بأن يغفر له، وقد منحه الله محطات يومية وأسبوعية وسنوية للغفران والتنقية!

_ مراعاة الاستطاعة:

من يتدبر القرآن الكريم يدرك أن الله يراعي ضعف الإنسان من خلال منظومة كاملة؛ حيث يأمره في التنزيل بالاجتهاد في بلوغ الوضع المثالي لكنه يراعي واقع الإنسان فلا يلومه على عجزه عن البلوغ، ولا يحاسبه إلا على قدر ما يملك من مواهب وقدرات وطاقات، ويؤكد الله مراعاته للفروق الفردية فيقول تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾ [التغابن: ١٦]، فالتقوى قيمة مطلقة ولذلك فإنها مطلوبة من المسلمين جميعا، لكن الاستطاعات نسبية، ولذلك فقد أكد الله أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقال: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ [الطلاق: ٧] أي بحسب ما آتاها من مواهب وقدرات وطاقات.

_ تمثيل مشاهد دنيوية:

قال تعالى عن تنعم أهل الجنة: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ [الطور: ٢٢، ٢٣]، فما معنى التنازع هنا؟

ذهب عامة المفسرين إلى أن التنازع هنا يعني التعاطي، فكل شخص يأخذ كأس الخمر ممن بجانبه وهو يعطيه، لكن التنازع في اللغة العربية يحمل معنى الاختلاف والخصام، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، ومن ثم فإن معنى التعاطي غير دقيق!

وبعد تأمل النص وتدبره بدا لي أن الذين يتنازعون كأس الخمر هنا يتذكرون ضعف البشر في الدنيا فيستدعون مشهدا من مشاهدها، ذلك أن التنازع ظاهرة دنيوية ولا مكان له في الجنة، فكيف إذا كان التنازع على كأس خمر، والجنة تزخر بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟!

طبائع بشرية

_ الطمع البشري:

عن التجربة الأولى للحياة الإنسانية في الجنة قال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ [البقرة: ٣٥]، بمعنى أن الإنسان بأكله للحرام إنما يظلم نفسه؛ لأنه يجر عليها ويلات وأضرارا متعددة قبل مجيئ العذاب الأخروي!

ونعود لنتساءل: كم ستكون مساحة الشجرة إلى مساحة الجنة؟ ولو افترضنا أن في الأكل من الشجرة متعة، كم ستكون لذة هذه المتعة بجانب لذائذ الجنة كلها والحياة الرغيدة فيها؟!

لكن الطبع الآدمي الناتج عن تأثير التراب يبحث دائما عن الممنوع ويعتقد أن سعادته ثاوية فيه، وقد سنّ لهم هذا الطريق أبوهم آدم حينما ظن أن إكسير خلوده يكمن في الأكل من تلك الشجرة، ومهما يكن فقد أدى الطمع بالشجرة إلى فقدان الجنة كلها!

وبالطبع فقد حدث ذلك بالتعاون بين النفس الأمّارة بالسوء وبين الشيطان الذي أقسم أن يحتنك ذرية آدم ويوردها النار إلا المعصومين منهم، وقد أشار القرآن إلى هذا الدور الإبليسي في الآية التي أعقبت الآية السابقة، قال تعالى: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [البقرة: ٣٦].

_ الثقة العمياء في التسويل والتزيين:

عندما يترك الإنسان حصن الطاعة لربه، فإنه يصير بين مطرقة النفس وسندان الشيطان، ويصبح حينئذ أسيرا لتسويلات نفسه ووسوسات شيطانه، وما تفتأ تتضافر

مع بعضها حتى تزين له ما يختلج في صدره من إثم وما يعتمل بين يديه من ظلم، مما يجعله يتمادى في غيه، ويصم أذنيه عن سماع أصوات الناصحين الذين قد يكونون حادبين به مشفقين عليه، كحال نوح مع ابنه الذي رفض الاعتصام بالله من الطوفان واعتصم بدلا عنه بالجبل، وحال إبراهيم مع والده الذي ظل يقينه قويا بالأصنام التي يصنعها بيديه، حيث نجح الخليل في تحطيم الأصنام الرابضة في المعبد لكنه لم ينجح في تحطيم الصنم الذي يسكن قلب والده؛ لأن الوالد رفض سماع صوت ابنه وظل أسيرا للتسويل والوسوسة!

وما ينطبق على الأفراد في هذا الأمر ينطبق على الجماعات والأقوام، وأمامنا نموذج لقوم ثمود الذين كفروا بصالح وربه، وبعد أن عقروا الناقة ولم يحدث لهم شيء على الفور ازداد تماديهم حتى أنهم تحدوه أن يأتيهم بالعذاب، قال تعالى: ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما. تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ [الأعراف: ٧٧]، وهذا التمادي المعبر عنه بالعتو ناتج عن ثقة عمياء بتزيين الشيطان وتسويلات النفوس الأمارة بالسوء!

ومن قبلهم قال قوم نوح لنبيهم: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [هود: ٣٢]، أما كفار قريش فقد زادوا على من سبقهم بالاستهزاء والسخرية من الأمين محمد عليه السلام، قال تعالى على ألسنتهم: ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ [الحجر: ٦، ٧]، فقد سخروا من تنزل الوحي عليه واتهموه بالجنون والكذب في آن واحد، مع أنهم هم من لقبوه بالصادق الأمين قبل تنزل الوحي عليه!

ونلاحظ هذه الثقة العمياء بعدم صدق المرسلين موجودة عند كل الكافرين، وكأنهم ينهلون جميعا من مشرب واحد!

سلائق بشرية

_ الاستغناء يولّد الطغيان:

أخبرنا القرآن بأسلوب واضح بأن شعور الإنسان بالاستغناء عن غيره يولد الطغيان الكامن فيه من آثار القبضة الترابية، فقال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦، ٧]، وبجانب الوضوح التام أضاف النص التأكيد باستخدام حرفي اللام وإن!

ومن هنا فقد فتّت الإسلام السلطة عبر الشورى وتوزيع مقاليد المجتمعات بين الأمراء والعلماء وأصحاب الحسبة، وفتّت المال عبر أنظمة الميراث والصدقات والأوقاف والزكوات والهبات والنذور والهدايا، وشرع العديد من القيم النفسية والخلقية والإجرائية التي تمنع تورم الذات، وما على المسلمين إلا إعمال عقولهم في ابتكار المزيد من الأفكار والوسائل والأساليب والآليات التي تضمن أن لا يكون المال دولة بين الأغنياء منهم، وأن لا يتم توريث السلطة بعيدا عن الأمة ولا تجتمع مقاليد البلاد والعباد بيد شخص أو أشخاص قليلين، مع الاستفادة من تجارب وخبرات غيرهم في هذا المضمار!

_ التقلب بين اليأس والفرح:

أورد الله بعض السلائق البشرية المنبعثة من أكدار التراب، فقال عز من قائل: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ [هود: ٩، ١٠]، وحينما يقول القرآن (الإنسان) فإنه يقصد كل واحد من الناس، حيث يتقلب الآدمي بين وضعين متناقضين دوما، فحينما يبتليه الله بالضراء تنبعث من بين أكوام التراب سلائق اليأس والقنوط والكفران، وعندما يبتليه بالسراء تنبعث في شخصيته أكدار الفخر والخيلاء والغرور وتنتصب أوهام التميز والعبقرية والتفوق، وبين منزلتي الكفور والفخور يترنح الإنسان وقد يخر صريعا فيخسر تقواه لصالح الفجور، ونلاحظ كيف استعمل القرآن أسلوب

التوكيد في الحالتين، باستخدام حرفي التوكيد إن واللام؛ دلالة على أصالة هاتين السليقتين في تركيبة الإنسان، ومن ثم لا مخرج منهما إلا بما أورده الله في الآية التي أعقبت الآيتين السابقتين، وهي قوله عز وجل: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ [هود: ١١]، بمعنى أنه لا خلاص من هذه السليقة إلا بالصبر على ابتلائي الشدة والرخاء وعدم الانجرار وراء مشاعر الطغيان أو الكفران، واستحضار القدَر الذي جعله الله ركنا من أركان الإيمان حتى يمنع الإنسان من الوقوع في فخّ الأسى على ما فات أو الفرح بما تحقق، ثم إدراك حقيقة الابتلاء عبر الانشغال بعمل الصالحات على كل الصعد مهما كانت الظروف والأسباب لأن وظيفته هي الانهماك في العمل العبادي حتى يأتيه اليقين.

وتشير الآية في خاتمتها إلى الضعف البشري، وهو سليقة أخرى، فتقول: ﴿أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾، حيث أن (المغفرة) تعالج ما قد يخفق فيه الإنسان من صبر في بعض الأحيان، رغم بذله الجهد لتجاوز مشاعر العُجب أو القنوط، وفي المقابل فإن (الأجر الكبير) لمن نجحوا في هذا الابتلاء الصعب وخرجوا سالمين من مخالجة هواجس التميز أو اليأس!

_ تحفيز على النجاح:

وقد تكرر توصيف السليقة السابقة في عدد من آيات القرآن، ومنها آية أوردها الله في سياق التهوين على الرسول من إعراض الناس والتأكيد على أنه لم يرسله عليهم حفيظا، وأن واجبه نحوهم لا يخرج عن البلاغ، ثم قال عز وجل في ذات الآية: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ [الشورى: ٤٨]، وكأنه يقول له لا مسؤولية عليك في إعراضهم وإنما يتحملون هم مسؤولية أنفسهم، ولو تأملنا الجملة الاعتراضية ﴿بما قدمت أيديهم﴾؛ لوجدنا أنها بقدر ما تؤكد أن المصائب من كسب الإنسان، فإنها تتضمن تحفيزا على تجنب الوقوع في المصائب والسيئات حتى لا يستدعي ذلك الوقوع انبعاث سليقة الغضب من الأقدار والاندفان تحت أثقال الكفر!

خيباتٌ التعجّل!

_ إضعاف التعجل للصبر:

التعجل طبيعة بشرية فرضته خلقته الأولى من التراب، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿خُلق الإنسان من عَجَل﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وتؤكد هذه الجملة أصالة طبع التعجل في تكوين الإنسان وكأن التراب الذي خلق منه قد صار كله عجَلاً أو تعجلا، أو كأن جميع أكدار التراب كلها قد اختزلت في العجلة؛ ذلك أن التعجل ينعكس على طرائق تفكير الناس وسلوكياتهم بشكل واسع، مثلما ورد في قوله تعالى: ﴿ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾ [الإسراء: ١١].

ويبدو أن هذه الطبيعة كانت أحد العوامل الأساسية التي جعلت الأغلبية الساحقة من البشر تقدم الدنيا على الآخرة في الطلب، وبسبب هذا التعامل فقد سمى الله الدنيا ب(العاجلة) في ثلاثة مواضع منه، كما في قوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

ومن المرجح أن طبيعة العجلة الثاوية في تركيبة يونس عليه السلام هي التي ضغطت على صبره، وجعلته يستبطئ إيمان قومه ويغضب منهم تاركا إياهم في غيهم يعمهون، فحدث له ما حدث مما ذكره القرآن!

وقد أوصى المولى عز وجل خاتم أنبيائه بأن يلتحق بركب أولي العزم من الرسل، من خلال الرسوخ في الصبر وعدم العجلة، فقال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ونفهم من كلمة (لهم) الواردة في النص السابق أن الله نهاه عن التعجل حتى لو بدا الأمر لصالحهم، وليس المقصود استعجال العذاب الذي يطلبونه، ذلك أن الرسول كان رحمة خالصة كما وصفه ربه، ولم يطلب لهم عذابا يستأصل شأفتهم أبدا!

_ استعجال العذاب:

أورد القرآن الكريم في ثلاثة مواضع منه أن المشركين استعجلوا النبي ﷺ في نزول العذاب عليهم، وذلك بصيغة ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾، والفعل المضارع يفيد التكرار والاستمرار في هذا الطلب، وهناك صيغ أخرى وردت في طلب العذاب، مثل دعوة أحد كبراء قريش الأحمق حينما قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطِر علينا حجارة من السماء..﴾، وحدث مثل هذا من قبل جميع الكفار مع كافة أنبيائهم؛ مما يوضح بجلاء أن العجلة طبيعة بشرية عامة!

_ العَجَلةُ تصنع العِجل:

من المعلوم أن موسى قد ضرب ربه له موعدا كي يذهب مع مجموعة من قومه لمكالمة الله في جبل الطور بجزيرة سيناء، لكن الكليم موسى دفعه شوقه للذهاب قبل حلول الموعد بمفرده، فسأله الله ربما سؤال المعاتب: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى. قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك ربي لترضى. قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾ [طه: ٨٣ _ ٨٥]، وكأن الآية تقول بأن حرق المراحل ضار مهما كان المقصد نبيلا والمراد ابتغاء مرضاة الله تعالى، وكأن فتنة بني إسرائيل واتخاذ العجل كان في جانب منه نتيجة لعجلة الكليم عليه السلام!

وبالنسبة لجانب بني إسرائيل فقد كانوا يعرفون أن موسى ذهب لميقات الله وكأنه ذهب يبحث عنه! وكانوا مسكونين بتصورات ذات قوالب مادية للآلهة، حتى طلبوا من موسى قبل هذا الموقف أن يجعل لهم إلها ماديا كما لبقية الشعوب آلهة من الأصنام، ولهذا فقد استعجلوا سماع صوت الله ظانين أن العجل الذي صنعه السامري هو من يبحث عنه موسى وأن الخوار (أستغفر الله) هو صوت الله، وعندما راجعهم هارون أصروا على أن يبقوا عاكفين عليه حتى يرجع إليهم موسى ليخبرهم إن كان هذا هو الإله الذي يبحث عنه أم لا!

وحينما عاد موسى وسمع منهم ومن هارون القصة، يبدو أنه اكتشف دور العجلة،

بجانب أسباب أخرى، في الوصول إلى هذه النتيجة القبيحة، فقال لهم: ﴿بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم..﴾ [الأعراف: ١٥٠]

_ الاستعجال في قراءة القرآن:

ورد في القرآن الكريم نهي الله للنبي ﷺ عن التعجل في قراءة القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربي زدني علما﴾ [طه: ٨٤]، ونلاحظ كيف ربطت الآية بين التمهل في قراءة القرآن وبين الاستزادة من العلم، وقال أيضا: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾[القيامة: ١٦، ١٧]، وهذا النهي جاء مع أن الحاجة كانت ماسة لحفظ القرآن قبل أن يجمع في مصحف واحد، حتى لا يضيع بعضه أو يتم تحريفه، وبعد أن تعهد الله بحفظه طالبا من المسلمين التركيز على التدبر، فإننا نجد أغلب المسلمين يعجلون في القراءة مركزين على الكم بحجة التبرك وطلب الأجر!

وكم تجد اليوم من يقرأ مصحفا كاملا على عجل ومن دون أن يخالط قلبه أي وجل، حتى أنه لا تهتز له شعرة ولا يقشعر له جلد ولا تذرف له دمعة خلال قراءته لأكثر من ٦٢٠٠ آية، بينما كان الرسول والصحابة يتمهلون في تلاوة القرآن حتى أن أحدهم قد يقوم ليلة كاملة في آية يرددها ويبكي!

أنواع الخوف

_ الخوف الطبيعي:

إن الخوف من الأخطار والمكروهات شعور غريزي طبيعي عند البشر ويحمله حتى الأنبياء منهم، فقد خاف موسى عليه السلام من فرعون حينما قتل قبطياً بالخطأ، وفرّ بسبب ذلك من مصر وبقي في مدين قرابة عشر سنوات، ويبدو أن خوفه لم يكن عابرا، فحينما وصل إلى مدين وقابل شعيباً عليه السلام قص عليه القصص فقال له كما جاء في القرآن: ﴿لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين﴾[القصص: ٢٥]، وحينما كلمه الله وأخبره بأنه رسوله، ثم أمره أن يرمي عصاه ورآها ثعبانا يتحرك خاف فنهاه الله عن الخوف لكونه أصبح رسولا، وخاف مرة أخرى من فرعون هو وشقيقه هارون حينما أمرهما الله بأن يذهبا لتبليغ رسالة الله إلى فرعون فأخبرهما الله بأنه معهما يسمع ويرى، وخاف حينما رأى أحابيل السحرة تتحول إلى ثعابين وحيات تسعى في مضمار المناظرة والتحدي!

والعجيب أن أكثر من أورد القرآن مواقف من خوفه الغريزي هو موسى عليه السلام، وهو من أقوى الأنبياء ومن أولي العزم من الرسل، ولا بد أن الله قد أعده ليقف في وجه أكبر طغاة الأرض، فكيف هذا بذاك؟

يبدو أن المولى عز وجل أراد أن يبين لنا بالموقف العملي أن الخوف الطبيعي مسألة لا تنفك عن الناس بحكم تكوينهم البشري الآتي من الطين!

وقبل الكليم موسى أخبرنا القرآن أن الخليل إبراهيم أوجس خيفة من الأضياف حينما قدّم لهم العجل السمين ورأى أن أيديهم لا تمتد إلى الطعام، وخاف الكريم يعقوب على ابنه يوسف من الذئب حينما طلب أبناؤه إرساله معهم!

وبعد موسى فزع داوود حينما تسور المشتكون المحراب عليه ووجدهم بين يديه فجأة!

وهكذا فإن الخوف غريزة بشرية، وقد يكون نعمة حينما يدفع المرء للاستيقاظ من الغفلة والتسلح بالأسباب، وعندما يترجم المشاعر النفسية إلى أفعال تمكن صاحبها من الاحتماء بالحذر والاستعداد لمواجهة الأعداء والكوارث!

_ خوف الاستشراف:

هناك خوف آخر ليس مشروعا فحسب بل هو مطلوب وهو الذي يقوم على استشراف المستقبل، عبر قراءة صحيحة للمعطيات الحاضرة، والتنبوء العلمي بطرائق تفاعلها وتطورها، والتوقع القريب من الحقيقة لمآلاتها، ومما ذكره الله في هذا الشأن خوف زكريا عليه السلام من مواليه، وخوفه منهم محمول على أحد أمرين أو كليهما:

الأول: أن يقوم ورثته وعصبته بوراثة ممتلكاته وظلم زوجته ومن كان يعولهم، وطمس ذكره.

الثاني: أن لا يقوم أقاربه بحق الله في إبلاغ دينه ومواصلة رسالته نحو المجتمع، فتتوقف هدايته عندهم ولا بستفيد منها الناس.

وقد تبنت كل احتمال من الاحتمالين السابقين طائفة من المفسرين، وكلاهما يحتملهما النص والطبيعة البشرية، ولذلك لا أستبعد أن يكون زكريا عليه السلام قد قصد الاثنين معاً حينما رفع تخوفه إلى الله.

فسينطلق في الاحتمال الأول من بُعده البشري، فالغريزة الطبيعية تجعل كل إنسان محتاجا إلى عقب يخلفه ويحب أن يكون له من يحمل اسمه ويرفع ذكره.

وسينطلق في الثاني من بُعده النبوي، حيث يدفعه الشعور بالمسؤولية إلى التفكير المتأني بمستقبل رسالته وكيفية المحافظة على استمرار رسالته في الهطول والإثمار؛ ولذلك دعا الله أن يهبه ولدا من صلبه يرث دعوته ويواصل جهاده ويستكمل تبليغ رسالته.

_ خوف السقوط في دوامة المعصية:

لقد دعا النبي ﷺ بالرحمة على من عرف قدر نفسه، كما هو معلوم، ومعرفة قدر

النفس تعني أن يعرف المؤمن نقاط قوته فيعززها ويستثمرها في تكثيف الطاعات وعمل الصالحات ومراكمة المنجزات التي ترضي الحق وتفيد الخلق، ويعرف نقاط ضعفه فيعالجها، وإن كانت من العيوب المزمنة فإنه يضع لنفسه حدودا حتى لا يُؤتى من قبلها.

ومن أمثلة هذا الأمر ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[النساء: ٣]، أي إن خفتم، من خلال ما تعرفونه في أنفسكم من صفات أو مفردات ضعف، أن لا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت ولايتكم، مثل أن لا تعطوهن مهور المثيلات أو أن لا تعاشروهن بإحسان، نتيجة أي صفة فيهن أو فيكم، فتجنبوا خوض هذا الامتحان ابتداء ولا تنكحوهن، بل انكحوا ما طاب لكم من النساء اللاتي ترون أنكم ستنسجمون معهن وتعطونهن حقوقهن كاملة غير منقوصة، فقد أباح الله لكم أن تنكحوا اثنتين أو ثلاثاً أو أربعا، وإذا شعرتم مرة أخرى بأنكم ربما لا تستطيعون العدل بين الاثنتين فما أكثر، من أي زاوية من زوايا العدل المطلوبة مع الزوجات والمعروفة في كتب الفقه، فاكتفوا بزوجة واحدة أو بما عندكم من الإماء، وهذا الاحتياط أقرب إلى التقوى وأنجى من الوقوع في حفرة الظلم والتعدي، ذلك أن عاقبة الظلم وخيمة.

انقلاب المصطلحات!

_ الغفلة الإيجابية:

مصطلح الغفلة في القرآن مصطلح سلبي في الأصل، ويطلق غالبا على المعطلين لعقولهم والذاهلين عن آيات الله المسطورة في كتاب القرآن والمنظورة في كتاب الكون، كما في قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ [الأنبياء: ١]، والغفلة المذكورة في الآية ليست بالمعنى البسيط المتبادر إلى الذهن، وإنما هي عنوان لعدد من الآفات التي نشأت في الذات بسبب ركود العقل وتبلد القلب وبسبب الانغماس المنفلت في اللذائذ والشهوات، لدرجة أوصلت أصحابها إلى الذهول عن اليوم الآخر، وكأن الموت هو نهاية قصة الإنسان!

لكن الغفلة وردت في آية واحدة بصورة إيجابية وعلى سبيل المدح، وهي قوله تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرة﴾ [النور: ٢٣]، فالغافلات هنا هن العفيفات المحصنات واللاتي لم يخطر على بالهن قط اقتراف أي أمر من اللمم وهي الصغائر التي تمثل مقدمات للزنا، فضلا عن التفكير بالزنا نفسه، وهذا يعني أنه لم يكن يوما خاطرة من خواطر القلب ولا فكرة من أفكار العقل ولا هما من هموم النفس، وهذه هي قمة العفة ومنتهى البراءة والشرف؛ ولذلك فإن من يقذف هؤلاء النسوة بسوء يستحق إقامة حد من حدود الله عليه وهو حد القذف!

وبالطبع فإن النساء لسن كلهن بهذه العفة والغفلة، لكن القرآن يتعامل بحسن الظن مع الجميع ويفترض أن كل امرأة عفيفة حتى يثبت العكس، ولا تسقط حرمة أي امرأة مهما ارتكبت من اللمم، ويظل القاذف عرضة لعقوبة القذف ما لم يُثبت بشهادة أربعة عدول أنهم رأوها في حالة زنا واضح، وهذا من باب صون الأعراض؛ لأن المرأة التي تلاك سمعتها تتعرض لتدمير مستقبلها، بجانب أن هذه الأقاويل صورة من صور إشاعة الفاحشة التي تضعف جهاز المناعة الاجتماعي!

_ مصيبة الحسنات:

كما أن المَضرّات قد تكون خيرا للمؤمن وتحمل له في طياتها ما يحب في المعاش أو المعاد؛ فإن الحسنات قد تكون مصيبة في مآلاتها، كما قال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾، والحسنة هنا ما تحمل للإنسان من الإحسان الذي يحبه في نفسه وماله وأهله ومصالحه، فهي مصيبة بحكم أن الله يبتلي المرء بذلك الإحسان، فإن شكر يكون قد نجح، وقليلٌ من عباده الشكور، وإن بطر وتكبر يكون قد كفر بالمنعم، ومن ثم صارت النعمة بالنسبة له نقمة أو مصيبة؛ ذلك أن امتحان النعمة أصعب من امتحان النقمة، كما قال أحد الصحابة الكرام: «ابتُلينا بالشدة فصبرنا، وابتلينا بالرخاء فلم نصبر»!

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾، أي بما يسرهم وما يسوؤهم، وقوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾، وما لم يكن المرء على درجة عالية من التزكي الذي يمكّن النفخة الروحية من ضبط القبضة الترابية، فإن مصيبة الحسنات ستبعث أدران العجب والغرور والشح والمنع والاحتكار والطمع وغيرها، بينما توقظ مصيبة السيئات الجزع والأسى والسخط على الأقدار وغيرها!

_ هداية المصائب:

قد يحمل المسلم بذرة الإيمان السليم في قلبه، لكن آفات الغفلة وران السيئات تغطي عليه وتمنعه من الانعتاق والإشراق، فتأتي المصائب كمطارق توقظ القلب الغافل والنفس السادرة، وتساعد الإيمان على الانبثاق من بين أثقال المعاصي وآصار الذنوب، ومن ثم تصير المصيبة في هذه الحالة هداية بالنسبة لهذا النوع من الناس، كما قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ [التغابن: ١١]، أي ومن يحمل بذرة الإيمان في قلبه فإن المصيبة التي ساقها الله له ستهدي قلبه، وكأن المصيبة هدية سيقت لهداية من في قلبه إيمان وخير!

الذين يعادون أنفسهم!

_ ظلم النفس:

ذكر الله أن الناس يظلمون أنفسهم في ١٣ موضعا، وورد هذا المعنى بصيغ وأساليب متنوعة في عشرات المواضع من القرآن.

وكل ذنب يقترفه الإنسان من الذنوب التي توعد الله مرتكبيها بالنار هو ظلم للنفس؛ ذلك أنه تجاوز حدود الله الثابتة بقرآن محكم، كما قال عز من قائل: ﴿ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه﴾[الطلاق: ١]، ذلك أن تجاوز حدود الله يفضي بالضرورة إلى ظلم الغير من البشر، ومن يظلم غيره في الدنيا فإنما يظلم نفسه في الدنيا والآخرة.

ولقد قال موسى لقومه: ﴿يا قومي إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل..﴾[البقرة: ٥٤]، واتخاذ العجل ظلم للنفس لأنه امتهان لكرامة مخلوق كرمه الله وأسجد له ملائكته، ثم إنه صورة من صور الشرك والكفر التي تستوجب النار؛ كما قالت ملكة سبأ عندما تعرفت على دين التوحيد عبر نبي الله سليمان: ﴿ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ [النمل: ٤٤]، وحينما قتل موسى قبطياً بالخطأ وهو يدافع عن واحد من قومه تقوى عليه ذلك القبطي، قال: ﴿ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾ [القصص: ١٦].

ويبدو أن مواجهة ظلم النفس تتم من خلال أمرين أساسيين:

الأول: تذكّر جلال الله والاستغفار الخالص من الذنب، كما قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم...﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فتذكر الله هو إفاقة من غيبوبة الغفلة المفضية إلى غياب الوعي وظلم النفس.

الثاني: المجيء إلى الرسول ﷺ وطلب الاستغفار منه، كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم إذ

ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ [النساء: ٦٤]، ونلاحظ دقة التعبير القرآني الذي يحرر الناس من التعلق بغير الله، فالرسول لا يملك لنفسه شيئا فضلا عن أن يملك للناس شيئا؛ ولذلك فإن ذهابهم إلى الرسول ليس لطلب النفع ودفع الضر منه، فهذا الأمر لا يمتلكه أحد سوى الله، وإنما لطلب الاستغفار منه بجانب استغفارهم لأنفسهم!

ومن الواضح أن الأمرين يتعلقان بالله وبرسوله، بجانب الاستغفار الذي هو ملك الذات في الحالين، وكأن القصد من الأول تذكر رقابة الله وتخيل نعيمه لمن التزم بتوجيهاته، وعذابه لمن عصاه وخالف ما دعا إليه، بينما المقصد الثاني هو اتباع منهج النبي ﷺ في التعامل مع النصوص حتى لا يقع المرء مرة أخرى في هاوية العصيان!

_ المصيبة النفسية:

من المعلوم أن الله خلق الإنسان حرا مريدا مختارا، وجعل الاختيار مناط التكليف، حتى أنه لا ثواب ولا عقاب إن فعل الإنسان ما فعل من طاعة أو معصية رغم أنفه!

وأجرى الحياة وفق سنن مطردة وثابتة، وبيّن للإنسان الخير والشر، النفع والضر، ورغّبه بالطاعة وحثّه عليها وكرّهه بالمعصية وحذره منها، ومن ثم فإن المصيبة إذا أصابته فلا يلومن إلا نفسه، فلا مصيبة من غير سبب اجترحته يداه، كما قال عز من قائل: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[النساء: ٧٩]، وكما ينطبق هذا الأمر على الفرد فإنه ينطبق على الجماعة، كما قال عز من قائل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم..﴾[الشورى: ٣٠]، وأكبر مصيبة للمجتمعات هي الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، حيث يستجلبان الغضب الرباني والنقمة الإلهية، وتفعل السنن فعلها في سقوط الدول وانحلال الحضارات!

_ خسارة النفس:

من المؤكد أن الذين يظلمون أنفسهم إن لم يتوبوا توبة تمتلك الأهلية للقبول من الله وهي التوبة النصوح؛ فإنهم سيخسرون أنفسهم يوم توضع الموازين القسط وتنبعث

مظالم الشخص لنفسه، كما قال عز وجل: ﴿ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾[الأعراف: ٩]. والظلم بالآيات يكون بالجحود بها، بحيث لم يعمل الواجبات التي تمنحه التنعم في الجنان الخالدة، ولم ينته عن المحرمات التي تقود أصحابها إلى الخلود في لجج الجحيم، وهذه هي خسارة النفس، إذ لم يخسروا النعيم الخالد فقط لكنهم كسبوا السيئات التي أوردتهم النيران الأبدية!

المكاسب القاتلة!

_ كسب التراث:

من المعلوم أن السلف قد تفاعلوا مع الوحي بمنتهى الوعي والإخلاص، وكانت لهم أفهام اجتهادية للنصوص وتنزيلات تطبيقية لها على الوقائع، ورغم أن أفهامهم للنصوص تم تنزيلها على واقعهم البسيط إلا أنها ظلت أفهاما وتنزيلات نسبية، فكيف ستصبح هذه الأفهام النسبية إذا نزلناها على واقعنا المعقد والمختلف تماما بعد قرون من تسارع المتغيرات واختلاف المستجدات التي لا حصر لها؟!

ومن ناحية أخرى فإن السلف بشر من طين، وحدث بينهم من سوء الفهم وربما الظن بجانب عوامل أخرى، ما تسبب في نشوب الفتن بينهم والتي وصلت أحيانا إلى حد الاقتتال!

ومهما يكن من أمر فمن الخطأ استجرار الصراع أو استدعاء التراث إلى واقعنا المختلف، فإن الماضي له قدرة على الانتقام من الحاضر عن طريق التنزيل الخاطئ لأمور لا تتناسب بتاتا مع عصرنا، وما كان بالأمس حلا قد يصير اليوم مشكلة، وما كان في الماضي دواء قد يصير اليوم سما زعافا؛ إذ أن الزمان يؤثر على تلك الأدوية المعنوية كما يفعل مع الأدوية الحسية!

ولهذا فإن القرآن حينما يكلمنا عن الماضي يرسم لنا قاعدة تقول: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ [البقرة: ١٣٤]، بمعنى أنه ينبغي أن يكون لنا كسبنا العصري في التعاطي مع الوحي، وكأنه يتنزل اليوم لحل مشكلاتنا وفتح طريق الاستقامة أمام حركتنا!

وقد أورد الله هذه القاعدة في أكبر وأعظم سور القرآن الكريم وكررها بالحرف الواحد في الآية ١٤١ من نفس السورة، لتأكيد القاعدة وحتى تستقر في الأذهان فيتجنب المسلمون التعرض لانتقام تراثهم من حاضرهم!

_ كسب الآثام والخطايا:

يستخدم مصطلح الكسب في اللغة العربية بمعنى الربح والفوز والنجاح والحصول على المحبوب، لكن آيات كثيرة استخدمت هذا المصطلح في معرض الحديث عن الخسارة واجتراح السيئات، بل الآثام والخطايا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ [النساء: ١١١]، أي سيكون وبالاً عليه، ولخطورة الأمر فقد واصل الله التحذير من خطورة كسب الآثام في الآية التالية لها، فقال عز من قائل: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرمي به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثماً مبينا﴾ [النساء: ١١٢].

ويبدو أن علة هذا الأمر تكمن في اجتماع صفات الغفلة والحمق والطمع في من يكتسبون الآثام، مع قوة النفوس الأمارة بالسوء وإغراء الوسوسات الشيطانية، مما يدفعهم لإشباع شهواتهم من أي سبيل معتقدين أنهم يكتسبون المنافع والمحبوبات التي ستمنحهم السعادة وهناء العيش!

وفي استخدام مصطلح الكسب في معرض الخسارة لفتة أخرى إلى قوة التزيين الذي تقوم به وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي المعاصرة، حيث تمتلك من وسائل التأثير وسحر الأعين والقلوب ما تستطيع به خداع الناس وقلب الحقائق رأسا على عقب، حتى أنها تحيط القبائح بهالة من الجمال، وتبشّع المناظر والقيم الجميلة في أعين المشاهدين وقلوبهم!

_ مصائب الكسب السيء:

ذكر القرآن الكريم أن الظالمين يوم القيامة لو كان لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب الذي ينزل بهم، وأنهم يتفاجؤون يبدو لهم من الله ما لم يكن في حسبانهم، ثم بدت لهم السيئات التي كانوا يحسبون أنها مكاسب لهم فبذلوا في سبيلها أوقاتا طويلة وجهودا مضنية، وأفنوا أموالاً ثمينة ومشاعر عزيزة، بل وقطّعوا في سبيلها أواصر الرحم وداسوا على قيم الحق، والنتيجة أنهم قد حاق بهم ما كان محل استهزائهم وحل بهم ما ظنوا أنه بعيد عنهم، وأورد بعد ذلك واحدة من الطبائع البشرية الرديئة وهي

الشكوى إلى الله عندما يمسه الضر وتنزل به المصيبة، والإعجاب بالذات حينما تنزل به النعمة والزعم بأنه لم يحصل عليها إلا بعلمه وذكائه، وأكد بأن السابقين قد قالوا نفس المقولة وصنعوا ذات الصنيع، فلم يغنِ عنهم يوم الحساب ما كانوا يكسبون. [الزمر: ٤٨ _ ٥٠]، ثم قرر النتيجة لما سبق فقال عز من قائل: ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ [الزمر: ٥١]، بما يؤكد أن الطبائع البشرية متشابهة وسنة الله ثابتة في تعذيب من حادوا عن صراطه المستقيم وخالفوا منهجه القويم، فاجترحوا السيئات والآثام معتقدين أنهم يحققون بها الكثير من المكاسب!

ولو تأملنا الآية الأخيرة بتأنٍ لوجدنا أنها تتحدث عن أن المعاصي تصنع المعاصي، والسيئات تجر إلى السيئات، في ظل التزيين والإغراء الذي يجعل المرء يعتقد أنه يكتسب أفضل الحسنات وهو يقترف أقبح السيئات!

عندما تنقلب الموازين!

_ خوف فرعون من إفساد موسى للأرض!

ما أكذب الطغاة حينما يعلنون الخوف على المصلحة العامة للشعب أو الخوف على ثقافته، فإنهم يسيرون على خطى سلفهم المتأله فرعون الذي قال تعالى حكاية عنه: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر: ٢٦]، وقد يكون مع فرعون شبهة حق في الخوف على دين المصريين من موسى، باعتبارهم يعبدون آلهة وثنية متعددة ومنها كبير الآلهة فرعون، بينما تقوم ديانة موسى على عبادة إله واحد وهو الله عز وجل، ولكن كيف يمكن لنبي يوضع ضمن الخمسة الموصوفين بأنهم صفوة الرسل (أولي العزم من الرسل)، كيف يمكن أن يظهر في الأرض الفساد؟!

إنه الإسقاط الذي يستخدمه الطغاة حتى اليوم ضد المصلحين، وهو خلط الأوراق حتى تتشابه البقر على العامة فينضموا بعد ذلك للأقوى بالمقاييس الدنيوية والمصلحية.

_ خوف مشركي قريش من الإضلال المحمدي:

أخبر الله نبيه محمدا عن انقلاب الهرم القيمي عند مشركي قريش رأسا على عقب، معجباً إياه مما يقولون عنه، فقال تعالى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً. إن كاد ليُضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢]، وبغض النظر عن سخريتهم من الرسول لتصادم صفاته ومهماته مع معاييرهم الجاهلية الدنيوية، فإن الشاهد هو خوفهم من إضلال محمد لهم لولا أنهم صبروا على آلهتهم وعضّوا بالنواجذ على أصنامهم، ومما يؤكد أنهم كانوا يعتقدون أنهم مهتدون بحق وأنهم خائفون من إضلال الرسول لهم التعقيب الإلهي على قولهم، وهو قوله تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾، كأنه يقول بأنهم في غيهم يعمهون لدرجة أنهم لن يفيقوا من غيبوبتهم إلا

عندما يرون العذاب الذي يحيق بأهل الباطل والضلال!

_ خوف أهالي سدوم من التطهر اللوطي:

عندما تنتكس الفطرة وينقلب الهرم الاجتماعي رأسا على عقب، ويمشي الناس مكبين على وجوههم؛ فإن القذارة تصبح مستطابة، بينما تصير الطهارة شذوذا ومرضا يستوجب إبعاد أصحابها عن القطيع حتى لا تصيبه عدوى الطهارة، وهذا ما يكشفه قوله تعالى على ألسنة قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ [النمل: ٥٦]!

وفي مدائن سدوم المعاصرة صار من المتعارف عليه أن الفتيات اللاتي يصلن إلى سنة ١٨ سنة دون أن يفقدن عذارتهن وينغمسن في حياة المجون والفساد الاخلاقي، فإن الأسرة تدفع بهن إلى أطباء نفسيين لمعالجتهن من آفة الطهارة!

آفات العقول

_ سوء تقدير العقول:

من المعلوم أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فهو كلام من لا أحسن من حكمه، كما في قوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠]، ومن الواضح أن هذه الآية تؤكد بأنه لا يوجد أحسن حكما من الله لا في معناه ولا في مبناه، ولكن لماذا ختم الله الآية بقوله (لقوم يوقنون)؟

يبدو أن هذه الجملة تشير إلى أن العقل نتيجة تأثير الجزء الترابي من تكوينه، قد لا يدرك عظمة حكم الله في بعض المسائل بسبب قصوره أو تقصير صاحبه في تتبع الأسرار والعلل، ومن هنا فإنه ينبغي للمؤمنين الانتقال إلى الإيقان الغيبي حينما تتشوش عقولهم؛ وذلك بإطلاق منابع الثقة المطلقة بالله لأنه أعدل الحاكمين وفي ذات الوقت هو أحكم العادلين!

_ مدخلات العقل:

مهما كانت جودة العقول فإنها تظل آلات يمكن ملأها بالحق أو الباطل، بالصواب أو الخطأ، ومن ثم لا يمكن أن تؤتي ثمارها المرجوة ما لم توضع فيها مدخلات علمية لا خرافية، وصحيحة لا خاطئة، وسليمة من غير سقم، ومستقيمة من دون عوج؛ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا العالِمون﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وهو يتحدث تعالى عن الأمثال في القرآن الكريم، حيث أن فهم مرادها يحتاج إلى قدر من العلم، أما الجاهلون فإنهم غالبا ما يسيؤون فهم المراد ويقعون في بعض الأخطاء الفاضحة!

_ انفصال القلب عن العقل:

يصبح المسلم مكتمل الإيمان حينما يرتقي إلى خالقه بعقله وقلبه في آن واحد، وقد

اشتمل حوالي ثلث القرآن على قصص السابقين، لأنها مليئة بالذخائر الاعتبارية.

ومما أخبرنا به القرآن في هذا الشأن، ما ورد في قوله تعالى: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم..﴾ [الجاثية: ١٧]، وتكرر هذا التقرير في بضع آيات من القرآن الكريم، فقد وقع الاختلاف مع وجود العلم بسبب البغي بين حملة العلم أو ما نسميه في عصرنا بالشخصانية، ويبدو أن هذا حدث نتيجة تقدم العقل من دون مرافقة القلب له في العمل، فالتربية القلبية تطهر الناس من أوضار التراب وأوشاب الطين، وتمنحهم أواصر الائتلاف ودوافع التآزر!

ومن دون القلب اليقظ والحساس، فإن المرء يفقد القدرة على التمييز بين التفكير العقلي السوي وبين الهوى الذي يزيد من تضخم الأنا ويُذكي سعار الغرائز والشهوات!

آفاتٌ المتدينين

_ حُساد الرؤيا:

هناك أصناف من الناس يستوطن الغل في قلوبهم ويتغلغل الخبث في حناياهم، إلى حد أنهم يحسدون الناس على أي شيء نالوه من فضل الله، حتى ولو كان ما زال في عالم الغيب وجاءت البشارة به من خلال الرؤيا التي قد تصدق وتتحقق بعد آن وقد لا تصدق وتصبح مجرد أضغاث أحلام، ومن هؤلاء إخوة يوسف الذين أعمى الحسد أبصارهم وبصائرهم حينما علموا أن أخاهم يوسف رأى في المنام ما رأى!

ويبدو أن والدهم يعقوب كان يعرف هذه الخصلة فيهم، فقال ليوسف: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾، لكن يوسف ولطيبته وقلة خبرته بالناس والحياة لم يكتم رؤياه فوصلت إلى أسماعهم، مما أدى إلى تحريك كوامن الحقد واستيقاظ طاقة الكيد في أنفسهم الحاسدة، وحدث ما حدثتنا عنه سورة يوسف!

_ الصلاح صعود:

إن الذي يحرص على تحقيق صفات الصلاح الحق في نفسه، يعتلي مراقي الصعود عقليا وقلبيا وروحيا وخلقيا وسلوكيا، ولا يمكن أن يصل إلى سدة الصلاح من يسير في طريق الهبوط الشعوري والنزول السلوكي والانحطاط الأخلاقي، ولا تنفع الحيل في هذا المضمار، كما فعل إخوة يوسف حينما قالوا: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾، فقد عزموا على ارتياد ساحات الصلاح بعد السقوط في حُفر القتل والكذب والتآمر!

_ التنطع اليهودي:

التنطع خلل في العقل يؤدي إلى اختلال سلّم الأولويات، وآفة في النفس تتسبب في

تكبير ما هو صغير وتصغير ما هو كبير وفي تحقير ما هو عظيم وتعظيم ما هو حقير وفي تقديم ما ينبغي تأخيره وتأخير ما يجب تقديمه، ويؤدي بالمتنطعين إلى صنع تناقضات غريبة، وقد يتحججون بأعذار هي أقبح من الذنوب نفسها!

وقد حدثنا القرآن في هذا السياق أن بني اسرائيل عندما ذهب موسى لميقات الله في جبل الطور بشبه جزيرة سيناء، قد جمعوا الحلي الذي أخذوه من آل فرعون وأحاله لهم موسى، وصنع لهم السامري منه عجلاً اتخذوه إلهاً، فلما رجع موسى غضبان أسفا وعنفهم على ما فعلوا، قالوا: ﴿إنا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري﴾، أي أنهم تورعوا عن حمل ذلك الحلي كما تفيد كلمة (حُمّلنا)، فقذفوه في الأرض فصنع لهم السامري به عجلاً له خوار وقال لهم: إن هذا إلهكم الذي ذهب موسى يبحث عنه، فصدقوه وعبدوا العجل، ولم يصدقوا موسى في أن هذا الحلي حلال لهم لأنه مال من حاربهم وعذبهم وسلبهم حقوقهم وجعلهم سخريا له طيلة عهود من الزمن!

وهكذا فقد دفع التنطع بهؤلاء إلى تصديق صعلوك يسمى السامري على حساب كليم الله موسى عليه السلام، ثم إن موضوع التصديق متباين، فقد أحل لهم موسى أموالَ من ذبّح أبناءهم واستحيا نساءهم للخدمة، بينما أحل لهم السامري عبادة عجل له خوار على حساب ربهم الذي نجاهم من طغيان فرعون ومن الغرق في البحر وأعطاهم المن والسلوى وفجر لهم اثنتي عشرة عينا من الماء الفرات!

آفاتٌ النسيان

_ ثغرة النسيان:

إن القعود مع الظالمين يسهل على الشيطان قذف أسلحته إلى قلب الإنسان ومنها سلاح الإنساء، ولهذا فقد أوصى الله جل جلاله نبيه محمداً عليه السلام فقال: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ [الأنعام: ٦٨].

وكأن الجلوس مع الظلمة ينقل طاقة سلبية منهم تضعف جهاز المناعة الإيماني للضحايا الطيبين، ومن ثم تنفتح للشيطان ثغرة النسيان فيدخل منها إلى الجوانح، هذا بجانب أن في الإنسان طبيعة التأثر والتأثير، ومن جانب آخر فإن الظالم الذي يجالسه الصالحون بصورة طبيعية لا يشعر بمظالمه بل يتمادى في ظلمه، ثم إن الخطوط الموضوعة بين الصالحين والفاسدين تنمحي في أعين عامة الناس لتختفي القدوة ويتشجع المزيد من العامة على الانضمام إلى قافلة الظالمين!

_ تسلل إبليس:

كان إبليس من الذكاء بمكان، بحيث تعرّف على نقاط الضعف في آدم، فتسلل من خلالها أثناء وسوسته لآدم بالأكل من الشجرة المحرمة، قال تعالى عن هذا الأمر: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾، بمعنى أن ضعف الذاكرة وضعف الإرادة من أهم مداخل إبليس إلى الإنسان، ولذلك أوجد الإسلام منظومة تذكيرية كبيرة، ومنها إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، فقد قال تعالى: ﴿أقم الصلاة لذكرى﴾، وواضح من الأمر الإلهي ان تذكر الله واحدة من غايات إقامة الصلوات إن أقيمت بحضور العقل وخشوع القلب، ومنها التفكر في آيات الله وآلائه المنبثة في صفحات كتاب الوجود، مع الثناء على الله بأذكار مأثورة خاصة بكل محطة منها، وبالمثل هناك أذكار وقتية مخصصة

بمواسم يومية وأسبوعية وسنوية، وغيرها من الأذكار في مختلف الظروف والأحوال.

_ طائفُ الإنساء:

كم يتمكن الشيطان من الإنسان المؤمن عندما يغشاه النسيان، حيث يرسل طائفاً من قبله على الغافلين، وهذا الطائف قد يصيبهم بالعمى عن رؤية آيات الله المبثوثة في كتاب الكون أو بالصمم عن سماع آيات الله المسطورة في كتاب القرآن، وليس المتّقون بمنأى عن هذه الآفة ولكنهم إذا وقعوا ضحايا لهذا الطائف فإنهم سرعان ما يفيئون، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١]،ونلاحظ هنا أن الله لم ينزع عنهم لباس التقوى،ما دام هذا الضعف من جبلة الإنسان ويأخذ وقتاً قصيراً، ليعود مصباح التذكر يرسل أنواره فيعود الإبصار إلى أصحابه.

وحذّر في الآية التي بعدها من أصدقاء السوء، مؤكدا أنهم يمدونهم في الغيّ ولا يدخرون وسعا في غوايتهم، وعاد في الآية التي بعد هذه ليؤكد أن آيات القرآن الكريم مجموعة من البصائر التي ينبغي الاستضاءة بها، قال تعالى:﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ومن أجل أن نضمن استمداد الأبصار لقوة الإبصار من بصائر القرآن على أكمل وجه، فقد قال تعالى في الآية التي تليها: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ ذلك أن القرآن رغم عظمته لا يؤتي ثماره بطريقة تلقائية وإنما عبر جهد الإنسان، مع وجود فروق نسبية بين الناس بحسب الفروق الكمية والنوعية وسط هذه الجهود، فلكل مجتهد نصيب، وهذا منتهى العدل!

_ أضرار النسيان:

لا يزال النسيان المضر سلاحاً من أسلحة الشيطان، فلقد قال الله عن رفيق يوسف في السجن: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾ [يوسف: ٤٢]، حيث نسي ما قال له يوسف عندما خرج من السجن: ﴿اذكرني عند ربك﴾ [يوسف: ٤٢]،

وكانت العاقبة أن يوسف ظل بالسجن بضع سنين ظلماً، وهذا فتى موسى يقول: ﴿فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ [الكهف: ٦٣]، مما كلفهم العودة إلى مكان كانوا قد تجاوزوه، مع ما في ذلك من ضياع للجهد والوقت، وهذا يذكرنا بأهمية عمل خارطة للتذكر ومقاومة الغفلة والنسيان.

التبيُّن والحذر

عند التقاء جيشي المسلمين والكافرين يتضح من تدبر النصوص القرآنية ذات الصلة أن الكلمتين الافتتاحيتين في هذه الظروف هما التبيّن والحذر، فعند هجوم جيش المسلمين على جيش الأعداء ينبغي التبيّن حتى لا يتم قتل من لا يستحق القتل كما هو معروف في الأدبيات الإسلامية، وكرر القرآن كلمة التبين مرتين في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ [النساء: ٩٤]، وتكرار الأمر بالتبين يفيد التوكيد ويظهر أن الأمر خطير جدا، ويظهر هذا الأمر عظمة الشريعة الإسلامية وكيف أنها حريصة على دماء الإنسان حتى لو كان محاربا ما دام قد أعلن الاستسلام!

وبعد سبع آيات من الآية السابقة، أورد الله كيفية صلاة الخوف عند التحام الجيشين، وحتى لا يقوم العدو بمهاجمة المسلمين غدرا بطريقة مفاجئة وهم يصلّون، فقد أمر الله المسلمين بالتسلح بالحذر قبل السلاح المادي وكرر الأمر بالحذر مرتين في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾ [النساء: ١٠٢]، وقد كرر الأمر بالحذر حتى لا تسيل دماء المسلمين غدرا!

وهكذا فإن تدبر النصين يُظهر أن الكلمة المفتاحية عند هجوم المسلمين على الأعداء هي التبين وكررها مرتين في آية واحدة، والكلمة المفتاحية عند هجوم العدو هي الحذر

وكررها مرتين في آية واحدة، وعند تأمل خاتمة الآيتين يتضح أن الله عز وجل ختم الأولى بنوع من الوعيد للمسلمين إن هم تجاوزوا أمره بالتبين، وختم الثانية بوعيد للكافرين الذين يستحقونه في كل حال!

ويتضح من الأمر برمته مدى إنسانية الإسلام وتشدده في حقوق الناس وعلى رأسها الدماء التي يجعل الأصل فيها أنها مصونة، ولا ينبغي أن تسيل إلا لضرورة قصوى بحيث تصبح إراقتها مفسدة صغرى في مقابل درء مفسدة كبرى، وقد عرفنا في كتب المغازي كيف أن النبي ﷺ لام خالد بن الوليد حينما قتل شخصا محاربا بعد أن أعلن الشهادتين رغم أن سيفه كان يقطر من دماء المسلمين، ووصل الأمر إلى حد أن النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وهو يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، وهناك قصة شبيهة مع أسامة بن زيد!

الحذر من الجبناء!

من يتأمل مطلع سورة (المنافقون) بشيء من التدبر؛ سيجد أن الله قد أورد عددا من الدلائل على اتسام المنافقين بالجبن الشديد، وأهمها:

١ ـ شهادتهم المنمقة للرسول محمد ﷺ بالرسالة كذبا وخوفا، مع اعتقادهم الراسخ بأنه ليس مرسلا من الله أو بأن الله غير موجود ابتداء بالنسبة لأصحاب النفاق الاعتقادي، وما يؤكد كذبهم في هذه الشهادة أن الله كذّب شهادتهم في نفس الآية، وهي الآية الأولى من سورة المنافقون: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾، وقد استخدم الله مؤكدين في هذه الجملة فتأملهما!

٢ـ اتخاذ الأيمان المغلظة أداة لحماية أنفسهم من نقمة المؤمنين، حيث يخافون من انكشاف ما هو مخبوء في قلوبهم المريضة، كما قال من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور: ﴿اتخذوا أيمانهم جُنة فصدّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ [المنافقون: ٢].

٣ـ الحرص على تجميل الظاهر بقدر كبير من التأنق المتكلف فيه، في صورة من صور إخفاء الباطن خوفا مما يختلج فيه من كره للمؤمنين وحب لإخوانهم الكافرين، وكذلك التجمل بالكلام المنمق والمطرز بالكلمات البديعة والمسلح بالأساليب البيانية الساحرة، وذلك من أجل أن لا تنكشف المعتقدات الخبيثة التي يطوونها في قلوبهم العليلة، قال تعالى في ذلك: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾[المنافقون: ٤]، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ كان من عشاق الجمال والفصاحة والبيان، وكان يحتفي بالأناقة ويثني على البلغاء!

٤ـ التوجس الدائم من أي شيء ومن كل أحد، واعتمال الهواجس والمخاوف في حنايا النفوس، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ [المنافقون: ٤]، حيث يظنون بأنهم المقصودون من أي إشارة خفية، وتكاد قلوبهم أن تطير خوفا

ورعبا من أي كلمة مبهمة!

وبعد هذا التوصيف لجبنهم وهلعهم وخورهم، فقد أخبر الله رسوله محمدا بقوله: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ [المنافقون: ٤]، آمرا إياه بالحذر منهم، فكيف يأمر الله رسوله أن يأخذ حذره من مجموعة من الجبناء والرعاديد؟!

لقد ثبت من استقراء حالات لا حصر لها أن الذين يجمعون في قلوبهم بين الجبن والخبث هم أخطر الناس بين الناس؛ لأنهم يلجأون إلى معسول الكلام من أجل بث الطمأنينة وتخدير مشاعر الحذر، لكن الغدر يجري فيهم مجرى الدم وإذا وجدوا فرصة مواتية فإنهم لا يترددون عن طعن من وثق بهم في ظهره، ولا يكفّون عن بث البلبلة والإرجاف داخل الصف المسلم، ولا يزالون يتآمرون مع العدو المتربص بالأمة الدوائر فيوصلون له الأسرار ويكشفون له الثغرات، ولا يتورعون عن استخدام سائر أسلحة الكيد والمكر والمخاتلة!

ويمكن الختم بالقول إن مصدر خطورة هؤلاء الجبناء هو مهارتهم الشديدة في الظهور بثياب الرهبان مع أنهم يحملون قلوب الشياطين!

مخاطر الغفلة!

_ آفة الغفلة:

الغفلة آفة من آفات التراب الذي تكوّن منه الشق المادي من الإنسان، ومن هنا فإنه طبيعة بشرية وسليقة ترابية، لكن الإيمان يستطيع أن يضيق الخناق على الغفلة غير أنها لا تنفك عن الإنسان بصورة نهائية.

ولأن هذه الطبيعة حلقة من سلسلة النقص البشري، فقد وصف الله نفسه بأنه ليس (بغافل) عن ما يعمل الناس في عشر آيات من القرآن، وكلها جاءت في مقام التحذير للناس جميعا او لقطاعات منهم أو في سياق التوعد للظالمين!

_ مراقبة أصحاب التخصصات:

لا شك بأن الإسلام يجعل العمل المهني من العبادات المتعدية، وهي أطول العبادات وقتا ومن أوفرها أجرا؛ لأنها ترتبط بحقوق الناس وبغاية عمارة الأرض التي هي غاية أساسية من غايات هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾، أي طلب منكم عمارتها وتعبّدكم بإتقانها.

ولتعبد الله للمؤمنين بإتقان أعمالهم فقد قال لهم:﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عن ما يعملون﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقد بدأ بالجزاء المتمثل بالدرجات في الدنيا والآخرة، وختم بالتحذير بأن الجميع تحت رقابته تعالى، فهو لا يغفل عنهم ولا عن أي أحد في هذا الكون!

_ الغفلة المانعة من الاستبصار بالماضي واستشراف المستقبل:

إن وقوع العقول والقلوب في الغفلة داء خطير يؤدي بأصحابه إلى الانشغال بالأقاويل عن الأعمال، وبالظنون عن الحقائق، وبالتفاهات عن عظائم الأمور، وبالشكليات عن

المضامين، ومع المدى تتشكل لديه سدود تغطي على البصيرة الثاقبة التي ينتفع بها المرء في الحال والمآل، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فهم لا يبصرون﴾ [ياسين: ٩]، وكأن ركام الاهتمامات التافهة ينتصب ليشكل سدا يمنع الاستبصار العقلي والقلبي من أمام ومن خلف، ومن ثم فإن هؤلاء الغافلين لا يمكن أن يستخرجوا الدروس والعبر من الماضي، ولا يمكن أن يستشرفوا المستقبل لكي يتحكموا بالمآلات ويتجنبوا العواقب غير المرغوبة!

ومما يؤيد هذا الاستنباط أن الله حينما وصف أناسا من الذين عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن العمل، ختم الآية بقوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩]

_ تحذير النبي من الغافلين:

لخطورة الغفلة على الإنسان في معاشه ومعاده؛ فقد شن القرآن الغارة على الغفلة وشنع بالغافلين، ووصل الأمر إلى تحذير النبي ﷺ من أن يصير من الغافلين، فقال له تعالى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، مع أنه تعالى قد رباه على عينه وأدبه فأحسن تأديبه!

وبجانب ذلك فقد حذر الله نبيه من طاعة الغافلين، فقال عز من قائل: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ [الكهف: ٢٨]؛ ذلك أن النتيجة واحدة بالنسبة لمن صار من الغافلين ومن أطاعهم؛ حيث تقسو قلوبهم ويهيمن عليها الشيطان، ثم تطيح بهم الأهواء وتنحطّ بهم النزوات!

دور المعاصي في حلول الذل والهوان(١)

_ صناعة المعاصي للهوان اليهودي:

للمعاصي تأثير رهيب على القوام المعنوي للإنسان، حيث تحمل كل معصية بذرة لنبتة خبيثة تسكن القلب، ومنها نبتة الذل والمسكنة. ولأن بني إسرائيل أكثر الأمم عصيانا لإلههم وتمردا على أنبيائهم، وأشدها تلاعبا بكتب ربهم وتعاليم دينهم؛ فقد كتب الله عليهم الذل والمسكنة إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله﴾ [البقرة: ٦١]، والاستثناءات البسيطة لا تلغي القاعدة، سواء كانت استثناءات زمانية أو مكانية، وهذا الضرب من الذل في الدنيا غير ذل الآخرة، وللعلم فإن جميع الآيات التي تحدثت عن الذل كعقاب دنيوي من الله على ارتكاب المعاصي جاءت في حق بني إسرائيل؛ بسبب كفرهم وتحريفهم لكتبهم وقتلهم لأنبيائهم واستحلالهم لحقوق غيرهم وحرماتهم، واقترافهم لكافة الكبائر والخطايا!

ولأنهم كانوا أذلة معتدين، فلم تقم لهم دولة طيلة ألفي عام، ولقد اشتهروا بجبنهم في أدبيات كل الشعوب التي عرفتهم عن قرب وعاشرتهم بصورة مباشرة، ويغني عن ذلك كله شهادة من يعلم كل شيء ولا يظلم أحدا، وهو الله تعالى، فقد قال في محكم كتابه: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾، أي أيّ حياة مهما امتلأت بالذل والهوان!

وبالطبع فإن المعاصي الجالبة للذل والصَّغار هي جميع الكبائر المقابلة لشُعب الإيمان التي تبلغ بضعا وسبعين شعبة، مع الاختلاف النسبي بينها!

وإذا كانت المعاصي اللازمة أي التي بين العبد وربه تزرع الذل في النفوس بطريق غير مباشر، فإن المعاصي المتعدية والمتصلة بالقيم الحضارية وحقوق الناس تنتج ذلاً مباشرا وملموسا، فالجاهلون ذليلون أمام العالِمين، والظالمون ذليلون أمام العادلين، والعبيد ذليلون أمام الأحرار ، والعاطلون عن العمل ذليلون أمام العاملين، والفقراء أذلاء أمام

الأغنياء، والمتفرقون أذلاء أمام المتوحدين، والضعفاء أذلاء أمام الأقوياء، وهناك ألف برهان واقعي على أن الأمة الغثائية تعاني من الهوان أمام الأمة الفاعلة، وهنا تنشأ سنة التقليد الأعمى للعدو القوي، فالضعيف مولع بتقليد القوي، كما قال ابن خلدون من استقرائه لعشرات. القرون من أحداث التأريخ!

_ خوف الكليم موسى:

في قصة موسى عليه السلام درس بليغ يُبرز دور المعصية في زراعة مشاعر الخوف داخل جوانح الإنسان، فعندما أخبر الله كليمه بأنه رسول ومنحه المعجزة فقال: ﴿وألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديَ المرسلون. إلا من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ [النمل: ١٠، ١١]، وكأن الله يخبرنا بأن شعور الخوف الذي انبعث من قلب موسى إنما هو من آثار الذنب الذي ارتكبه من غير قصد حينما قتل القبطي الذي كان مشتبكا مع واحد من قومه، وكان موسى قد اعترف على الفور بظلمه لنفسه وطلب من الله أن يغفر له ذنبه، فقال: ﴿ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ [القصص: ١٦]

وهكذا فإن ميزان الله حساس جدا ولا سيما في هذا الشأن الذي يتصل بحقوق الناس وخاصة الدماء، ولذلك ظهر الأثر رغم وجود ثلاثة أمور:

الأول: أن القتل غير مقصود، فقد أراد موسى أن يضربه ضربة تدفعه عن الشخص الذي استنجد به من قومه، لكن الوكزة قضت عليه، كما جاء في الآية ١٥ من سورة القصص، وذلك بسبب قوة موسى المفرطة!

الثاني: أنه تاب فاعترف بذنبه وطلب المغفرة من الله فغفر له، غير أن أثر الذنب بقي بسبب أنه متصل بحق من حقوق الإنسان!

الثالث: أن الذنب وقع على يد أحد أولي العزم من الرسل وقبل أن يصبح نبيا، وكأنه تعالى يقول لا فرق بين الناس أبدا في الكرامة والحقوق، ولو كان المعتدي أحد أعظم الرسل والمعتدى عليه كافرا على ملة فرعون!

دور المعاصي في حلول الذل والهوان(٢)

_ مذلّة السيئات:

أخبرنا الله أن الذين يكسبون السيئات إنما يجلبون لأنفسهم أشكالا من العذاب الدنيوي والأخروي، ومنها عذاب الذل والهوان الذي يرهق أعصابهم ويريق ماء وجوههم تاركا إياها في حالة من التصحر، ويجعلهم محل سخرية الناس وتندرهم، فقال عز من قائل: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم....﴾ [يونس: ٢٧].

وقد عبّر بفعل الكسب، وهو أمر إيجابي، عن اقتراف السيئات، وهو أمر سلبي، وذلك لأحد أمرين:

الأول: أن تكون الوسوسة الشيطانية والتسويل النفسي قد بلغا مبلغا بعيدا في التزيين له، بحيث اعتقد من قرارة نفسه أن اقترافه للسيئات إنما هو كسب كبير له، وبذلك فإنه ينضم بوجه من الوجوه إلى من وصفهم الله في آخر سورة الكهف ﴿بالأخسرين أعمالا﴾، وهم ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً﴾!

الثاني: أن يكون من باب السخرية منهم، مثل قول ملائكة العذاب لأبي جهل وهم يجرعونه ويلات جهنم: ﴿ذُق إنك أنت العزيز الكريم﴾ [الدخان: ٤٩]، كما ورد في سبب نزول هذه الآية في كتب التفسير وأسباب النزول!

وكأن الله يقول لهم إن هذا هو كسبكم الذي أفنيتم أعماركم في تحصيله، وأنفقتم في سبيله الأموال والأوقات واستهلكتم الجهود والطاقات، وهذا يزيد من الألم النفسي عليهم بجانب العذاب الحسي!

_ مسببات الخزي:

أورد الله تعالى أهم أسباب الخزي والذل في قوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. ثاني عطفه ليُضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ [الحج: ٨، ٩]، والجدال في أمور مادية دنيوية من دون علم، أمر معيب إلى أبعد حد، فكيف إذا كان الجدال في حقيقة غيبية؟ وكيف إذا كان حول أمّ الحقائق ومبدع هذا الوجود ومالكه؟! وكيف إذا كان المجادل الجاهل يمتلئ ثقة بذاته إلى درجة الكبر والسخرية ممن يخالفه في جهله وأوهامه، وذلك بثني العطف أي لوي العنق كبرا وغمطا للحق؟ وكيف إذا كانت إساءة الأدب مع الله ليست مجرد موقف شخصي وإنما هي جزء من جهد مبذول لإضلال الناس عن سبيل الله؟!

وفي تعداد القرآن للأمور الثلاثة التي يفتقر لها المجادل، فإنه يشير إلى أن هذه الأمور قد تكون مسوغات للخوض في جدل موضوعي يبحث عن الحقيقة من دون تحيز، مع الاستعداد للتسليم لمن يمتلك الحجة والبرهان، وهي:

١_ العلم:

يبدو أنه تعالى باستخدام كلمة (علم) وهي نكرة يقصد مختلف العلوم التي تتصل بقضية الألوهية من هذه الزاوية أو تلك، بما فيها العلوم الطبيعية، فقد ثبت أن الذين يتعمقون في علوم الطبيعة مع بحثهم الموضوعي عن الحقيقة، يدركون في منتهى المشوار أن وراء هذا الكون خالقاً قديرا وربا مريدا وإلهاً يفيض بالحكمة والرحمة، وكم من سمعنا وقرأنا عن عالم مادي بدأ الخوض في ميادين أبحاثه ملحدا وانتهى موحدا!

٢_ الهدى:

والمقصود به البينات والمعالم والبراهين والحجج العقلية المنطقية التي تجعله مؤهلا للخوض في جدال يختص بوجود الله وصفاته، فوفاضه خال من الهدى ومليء بالهوى الذي يهوي بصاحبه في ظلمات الانحطاط ولجج الجحيم!

٣_ الكتاب المنير:

الكتاب الذي يمتلك من ضياء الوحي ما يمكّنه من تنوير العقول وكشف معالم الطريق الصحيح، مفرقا بوضوح بين الحق والباطل، ومميزا الرشد من الغيّ.

وبالطبع فإن عقوبة الذين يُضلون غيرهم أكبر وأفدح ممن يقعون في الضلال الذاتي منكفئين على أنفسهم، ومن هنا فإن عقوبة المضلين هي الخزي في الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة والذي نسبه الله لنفسه (نذيقه) مما يشير إلى فداحة الجرم، ثم إن الجزاء من جنس العمل؛ لأن الجرم وقع في حق الله.

أما الخزي فهو عنوان لعذابات نفسية وحسية مؤلمة جدا وخاصة على من اعتادوا ارتداء ثياب الكبر وسكنتهم مشاعر العجب لدرجة أنهم يلوون أعناقهم، وكأنهم يترنحون من شدة تأثير خمرة الكبر والغرور عليهم!

عندما يصدّ المسلمون عن سبيل اللّه!

أشار القرآن الكريم إلى أن المسلمين الذين لا يعملون بتعاليم إسلامهم ويعانون من وجود مسافة كبيرة بين ما يقولون وما يفعلون، أشار إلى أنهم يشوهون الصورة الوضيئة للإسلام في أعين الناس، ومن ثم فإنهم يصدونهم عن الاقتراب منه ويقللون من إمكانية اعتناقهم له؛ ولذلك كان من دعاء المؤمنين، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾[الممتحنة: ٥]!

وبالطبع فإن المنافقين محسوبون على المسلمين، وقد أورد القرآن إحدى خطاياهم وهي اتخاذ الأيمان حماية لهم من أعين المؤمنين حتى لا ترى التناقض الحاصل بين أقوالهم وأفعالهم، موضحا أنهم بهذا الصنيع يصدون عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جُنةً فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ [المنافقون: ٢]، وقال أيضا: ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين﴾[المجادلة: ١٦]، والجُنة هي الحماية والوقاية والدرع،وقد أبانت خاتمة الآية الأولى أن هذا الصد هو أسوأ أعمالهم؛ لأنه كبيرة متعدية إلى عدد كبير من البشر، ولهذا فقد ختمت الآية الثانية بالتأكيد على أن لهؤلاء عذابا مهينا، يتناسب مع الإهانة التي وجهوها للإسلام بسوء تصوراتهم وتصرفاتهم.

وتشير عبارة ﴿اتخذوا﴾ في الآيتين إلى تلك العادة الراسخة في طباعهم الدنيئة، إذ كلما انبعثت نواياهم السيئة وتكررت فعالهم الخبيثة شعروا بأن أعين المؤمنين ستفضحهم فذهبوا مسرعين إلى الأيمان التي تنضح حروفها بالصدق وتمتلئ حقيقتها بالكذب، وما زال هذا الأمر يتكرر بكثافة حتى أنهم ليبذلون جهودا كبيرة في صياغة هذه الأيمان وتكرارها، وقد عبر القرآن في مواضع أخرى عن هذه الظاهرة بقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم...﴾[النور: ٥٣]، وتشير عبارة ﴿جهد أيمانهم﴾ إلى الجهد المبذول والتفنن في اصطناع الأعذار الواهية وصياغة الأيمان الكاذبة!

وبالتأكيد أن من يفعلون هذا الصنيع فإنهم يقدمون صورة قاتمة عن الإسلام ويحجبون محاسنه ويشوهون مكارم شريعته، مانعين غير المسلمين من اعتناق الإسلام، بحيث يتحول المسلمون إلى فتنة للذين كفروا كما هو حاصل اليوم بعد أن كانوا إعلانات عملية متحركة لعظمة الإسلام وقيمه الحضارية الزاخرة بالعلم والقوة والحرية والعزة والعدالة والعمل والشجاعة والكرم والتضحية!

تفاهاتٌ العقول!

_ عندما يصنع المخلوقُ خالقَه:

تتسبب الآثام والخطايا التي يقترفها الناس بالخَتم على عقول مقترفيها والطبع على قلوبهم؛ مما يؤدي بها إلى التبلد والعجز عن فهم القوانين الواضحة التي تسير بموجبها الحياة، ومن ثم فإن أصحابها يسيرون بعكس اتجاه سير السنن الثابتة فتتحطم قواهم وربما انتقلت أفكارهم وطاقاتهم إلى خانة التدمير لما هو موجود من إنجازات وبنى تحتية، ولذلك لا تستغرب إن وجدت هؤلاء يصلون إلى الدوس على المعلوم من المنطق بالضرورة، أو يفرطون بمصالح كبرى لشعوبهم وهم يسيرون خلف أوهام أو يستمعون لقطيع ممن يزينون لهم أعمالهم ويزرعون في روعهم أنهم يحسنون صنعاً!

وفي هذا السياق وجدنا وثنيين يصنعون بأيديهم وأزاميلهم أصناماً من الأحجار ثم يتجهون إليها بالتعظيم والعبادة بل ويطلبون منها تحقيق مطالبهم وتجسيد أمانيهم!

وقد استنكر الخليل إبراهيم عليه السلام هذا الانتكاس العقلي والارتكاس الفطري الطافح من أقوال أبناء قومه وسلوكياتهم، واجتهد في أن يستفز عقولهم حتى ترى المنطق العقلي وهو مقلوب رأساً على عقب، وقد اختزل ذلك كله في سؤاله لهم بطريقة استنكارية: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾؟! وقال لهم في موضع آخر: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً...﴾[العنكبوت: ١٧]، ويا للعجب حينما يتحول المخلوق إلى خالق والخالق المفترض إلى مخلوق!

وكم نرى في عصرنا من مسلمين ينفخون في قادتهم وكبرائهم روح الطغيان صانعين منهم أصناماً تضر ولا تنفع، وذلك من خلال مدحهم المكذوب وثنائهم المليئ بالتلفيق؛ حتى يَصلون بهم إلى درجة التألّه عليهم، والغريب أن هؤلاء لا يترددون عن السير خلفهم بأعين مغمضة والاندفاع لطاعتهم بطريقة عمياء، وإن لم تكن العبادة هي هذا

الإجلال والاتباع الصارم فما عساها تكون؟!

_ البذرة والثمرة:

من عجائب بعض البشر أنهم يصنعون نتائج مغايرة للمقدمات التي هي محل اتفاق، حيث يُفردون الله في المُدخلات الخَلقية المتصلة بالرب، ويُشركون معه غيره في المخرجات العبادية المتصلة بالإله، بمعنى أنهم ينسبون لله البذرة ويضيفون لغيره الثمرة، فهم يعترفون بربوبية الله في الخلق والرزق، ويشركون في ألوهيته غيره؛ بنسبتهم النعم والثمار للأسباب، والاتجاه بالشكر إلى غيره أو بتصرفهم فيها كما يحلو لهم بعيدا عن توجيهاته الواردة في ثنايا الوحي.

وعن مثل هؤلاء قال تعالى: ﴿فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء في ما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، فقد أفردوه في الطلب وأشركوا معه غيره في الاستحقاق العبادي!

_ هدم الترتيب التأريخي:

أكثر القرآن من ذكر أفلا تعقلون ومفردات المحاكمة العقلية، أثناء إيراده لقصص بني إسرائيل، فقد عطلوا عقولهم واعتمدوا مقولات ما أنزل الله بها من سلطان بل ولا تستقيم على ساق المنطق وليس فيها مسحة من عقل، وقد تنقض الحقائق التأريخية الثابتة، مثل التنازع بين اليهود والنصارى حول ملة الخليل إبراهيم الذي زعم كل فريق أنه ينتمي إلى ملته، فقال لهم الله: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفة مسلما وما كان من المشركين﴾[آل عمران: ٦٧]، والعجيب أن هذا التنازع بين الطرفين قد حدث رغم علمهما أن إبراهيم قد ظهر قبل موسى وعيسى بمئات السنين، وهذا ما أوردته الآية التي سبقت الآية أعلاه بفارق آية واحدة، فقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾[آل عمران: ٦٥]، وتهزهم فاصلة الآية بقوة حينما تقول لهم: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ ذلك أنهم كمن يقولون بأن

النهر يسير من القيعان إلى الجبال، وكيف يصير السابق تابعا للاحق وبفارق قرون كثيرة، مع العلم أن كثيرا من الروايات التأريخية تذهب إلى أن موسى ظهر بعد إبراهيم بحوالي ٧٠٠ سنة وأن بين موسى وعيسى حوالي ١٥٠٠ سنة، أي أن الفرق بين إبراهيم وعيسى حوالي ٢٢٠٠ سنة؟!

مقومات الشهود الحضاري

بحكم أن أمة الإسلام خاتمة الأمم وصاحبة الدين العالمي الخالد حتى قيام الساعة، والذي اجتمعت فيه أبعاد الرسالات السابقة كلها؛ فقد منحها الله منزلة الشهود الحضاري على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣]، واسم الإشارة (كذلك) يعود على معهود في الأذهان، وهو أن أمة الإسلام تقع في القلب الجغرافي والتاريخي للعالم، وخاصة أن هذا الذكر جاء وسط الآيات التي تتحدث عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة.

وكلمة شهداء الواردة في الآية جمع شاهد وشهيد، وحينما نتأمل هذه الكلمة في القرآن فسنجد أنها تحمل معاني العلم والإحاطة والشمول والحضور والمسؤولية، وهذه هي متطلبات الشهود الحضاري ووظائفه لمن يتدبر القرآن الكريم ويعرف مراده من الأمة، وهذه بعض الإشارات السريعة التي تؤكد هذا الأمر:

١_ المسؤولية:

فإن أمة الإسلام مسؤولة عن بقية الأمم، حيث ينبغي أن تبرز لها الصورة الناصعة للإسلام بدعوتها، وبسلوكها قبل ذلك؛ إذ أن الأحوال أبلغ من الأقوال، ونأخذ هذا المعنى من شهادة الرسول ﷺ على أمته وكذا كل الأنبياء على أممهم، قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء: ٤١]، وقال عز من قائل لرسوله محمد عليه السلام: ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ [الفتح: ٨]، ومن مقتضيات الشهود والشهادة المسؤولية والدخول من أبواب متفرقة من أجل التبليغ والتذرع بكافة الوسائل والأساليب التي تحقق الهدف المنشود بأعلى درجات الكفاءة.

٢_ الرقابة:

قال تعالى ﴿أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾ [المجادلة: ٦]، أي والله على

كل شيء رقيب وحاضر في رقابته، وهذا ما ينبغي أن تقوم به أمة الإسلام بحيث تمتلك خزانا معرفيا ضخما عن مختلف شعوب العالم حتى تتعامل مع كل بلد وأمة بطريقة علمية تحقق الهدف المنشود بأفضل كفاءة ممكنة.

٣_ الحضور والمشاركة:

وجاءت الشهادة بهذا المعنى في قوله تعالى على لسان ملكة سبأ اليمنية: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون﴾ [النهار ٣٢]، أي حتى تحضرون وتشاركوني الرأي وصناعة القرار، وقال أيضا: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [الحج: ٢٨]، أي ليحضروا المنافع التي ستعود عليهم بالخير في الحال والمآل، وقال: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ﴾ [الكهف: ٥١]، أي ما شاركتهم خلق السماوات والأرض ولا حضروا هذا الأمر، ومن ثم فإن أمة الإسلام ينبغي أن تكون حاضرة في صناعة الحضارة ومشاركة بفاعلية في عملية تبادل المنافع العالمية، وتكون يدها عليا بالعطاء؛ لأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

٤_ إقامة الحجة:

ومن هذا المعنى للشهادة قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم﴾ [المزمل: ١٥]، أي يقيم حجة الله عليكم بالآيات والبينات، وهذا ما ينبغي أن تفعله أمة الإسلام مع الأمم الأخرى، ما دام الله قد اصطفاها للشهود الحضاري، وهذا لا يعني أبدا الإكراه فحتى الرسول ﷺ حينما دفعته رحمته الشديدة لتكثيف أساليب الدعوة بصورة فوق الطبيعية؛ قال له تعالى بصورة استنكارية: ﴿أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾؟!

٥_ العلم:

وتأتي الشهادة بمعنى العلم، كما في قوله تعالى: ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ [آل عمران: ٥٢]، أي واعلم بأنا مسلمون، وقوله عز وجل: ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [آل عمران: ٦٤]، أي اعلموا بأننا مسلمون، ومثلها قوله تعالى: ﴿يا أهل

الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ [آل عمران: ٧٠]، أي وأنتم تعلمون، ومن هنا فإن أمة الشهود الحضاري ينبغي أن تكون حاوية لكل التخصصات العلمية التي تمكنها من الإبداع في عمارة الأرض والتفنن في صناعة الحياة وبأعلى درجات الفاعلية التي تجعل لها اليد الطولى؛ بحيث تساعد المحتاجين وتقيم موازين العدل بين الناس وتمنع الجور والاعتداء على المستضعفين، وهذا الأمر من مقاصد الجهاد في الإسلام، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾، والفتنة هنا تعني الإكراه لأي شعب من قبل أي شعب أو أمة على اعتناق ما لا يرضاه من الثقافات والأفكار والقناعات.

حلول عذاب الخزي بالمسلمين!

من صور العذاب التي توعد الله بها من يحيدون عن هدايته وينحرفون عن صراطه المستقيم، عذاب الخزي، والعجيب أن المسلمين لم ينتبهوا لهذا العذاب الوارد في القرآن الكريم كما يفعلون مع العذاب الاستئصالي الذي اقتلع به قوم نوح عبر الطوفان الذي أغرقهم، وقوم هود عبر الريح الصرصر الذي قضى عليهم ودمر خضراءهم، وقوم صالح عبر الصيحة التي جعلتهم أثرا بعد عين، وقوم لوط عبر الخسف الذي نقلهم إلى الأرض السفلى نتيجة تسفلهم المعروف!

لم ينتبه المسلمون لعذاب الخزي رغم انه العذاب الذي يحيق بهم منذ زمن، وجعلهم مطمعا لأمم أقل عددا وعدة منهم بل وصيرهم مضرب المثل في الذل والهوان، حتى أن الرئيس الأرجنتيني حينما قال له صحفي: كيف تتجرأ على مواجهة بريطانيا وهي دولة عظمى؟ قال له: وهل تظنني عربيا؟!

لقد أورد القرآن في مواضع عديدة عذاب الخزي، وذكر أنه قسمان دنيوي وأخروي، وساق بعض الأسباب التي تستوجب هذا العذاب!

ومن الخطايا والجرائم التي تستوجب تنزل عذاب الخزي في الدنيا:

١ــ الجدال في الله من غير علم والتكبر على أهل الحق والقيام بوظيفة إبليس في إغواء الناس، قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ [الحج: ٨، ٩]. وثاني عطفه هو الذي يلوي عنقه في تكبر وغطرسة على أهل الحق، وكم في مجتمعاتنا من هؤلاء الذين يتقولون على الله ويتكبرون على خلقه!

٢ــ الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، فقد أورد القرآن نماذج من جرائم بني إسرائيل ثم قال لهم: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل

ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة: ٨٥]، ولو تأملنا في الجرائم التي ارتكبها بنو إسرائيل والمذكورة في الشق الأول من الآية السابقة لوجدنا أنها حاضرة بقوة في واقع المسلمين، ثم إنها ناتجة عن الكفر بتعاليم بعض الكتاب تقديما لأهواء الأنفس وثقافة القطيع وطاعة لمن تربوا على الناس من الزعماء والعلماء!

٣ـ منع مساجد الله من القيام بوظائفها المعروفة في الأدبيات الإسلامية والسعي في خرابها، وفي هذا المضمار قال تعالى وهو يصف الجريمة ويحدد العقاب: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [البقرة: ١١٤]. ولما كانت الصحوة الإسلامية ذات حضور عريض في مجتمعاتنا الإسلامية فإن كثيرا من الكبراء لا يملكون الشجاعة في الغالب لتخريب المساجد حسيا، لكنهم يخربونها معنويا، من خلال إبعاد العلماء العاملين عنها وتنصيب الضعفاء أو المنافقين عليها، بحيث يقومون بتسويق الباطل وتشويه الحقائق وأهل الحق من على منابر المساجد التي حولوها إلى منابر لتخريب العقول وإفساد النفوس!

٤ـ ممارسة الحرابة والإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [المائدة: ٣٣]، وكم في بلداننا من أنظمة ومنظمات تمارس دور قطاع الطرق وتشيع الفساد في الأرض، بل لقد أوجدت بعض الأنظمة أحبار سوء يقومون بقطع الطريق بين الإنسان وربه!

٥ـ اجتراح جريمة النفاق، فقد نهى الله رسوله محمدا ﷺ عن الحزن من أفعال الذين يسارعون إلى الكفر ممن ادعوا الإيمان بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ثم ختم النداء بقوله: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[المائدة: ٤١].

وبالطبع فإن عذاب الخزي الذي يضرب جموع الأمة اليوم إنما هو نتيجة لمقدمات

ذكرنا بعضها هنا بإيجاز شديد، ولا يمكن للنتيجة أن تختفي ما دامت المقدمات حاضرة في حياة الأمة، وهذا مفهوم بالمنطق العقلي والمنهج الشرعي، ويؤكد الله هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس: ٩٨]. ويشير القرآن هنا إلى القرى التي كفرت بالرسالة والمرسِل وبالمرسلين بعد أن رأت المعجزات الخارقة فعاقبها الله بعذاب استأصل شأفتها مثل عاد وثمود، لكن قوم يونس لم يصلوا إلى هذا الحد؛ ذلك أن يونس عليه السلام لم يستنفذ الأسباب بل غضب من قومه وتركهم فعاجله الله بالعقوبة، ثم تاب عليه بعد أن أخرجه من بطن الحوت، وكأن ذلك كان سببا في عدم نزول العذاب الاستئصالي على أهل نينوى، وحينما عاد يونس لاستئناف رسالته وجد آذانا صاغية وقلوبا متقبلة، فاعتنقوا عقيدة الإيمان بثقة وصدق، فرفع الله عنهم عذاب الخزي والهوان، وهو العذاب الذي يُشعر الناس بصغارهم ويزرع في مواجيدهم مشاعر الضآلة والهوان، مما يجعل أضعف الناس أقوى منهم فيمارسون عليهم جبروتهم ولا يتورعون عن إخضاعهم بالقوة، وعن سلبهم حقوقهم والاعتداء عليحرماتهم!

وكما نرى في أغلب مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة فقد تسلط عليها زعماء أقزام، فساموها سوء العذاب وأذاقوها أقسى الويلات، وجرعوها أصناف الهوان وهي خاضعة خانعة، وتخاف حتى من الأنين، ثم سلط على الزعماء أعداء من الخارج جرعوهم أصنافا من الهوان، بل سلط عليهم أكثر الأمم ذلاً وأقلها عددا عبر التأريخ، فاحتلوا القلب النابض للأمة وفعلوا الأفاعيل بالشعب الفلسطيني والجميع يشاهدون بصمت قاتل وهوان مرعب، مما دفع شعوب العالم التي تشاهد ما يحدث إلى إبداء مشاعر من الشفقة والاحتقار في آن واحد!

ويا للخزي الذي نعيشه من عذاب، فقد هُنا على أنفسنا وصرنا مضحكة الأمم بل مضرب المثل في الذل والهوان، حتى أن الرئيس الأرجنتيني عندما دفع جيش بلاده لاحتلال جزر فوكلاند المحاذية للسواحل الشرقية للأرجنتين، بعد زمن طويل من احتلال الإنجليز لها، قال له أحد الصحفيين: كيف تجرأت على توريط جيشك في مواجهة مع جيش دولة عظمى؟ قال له: وهل تظنني عربيا؟!

ريح الرهبة

في إطار ترتيب القرآن للصف المسلم ورد قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[الأنفال: ٤٦]، حيث احتوت الآية على أمرين ونهي، وفي الأمرين دعوة موجبة للتحلي بقيمتي طاعة الله والرسول والتحلي بالصبر، وهما مصدر القوة والمنعة الذاتية وزرع الرهبة في قلوب الأعداء، ووضع المولى عز وجل بين الأمرين النهي عن معاقرة السبب الأساسي في إهدار هذه القوة، وهو التنازع المفضي بالضرورة إلى الفشل وذهاب الريح، والريح هنا تعبير رائع عن الرهبة التي تذهب سريعا من قلوب الأعداء، حيث تسكن قلوب الكافرين رهبة من المسلمين بسبب ما يمتلك الإسلام من خصائص ذاتية وقوة هائلة تنعكس على أدائهم بالفاعلية التي يراها الأعداء خارقة ومرعبة، لكن التفرق يصنع ثقوبا تتسلل منها هذه الرهبة، بجانب تسببه في صناعة الفشل والهزيمة في المعارك الخشنة أو الناعمة، حيث تتفتت العزائم وتتصارع الإرادات وتختفي بركة الائتلاف وسطوة التوحد!

ويبدو أن في تسمية الرهبة بالريح إشارة إلى أمرين:

الأول: سرعة الحركة كما أشرنا قبل قليل.

الآخر: قدرتها على تجاوز الحدود والمسافات واقتحام الجدران والقلاع، وتسللها بطرق خفية إلى القلوب والنفوس، كما ورد في الحديث: «نصرتُ بالرعب مسيرة شهر»، والرهبة هي القوة المعنوية التي تحرص كافة الجيوش على حيازتها وامتلاك مقاليدها، من أجل رفع معنويات جنودها وإرهاب خصومها، وتنفق في سبيل ذلك أموالا طائلة!

ولأن الرهبة قد تحسم المعارك قبل بدئها فقد أمر الله المؤمنين، بعد اثنتي عشرة آية من الآية السابقة،بإعداد كل قوة مادية ومعنوية ترهب أعداءهم، فقال عز من قائل: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم..﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد ازدادت خطورة الإرعاب المعنوي والإرهاب النفسي في عصرنا؛ بسبب التطور الرهيب في وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، لما تمتلكه من قدرات رهيبة في النفاذ إلى حنايا الإنسان والتأثير الرهيب على قناعاته وقواه الخفية، ولأن الإعلام يحتاج إلى مال وفير، فقد ختم الله هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾ [الأنفال: ٦٠]، ويكفي أن نعرف أن كل مال ينفق من أجل إرهاب أعداء الله فإنه ينفق في سبيل الله، لكي نعرف أهمية هذا الأمر وخطورته!

ونختم هذه الوقفة التدبرية بالإشارة إلى كلمة (ريحكم) التي وردت بلفظ المفرد، رغم أنها جاءت تعبيرا عن القوة المعنوية لأمة مترامية الأطراف تتكون من بلدان وطوائف ومذاهب وطرق وتيارات وجماعات وأعراق وألوان، وهذا تأكيد بليغ على أن الأمة في المحصلة النهائية جسد واحد، وأن ذهاب ريح قسم منها يؤثر عليها كلها لأنه يُخصم من ريحها العامة، وكلما زادت الكيانات التي تشرب من كأس المذلة فإن منسوب عزة الأمة يتضاءل بالضرورة!

دور البطانة في فَرعنة الحاكم!

نستنتج من تفاصيل قصة الكليم موسى عليه السلام والطاغية المتأله على الناس فرعون، أن البطانة المحيطة بفرعون كانت قاعدة قوية لجموح طغيانه الذي وصل إلى ادعاء الألوهية حينما قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، وبعد ما زاد النفخ فيه والتعظيم له انتقل إلى مرحلة أبعد وهي نفي وجود أي إله غيره، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ما علمتُ لكم من إله غيري﴾، فقد تولت البطانة الفاسدة تحريضه ضد خصومه بشكل سافر ومتواصل، وأول نقطة تحريضية كانت ضد موسى حينما أخبر فرعون بأنه رسول الله إليه طالباً منه أن يطلق بني إسرائيل من الاستعباد، وردّ فرعون بأن طلب منه آية بينة على أنه مرسل من الله، فأبرز موسى معجزتين في آن واحد وهما العصا التي يلقيها في الأرض فتنقلب إلى ثعبان مبين، واليد التي ينزعها من كمها فإذا هي بيضاء للناظرين من غير أن يصيبها سوء، وقبل أن يرد فرعون على ما فعله موسى تدخلت البطانة، كما قال الله تعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]، ونلاحظ تعظيمهم لفرعون باستخدامهم صيغة الجمع معه ثم تمليكه أرض مصر ومن عليها وما عليها (أرضكم)!

وبعد ما عاقب فرعون سحرته لأنهم آمنوا بموسى من دون إذنه، وذلك بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم القيام بصلبهم، تدخل الملأ لاستثمار فورة الطغيان عند فرعون ضد عموم بني إسرائيل وليس موسى فقط، قال تعالى عنهم: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟! قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وكانت ثمرة هذا النموذج من التحريض الذي ورد على شكل سؤال استنكاري، أن فرعون تمادى كثيرا وأصدر قرارا ملكيا بقتل كل من كانوا في سن الشباب من قوم موسى، وهذا ما تشير له عبارة (أبناءهم) ومن دون استثناء رغم أن العدد كان كبيرا، وهذا ما تشير له عبارة (سنقتّل)

التي أتت على وزن سنفعّل بتشديد العين وكسرها وهي من صيغ المبالغة التي تفيد الكثرة، وزاد من طغيانه ليجعل من كل النساء رقيقات في البيوت للخدمة والاستمتاع وهذا أشد من قتل الشباب، ثم من بقي منهم ولم يدخل ضمن الصنفين السابقين فإنهم سيكونون فوقهم قاهرون بسياسة الإذلال الممنهجة واستباحة كل الحقوق والحرمات بصورة تامة!

سجونٌ الفراعنة

_ سجون الفراعنة:

إن السجون عند الفراعنة ليست وسيلة تأديب لمن اقترف الجرائم وخالف القوانين المتبعة، لكنه أداة تنكيل بالأحرار ومن يرفضون الانضمام لقطيع الفرعون.

وإن من يأنفون العيش في زرائب العبودية، يغلقون عليهم الأبواب في سجون لا تصل إليها الشمس، وربما وضعت القيود على أرجلهم، إنهم يحرمونهم من أبسط حقوق الآدمية طيلة آماد من الزمان، كما قال فرعون لموسى: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، وكلمة المسجونين تفيد الحبس الدائم أو الطويل الأمد، وتستخدم كلمة المعتقلين لأصحاب الفترات القصيرة أو الذين لم تتم محاكمتهم بعد، وتفيد كلمة (من) التي سبقت المسجونين بوجود سجناء كثيرين، وهذا مشهور في تاريخ مصر في أغلب العصور!

_ سجون مصر:

لا أظن أن الأمر جاء مصادفة عندما ذكر القرآن السجن ومشتقاته عشر مرات وكلها داخل مصر، فما تزال مصر إلى يومنا هذا هي البلد الذي تضم سجونه عدداً أكبر من الأحرار على مستوى العالم مقارنة بعدد السكان،وبلا شك فإن السجون من طبائع الطغاة في كل مجتمعات العالم، وهل هناك أطغى من فراعنة مصر الذين وصل الطغيان ببعضهم إلى حد إعلان التأله على الناس؟

_ سمة عامة:

لأن السجون كانت كثيفة في مصر، ولأن من عادة الكبراء أن يمارسوا تقييد حريات المستضعفين، فقد وصل الأمر بامرأة عزيز مصر إلى أن استخدمت الهجوم كوسيلة

للدفاع، وذلك عندما استبَقت مع يوسف الباب وألفيا سيدها لدى الباب، فقالت بسرعة: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾.

ونلاحظ هنا أنها ما تزال تحاول تطويع يوسف لما همت به من فاحشة، فقد قالت «إلا أن يسجن»؛ حيث حددت العقوبة، وهي عقوبة يسيرة في ذلك المجتمع الجبار الذي كان يبطش فيه الأقوياء بالضعفاء لأتفه سبب، فكيف تحدد عقوبة السجن لمدة يسيرة لمن أراد اغتصابها حسب زعمها؟!

إنها فقط تريد صرف العين عنها ثم تعاود التحرش بيوسف، وبالفعل فقد هددته أمام نسوة المدينة بأنه إن لم يستجب لمطلبها فإنها ستسجنه وتمارس عليه سياسة الإذلال، وذلك بقولها: ﴿ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾، ولو أرادت السجن الطويل ليوسف لقالت له كما قال فرعون لموسى: ﴿لأجعلنك من المسجونين﴾ الذين لا يعرفون ضياء الشمس ولا يتذوقون طعم الحرية طيلة أعمارهم!

_ حفظ ماء الوجه:

قد يستخدم السجن عند الفراعنة كأداة لحفظ ماء وجوههم في بعض الأحيان، إن كان في وجوههم مياه، كما فعل أهل المرأة التي راودت يوسف عن نفسه، فقد تبينت لهم براءة يوسف ببراهين عديدة بما فيها برهان خارق للعادة، لكنهم رأوا رميه في السجن حفظاً لماء وجوههم وحتى تسكت الألسنة التي كانت بدأت بسلق امرأة العزيز، قال تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾، أي من بعد ما رأوا الأدلة القاطعة على براءة يوسف ودناءة امرأة العزيز، وسجن بالفعل بضع سنين لإخراس الألسنة مع وجود اليقين ببراءته من التهمة المنسوبة إليه!

وهذا ما يفعله الطغاة في كل زمان من دون تورع أو تردد، فالضعفاء يدفعون أثمان خطايا الجبارين!

المقاصد الأساسية للدولة الإسلامية

من سمات الإعجاز في القرآن الكريم قدرته على اكتناز معاني غزيرة في عبارات قليلة، وتبرز هذه السمة في كل الحقول التي يرتادها النص القرآني ولا سيما في الحقل السياسي، وفي هذا المضمار وجدنا عددا من الآيات التي أوردت المقاصد التي ينبغي أن تحققها الدولة الإسلامية في الواقع، ويبدو لي أن أهم هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤١].

وبلا شك فإن القرآن يعتمد في مثل هذه الحالة على تدبر المؤمنين للنصوص، حتى يستنبطوا هداياتها ويستخرجوا كنوزها، وبشيء من التأمل لهذه الآية نجد أنها تحتوي على المقاصد الأساسية للدولة الإسلامية، وهي على النحو الآتي:

المقصد الأول: إقامة حقوق الله (إقامة الصلاة):

فالصلاة هنا هي قاعدة ورمز لجميع حقوق الله التي ينبغي أن تقام على الوجه الأمثل، ومن هنا فقد اعتبرت عمود الإسلام الذي يعني كمال الاستسلام لله وإشاعة السلام بين خلق الله.

ومن واجبات الدولة الإسلامية التذرع بكافة الوسائل التربوية والتعليمية والوعظية والإرشادية من أجل زرع دولة الله أو ما تسمى بالتقوى في قلوب المؤمنين، بحيث يتحقق تعظيم الله وحفظ مقامه الجليل في أنفس المواطنين، مع دفعهم للقيام بكل عمل يبرز صفات الله ويحثهم على تطبيق حاكمية الله في أنفسهم، بحيث يستحضرون دوما أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنه تعبّدنا في كل مجالات الحياة وليس في محراب المسجد ومضامير الشعائر التعبدية فقط، وأن هذه العبادات الشعائرية ليس لله حاجة فيها، وإنما هي محطات تمنحنا الدافعية لعبادة الله في عمارة الأرض وصناعة الحياة

من زوايا تخصصاتنا وأعمالنا المهنية، وأننا إن لم نمتلك التقوى التي تجعلنا حاضرين عند الأوامر وغائبين عن النواهي؛ فليس لله حاجة فيها!

المقصد الثاني: إقامة حقوق الإنسان(إيتاء الزكاة):

فإعطاء الزكاة لمستحقيها وفق تعاليم الإسلام تمثل قاعدة ورمزا لجميع حقوق الإنسان، وفي القلب منها القيم الحضارية الكبرى: الحرية والكرامة والعدالة والكفاية والوحدة والعلم والعمل.

ولو تفكرنا في حقيقة الزكاة لوجدنا أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه القيم، فالزكاة هي عمود منظومة مالية تنتمي لها مجموعة من الصدقات والأوقاف والكفارات والنذور، لو أخذت من كل من تجب عليهم بأمانة وتم استثمارها وتنمية المجتمع بها، لانعكست إيجابا على كل القيم الحضارية، ابتداء بالعلم والحرية ففي الغالب يُستعبد الناس بسبب جهلهم وحاجتهم، وعلى المدى البعيد ستتحقق الكفاية والعدالة ومن ثم سيتمتع الناس بالكرامة والوحدة، ولو تم أخذها من كل من وجبت عليه لما اكتنز الناس الأموال وما احتكروا السلع والبضائع، ولوظفوها في مشاريع تعود بالخير على المجتمع. ولو استثمرت في تعليم الناس بعض الحرف وتأهيلهم لبعض المهن، وانتقاء مجاميع من أصحاب الحس التجاري لإعطائهم مشاريع تحررهم من الفقر، وتحولهم إلى أناس منتجين، مع استحضار أن العمل المهني عبادة متعدية أجرها أكبر من العبادات اللازمة بما فيها الصلاة، فستختفي ظواهر عديدة مثل البطالة والتسول، وسيحدث حراك عملي و تجاري كبير يعود بالخير العميم على المجتمع برمته وعلى القيم الحضارية الأخرى التي يدين بها.

المقصد الثالث: توفير الضمانات لأداء حقوق الله وحقوق الإنسان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر):

فمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي توفير الضمانات والوسائل الأعلى كفاءة لتجسيد حقوق الله وحقوق الإنسان في الواقع بأعلى درجة ممكنة من النجاح والتفوق، مع ما يتطلب ذلك من إيجاد مؤسسات تتولى بناء الفرد الصحيح وصناعة

الوعي الجمعي والمجتمع الفعال، وأهمها المؤسسات التي تربي وتعلم (المدارس والمعاهد والجامعات)، والمؤسسات التي تنظم وتقود (الحكومة والقضاء)، والمؤسسات التي تشرع وتقنن (البرلمان ومجلس الشورى)، والمؤسسات التي تراقب وتحاسب (الأجهزة الرقابية والنيابات العامة والأحزاب والنقابات والجمعيات)، والمؤسسات التي تخطط وتدير (الأجهزة التخطيطية في الدولة ومراكز الأبحاث ومعاهد صنع السياسات والاستراتيجيات)، والمؤسسات التي تطور وتبتكر (مراكز الأبحاث التخصصية والتابعة للجامعات والشركات)، والمؤسسات التي تمول وتشجع (الوزارات المختصة والجمعيات والشركات)، والمؤسسات التي ترشد وتهذب (المساجد والمنتديات والنوادي) والمؤسسات التي ترتقي بالذوائق والمواجيد (المؤسسات الفنية والأدبية)، والمؤسسات التي تتولى إقامة البنى التحتية وتقدم مختلف الخدمات العامة (وزارات وجمعيات وشركات)، والمؤسسات التي تحرس هذه كلها وتحميها، سواء بالقوة الناعمة (القضاء والإعلام ومكونات المجتمع المدني) أو بالقوة المادية الخشنة (الجيش والمؤسسات الأمنية والاستخبارية).

الخطايا المتعدية

_ الضلال البعيد:

من المعلوم أن الشيطان هو العدو رقم واحد للناس في الجبهة الثاوية خارج ذواتهم، وأنه لا يحس بالرضى إلا بعد أن يصل بأوليائه إلى منتهى درجات الضلال، كما قال تعالى: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا﴾[النساء: ٦٠]، فلماذا وصف الله الضلال بالبعيد وما المراد منه؟

يبدو لي أن الضلال البعيد يتضمن اجتماع الشرك بالله والكفر به مع ممارسة الصد عن سبيل الله أو ظلم الناس، بمعنى أنه تحول من جريمة لازمة تخص علاقة الشخص مع ربه إلى جريمة متعدية يتضرر منها عدد من الناس بسبب الظلم أو الصد عن سبيل الله، ومما يؤيد هذا الأمر قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيدا﴾ [النساء: ١٦٧]، ويؤكد فداحة الجرم وعظمة العقاب في الآيتين اللتين تلتا الآية السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا..﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وبالطبع فإن هذا الأمر صورة من صور تشدد الإسلام في حقوق المخلوقين، ونستنبط من الآيات أن على الدعاة المسلمين الذين يمارسون الدعوة إلى الله في أوساط غير المسلمين أن يركزوا على الذين لا يقترفون الظلم ولا الصد عن سبيل الله، فإن إمكانية اهتدائهم تكون كبيرة!

وبالطبع فإن زيادة عدد المتضررين من الظلم أو الصد عن سبيل الله يزيد من فداحة الجرم، ويجعل إمكانية التوبة والاهتداء أشد بعدا وأقرب إلى المستحيل!

_ الكفر المتعدي:

للصلاح منزلتان وهما الصلاح اللازم الذي يبقى علاقة حصرية بين العبد وربه، والصلاح المتعدي الذي يفيض بالإحسان من العبد إلى من حوله من الخلائق، ومن يمارس الأول يسمى صالح والآخر يسمى مصلح!

ومثل هذا التقسيم ينطبق على الكفر، فمن يبقى كفره بينه وبين الله يكون صاحب كفر لازم، ومن يحرص على التوسل بما يستطيع من أجل إخراج غيره من واحات الإيمان إلى صحاري الكفر يكون صاحب كفر متعد، وهذا الصنف هو الذي عناه المولى عز وجل بقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ [النحل: ٨٨]، حيث يبوء بمستويين من العذاب، الأول عذاب الكفر بالله وما يترتب عليه من كفر بكثير من حقائق الإيمان، والثاني عذاب الصد عن سبيل الله والذي تتم ترجمته إلى صور من الإفساد المستمر لحياة الناس، بدلالة استخدام الفعل المضارع (يفسدون) الذي يفيد الديمومة والاستمرار، وهذا جرم أكبر من الكفر؛ ولذلك كان جزاؤه عذابا فوق العذاب!

استراتيجية الشيطان!

بعد أن خسر الشيطان منافسته مع آدم فاجتبى الله آدم وطرد إبليس، توعد الشيطان البشر أمام الله عز وجل، فقال: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف: ١٧]، وهذه الكلمات القليلة ترسم معالم استراتيجية عريضة، وهذه أبرز ملامحها:

١ـ ﴿من بين أيديهم﴾: أي التخويف المستمر من المستقبل، وملئ العقول والقلوب بالهواجس وحشوها بمفردات اليأس والقنوط، والتشكيك بحقيقة الآخرة وما يعتمل فيها من أحداث، وزراعة الشبهات والظنون والأوهام في العقول والقلوب، بحيث لا يبقى شيء مقدس ولا قيمة محترمة.

٢ـ ﴿ومن خلفهم﴾: الدخول من خلال الآداب والفنون والأعراف والعوائد الموروثة لزرع الشبهات وغرس الشكوك، وتضخيم الإخفاقات وزراعة الأسى على ما فات والفرح المفضي إلى الغرور القاروني بما تحقق من إنجازات، ولهذا كان الإيمان بالقدر سلاحا منيعا في هذا السياق، فقد علل الله الإيمان بالقدر، فقال تعالى: ﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

٣ـ ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾: وهذا له معاني عديدة، سواء من ناحية الأهداف أو من ناحية الوسائل، فمن ناحية الأهداف يرمز مجيء الشيطان عن يمين الإنسان للتشكيك بالحق والخير والتهوين من الصلاح والمعروف ولتقبيح كل قيمة جميلة، ويرمز المجيئ من الشمال لتسويق الآثام والأباطيل والشرور وتزيين الفساد والمنكر وكل آفة قبيحة.

ومن ناحية الوسائل يرمز المجيئ من اليمين للترغيب والتحبيب والتزيين، كما في قوله تعالى: ﴿قال ربي بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾ [الحجر: ٣٩]، ونلاحظ كيف نسب غوايته إلى الله، وبهذا فقد ارتكب جرما أشد من رفض السجود لآدم!

ويرمز المجيئ من الشمال لاستخدام أسلحة التخويف والترهيب والإرعاب، كما في قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولأن كلام الله يكتنز الكثير من المعاني، فإن المجيئ من اليمين يرمز أيضا لإفساد الطاعات وتخريب الحسنات عبر مداخل متعددة، ومنها التطرف والتنطع وصولا إلى الجمود على الموروث وتزكية الذات واتهام المخالف والمختلف بالمروق عن الدين، بينما يرمز المجيئ من الشمال لتزيين المعاصي وتزويق السيئات، كما قال تعالى: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ [النحل: ٦٣]، بمعنى أن الشيطان قد زين الطغيان والظلم السياسي لفرعون، وزين الاستئثار الاقتصادي لقوم شعيب، وزين الانحطاط الأخلاقي لقوم لوط، وهلم جرا!

وقد يصل الشيطان بالمرء إلى حد إيقاعه في وهدة التنطع، حيث يأتيه من اليمين فيهون أمام عينيه الفرائض الكبيرة والقيم الكلية، لينتقل الاهتمام إلى صغائر الطاعات وتعظيم النوافل. ويأتيه من الشمال فيهول الصغائر ويضخم المكروهات، وهكذا فإنه يعرف من أين تؤكل الكتف، ويتسلل من نقاط الضعف في كل شخص على حدة، ويبدو أنه عبقري في علم النفس، ومع ذلك يظل كيد الشيطان ضعيفا.

وبالطبع فإن كيد الشيطان ضعيف لمن دخل إلى الإيمان من سائر الأبواب وهي التي سماها الرسول ﷺ (شُعب الإيمان)، فإن هذه الأبواب تغلق الأبواب أمام الشيطان، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فقد ذكر خطوات الشيطان بعد الأمر بالدخول في السلم كافة وهو الإسلام بكافة فرائضه ومنهياته، فإن من قام عليها وفق منهج النبي ﷺ يكون قد أغلق الأبواب كافة أمام الشيطان، ويصبح كيده أهون وأوهن من بيت العنكبوت، ولا تأثير له بتاتا على تصورات المؤمن وتصرفاته.

أسلحة الشيطان!

_ موهبة إبليس:

يؤكد القرآن الكريم أن إبليس مصمم ذكي ورسام ماهر؛ فهو يزين الأعمال القبيحة لأصحابها حتى تظهر لهم في شكل لوحات فاتنة وألوان آسرة. وفي هذا الإطار قال تعالى: ﴿وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقد جاءت هذه العبارة في سياق الحديث عن مشركي قريش حينما حبب لهم الخروج لمقاتلة المسلمين يوم بدر، مع أن القافلة كانت قد نجت بقيادة أبي سفيان من تربص المسلمين، وذكر مثل ذلك عن تزيين قتل مشركي العرب عموما لأولادهم [الأنعام: ١٣٧]، وعن جرائم قومي عاد وثمود الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد [العنكبوت: ٣٨]، وعن قوم سبأ الذين زين لهم الشيطان عبادة الشمس [النمل: ٢٤]، وينطبق هذا التزيين الشيطاني على سائر الأمم الكافرة، فقد كان الشيطان حاضرا في تزيين انحرافها وتحبيب معاصيها، وإن كانت مشيئة الله قد سمحت ببروز حقيقة ذلك التزيين، لكن ذلك لا يقلل من جرم الإنسان ولا من دور الشيطان [الأنعام: ١٠٨].

وبلا شك فإن تزيين الخطايا للناس يسهم في إذكاء رغبتهم بها إلى حد الافتتان وفي دفعهم للمواظبة عليها إلى حد الإدمان!

_ استحواذ الشيطان:

لأن الشيطان يدرك أن أسلحته لا تأثير لها في ظل حضور ذكر الله، فإنه يكثف وسوساته ويضاعف نزغاته، ولا يزال يحشد زيناته وإغراءاته حتى يُنسي المسلم التدرع بسلاح الذكر الذي هو درعه الحصين من سهام الوسوسة، وحينما ينجح في نزع درع الذكر عنه وإلباسه ثياب الغفلة فإنه حينئذ يكون قد استحوذ عليه تماماً، كما قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ [المجادلة: ١٩]، حيث ربطت الآية

الاستحواذ بإنساء الذكر!

ولهذا فقد حذر الله من التفريط بسلاح الذكر، فقال تعالى: ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ [الزخرف: ٣٦]، وإذا كان أحد الحكماء قد قال: قل لي من تصاحب أقل لك من تكون، فكيف نتوقع حال من كان الشيطان قرينه الذي يلازمه عن يمينه وشماله ومن أمامه وخلفه؟!

_ دهاء الشيطان:

لا تكمن خطورة الشيطان فقط في كونه وذريته وجنوده كائنات خفية لا يراها الإنسان، وإنما في أنه نذر نفسه لاحتناك ذرية آدم كلها من غير يأس حتى من الأنبياء المعصومين، مع امتلاكه لذكاء حاد وعلم وفير في فهم النفوس البشرية والتعامل الماكر معها، مع وفرة في أسلحة الإغراء والإغواء في ظل القابلية التي يوفرها التكوين الترابي للإنسان، ويمتلك الشيطان بجانب ذلك نفسا طويلا ومثابرة غريبة، بحيث لا يترك أي ثغرة في تركيبة الإنسان دون أن يحاول الولوج من خلالها، ولخطورة الأمر فقد ألّف علماء عديدون كتبا كثيرة حول مداخل الشيطان وأسلحته وطرق الاحتماء منه، ويبدو لي أن أبرز هؤلاء العلماء هو الإمام ابن قيم الجوزية الذي ألّف كتابين خالصين عن الموضوع:

الأول: كتاب (مداخل الشيطان)، وقد أبرز فيه سبعة مداخل رئيسية للشيطان ووضح كيفية إغلاقها في وجهه.

الثاني: كتاب (إغاثة اللهفانمن مصائد الشيطان) أورد فيه ثلاثة عشر بابا، حدد فيهامصائد الشيطان وسبل الوقاية منها، بطريقة علمية رائعة امتزجت فيها الشريعة بالعلوم الإنسانية وأبرزها علم النفس؛ وبسبب هذا الكتاب وغيره اعتبره بعض علماء النفس في عصرنا من أساطين علم النفس في التأريخ الإسلامي!

ولخطورة الشيطان على الإنسان فقد ورد ذكره بصيغ المفرد والجمع في ٨٨ موضعا من القرآن الكريم، وجاء ذكر إبليس في ١١ موضعا.

ويخبرنا القرآن بأن أعداء المؤمنين يكتسبون الكثير من الكيد والدهاء عن طريق إيحاء

الشياطين ووسوساتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، والأولياء هم المحبون والمعينون والمناصرون، والمجادلة صورة من صور الدعم الذي تقدمه الشياطين لأعداء المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]!

أصناف الكائدين!

_ الكيد المعتبر:

الكيد هو تخطيط خفي يستهدف صاحبه الوصول لتحقيق هدفه من خلال طرق ملتوية، ومن ثم قد يكون مشروعا إذا انسدت الطرق الطبيعية، وقد يكون غير مشروع إذا لم توجد ضرورة أو حاجة لذلك.

ومن صور الكيد المشروع ما فعله الخليل إبراهيم عليه السلام من استغلال غياب قومه يوم عيدهم وقيامه بتدمير أصنامهم ثم وضع الفأس الذي استخدمه على عاتق صنمهم الكبير، وهو ما عبر عنه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ويبدو أنه قال هذا الكلام في نفسه ولم يقله في وجوههم وإلا لفشلت الخطة، وما دفع إبراهيم لهذا الكيد هو اختلال موازين القوة تماما، فقد ظل وحده داخل مجتمع متشدد في كفره، ولذلك وصفه الله بأنه كان أمة، إلى أن انضم إليه ابن أخيه لوط عليه السلام. وكان هدفه من هذا الكيد أن يهز قناعتهم بفاعلية الأصنام وأن يدفع عقولهم للتفكير بتفاهة عبادة الأوثان التي صنعوها بأيديهم، راجيا أن ينتبهوا إلى سخافة أن يقوم المخلوق بصنع خالقه!

وكان قبل هذا قد بذل جهودا عقلية جبارة في الإقناع العقلي الصرف، من خلال المجادلات والمناظرات المتسلحة بالبراهين المنطقية ولكن من دون فائدة!

_ الكيد الضرورة:

من المعلوم في الشريعة الإسلامية أن (الضرورات تبيح المحظورات)، وقد تآمر أبناء يعقوب عليه السلام على أخيهم يوسف وحرموه من والديه وشقيقه الوحيد، وعندما أصبح عزيز مصر وجاؤوا من الشام ليكتالوا طعاما طلب منهم القدوم بأخيهم الصغير دون أن يتعرفوا عليه، وحينما جاؤوا به أراد أن يستبقي أخاه معه لكن قوانين دين الملك

في مصر لا تسمح بذلك، فألهمه الله أن يعمل من داخل قوانين بني إسرائيل؛ حيث كانت شريعتهم تعاقب السارق بأن تجعله مملوكا للمسروق منه، ومن ثم فقد وضع السقاية في رحل شقيقه، والتفاصيل معروفة في سورة يوسف، وعندما فتش الموظفون أوعيتهم وجدوا السقاية في رحل شقيق يوسف فأخذوه، وقد أشار القرآن إلى هذه المكيدة في قوله تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك...﴾ [يوسف: ٧٦]، ونسب الله الكيد إلى نفسه لأنه هو الذي ألهم يوسف هذه الحيلة!

وربما اطمأنت نفس يوسف لهذه المكيدة الناعمة؛ لأنه سبق أن تعرض لمكيدة بشعة من إخوته ومن دون سبب أو حاجة، سوى خبث النفوس الدنيئة، وهي مكيدة الرمي في البئر والمجيئ عشاء إلى أبيهم وهم يبكون زاعمين أن الذئب قد أكله، وكان أبوه يعقوب الذي يعرف نفسيات أبنائه قد نصحه بعدم قصّ الرؤيا عليهم فقال له: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ [يوسف: ٥]، لكنه أخبرهم بالرؤيا فحدث ما حدث!

_ كيد الخبثاء:

لا يتورع الخبثاء عن اللجوء إلى الكيد المنفلت من خطام الأخلاق والقوانين والأعراف، حيث أن (البراجماتية) التي عرفت في العصر الحديث كنظرية في السياسة كانت موجودة من آلاف السنين ولكن من غير تأصيل، البراجماتية التي تجعل الغاية مبررة للوسيلة مهما كانت، فتتسلح بالأكاذيب والحيل ولا تتورع عن تزييف الحقائق وقلب الوقائع رأسا على عقب، وقد امر الله أهل الحق أن يُعدوا كل ما يملكون من وسائل القوة وأن لا يخافوا من كيد أعدائهم، كما في قوله تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ [النساء: ٧٦]، وأخبر تعالى أنه موهن كيد الكافرين [الانفال: ١٨]، وقال عز من قائل: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ [غافر: ٢٥]، ونلاحظ أنه تعالى استخدم أسلوب الحصر والقصر كأنه يقول بأن كيد الكفار حتما في ضلال، ما دام المسلمون يقومون بما عليهم من استكمال الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية بما في ذلك دوام الاتصال بالله وملازمة التوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

عندما ينقلب الكيد الخبيث على أصحابه!

اخبر القرآن الكريم بالنص الحرفي أن الله لا يحب الخائنين ولا المعتدين ولا الكافرين ولا الظالمين ولا المفسدين ولا المسرفين ولا المستكبرين، ومعظم هذه الصفات، إن لم تكن كلها، موجودة في من يتوسلون بالكيد لأهل الحق؛ ومن هنا فإن الله يقلب الكيد على أصحابه الخبثاء، ما دام عباد الله متوكلين عليه وآخذين بكل ما يستطيعون من الأسباب الممكنة للتحصن من أعداء الله.

وعن هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون﴾ [الطور: ٤٢]، بمعنى أن سلاح الكيد يرتد إلى صدور الكائدين كمن ينتحر بسلاحه، حيث تنقلب أنواع الكيد مهما كانت على أصحابها، وهذا ما يفيده تنكير كلمة كيد في الآية، حيث يشمل كل كيد، وقد عبر الله عن هذه الحقيقة بصيغة أخرى حينما قال: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾، واستخدم حرف النفي في بداية الجملة وحرف الاستثناء قبل نهايتها ليؤكد أن المكر السيء، أو الكيد الخبيث، ينقلب بالضرورة على أصحابه، وليس له نهاية أخرى غير هذه، وهذا يمنح المؤمنين قدرا كبيرا من الطمأنينة، ولكن لا ينبغي لهذه الثقة أن تلغي الخوف الطبيعي الباعث على التسلح بالأسباب، ولا القلق الصحي الذي يدفع نحو كشف خطط العدو والاستعداد لأسوأ الاحتمالات بإعدادٍ أوثق وإيمان أعمق!

وأبرز القرآن لنا مثالا شديد النصاعة في هذا المجال، حينما أخبرنا بأن فرعون الطاغية بجانب استخدامه للبطش والتنكيل بكل صوره ضد موسى وقومه، قد لجأ إلى الكيد الخبيث، كما قال تعالى: ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ [طه: ٦٠]، وتفيد عبارة (جمع كيده) أنه استكمل وسعه في جمع كل ما يملك من وسائل الكيد لمواجهة موسى عليه السلام!

وقد يسأل أحدنا فيقول: إن الكيد لا يلجأ إليه إلا الضعفاء وفرعون كان طاغية قويا وتحت هيمنته دولة من أقوى دول العالم آنذاك، فلماذا لجأ إلى الكيد؟ والجواب الذي يتبدى لي أن رسالة موسى كانت تتقدم باطراد رغم البطش والتنكيل، بما وهبها الله من قوة ذاتية في تركيبتها العقدية والأخلاقية والروحية، كما نرى في الإسلام اليوم رغم ضعف المسلمين، ولذلك فقد ظن أن هذا الكيد سيقضي على موسى ويطفئ بريق فكرته التي ظلت تنتشر بسرعة في أنحاء مصر، بجانب أن معجزات موسى كانت خارقة وذات صلة بعالم الغيب ولا يستطيع إيقاف تأثيرها إلا بشيء قريب منها، ولقد وجد ضالته في السحر وخاصة أن السحر في زمنه كان أبرز العلوم التي يتسابق أذكياء قومه على تعلمها!

لقد استدعى فرعون أقوى السحرة من جميع أنحاء دولته وجمعهم في ساحة ضخمة اتسعت لأعداد هائلة من المشاهدين المصريين وعبيدهم الإسرائيليين، وعندما بدأت المبارزة رمى السحرة إلى الأرض كل ما يملكون من حبال وعصي مستخدمين أحابيل السحر في تحريكها وفي سحر أعين الناس، بمن فيهم موسى الذي خيل إليه أنها تسعى وأوجس ببشريته منها خيفة، لكن الله ثبته قائلا له: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى. وألقِ ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٨، ٦٩]، ولنتأمل كيف تعامل ربنا مع بشرية موسى مطمئنا إياه، حيث نهاه عن الخوف وأكد له أنه الأعلى؛ باستخدام حرف التوكيد (إن) وضمير الفصل (أنت) مع أنه قد استخدم ضمير المخاطب في (إنك).

ثم أمره بإلقاء ما في يده اليمنى حتى تلقف سحرهم المبني على التزوير والتخييل، وبالفعل حينما ألقى موسى عصاه ابتلعت كل عصيهم وحبالهم، وانقلب السحر على الساحر، أو الكيد على الكائد، حيث اعتنق السحرة دين موسى، وعرف المصريون أن فرعون ليس إلها كما ادعا، وأن موسى ليس ساحرا كما اتُهم، وإنما نبي يوحى إليه من رب السماء، وأصيب فرعون بسعار العظمة المجروح بسيوف الهزيمة، فحاول تقليل الخسائر بادعاء أن رجاله السحرة الذين جاؤوا بدعوته ووعدهم بالأجر الجزيل، وافتتحوا سحرهم بعزته، إنما هم من رجال موسى وأنهم فعلوا هذه المسرحية لإغواء المصريين،

فكان هذا الاغتيال المعنوي لهم أولاً حتى لا يصبحوا قدوة لأبناء قومهم من المصريين، ثم أتبعه بالقتل المادي عبر التنكيل بهم والتمثيل بأجسادهم وهم ما زالوا أحياء، وذلك من خلال تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وصلب ما بقي من أجساد على جذوع النخل الممتدة في شوارع العاصمة؛ حتى يموتوا ببطئ ويصبحوا عبرة ورعبا للمصريين!

ومهما تكن خاتمة السحرة، فقد انقلب كيد فرعون عليه مصداقا لكلام الله، وصار من كانوا أهم مصدر لقوته أبرز نقطة ضعف له، ولم تهز هذه الحادثة دعوى ألوهية فرعون فقط ولكن هزت ملكه بعنف!

أواني الزمان!

_ من البحث عن الخلود إلى الفرار منه:

من المعلوم أن الدافع لمعصية آدم الأولى في الجنة كان هو الرغبة في حيازة الخلود، فقد صدّق آدم وساوس إبليس بأن الشجرة التي حرمها الله عليه هي شجرة الخُلد والمُلك، ولأن الزمن مجرد إناء يملؤه المرء بما يشاء من مفردات الخير أو الشر، فإن الخلود الذي كان آدم يلهث خلفه ليتمتع بنعيم الجنة إلى الأبد، هو ذاته الذي سيحاول أبناؤه العصاة الخلاص منه، حينما يدخلون النار ويُحكم عليهم بالخلود في عذابها، فقد ورد النص القرآني بأن ساكني جهنم سيطلبون من خازن النار مالك أن يتوسط لهم لدى الله حتى يقضي عليهم فيتخلصوا من عذاب الجحيم، لكن طلبهم يرفض قطعيا، أي أن الخلود سيصبح هو إطار التعذيب وجوهره، كما قال تعالى: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يُفتّر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ [الزخرف: ٧٤ _ ٧٧]

_ سنوات المحنة وأعوام التفاؤل:

من الأمور المتفق عليها عند أغلب علماء الإعجاز البياني أنه لا يوجد في القرآن الكريم ما يسمى بالترادف، بمعنى أنه لا توجد كلمتان بنفس المعنى، ولكن هناك معنى عام أو مشترك ثم توجد فروق دقيقة بين الكلمتين، واكتشاف الفروق الدقيقة بحاجة إلى تأمل وتدبر دقيق.

وعلى سبيل المثال فإن اسمي السنة والعام يستخدمان للتعبير عن المدة الزمنية المكونة من ١٢ شهرا، ولكن يوجد فرق دقيق بين الاسمين، فالسنة تكون إناء للتعبير عن المحن والبلايا التي ملأتها أو غلبت عليها، مما يكرهه الإنسان، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذّكرون﴾ [الأعراف: ١٣٠]،

وأخبرنا بأن مدة القيامة خمسين ألف سنة [المعارج: ٤]، ولأن الحياة مليئة بالمشاق والمتاعب والله خلق الإنسان في كَبَد كما هو معلوم من القرآن، فإن الأعمار تقاس بالسنين لا بالأعوام، وبصورة عامة فإن السنين تستخدم أكثر من الأعوام!

أما العام فهو اسم للإناء الزمني الذي يمتلئ بالخيرات والأمور التي يحبها الناس في العادة؛ كما قال تعالى في تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا ملك مصر: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾[يوسف: ٤٨، ٤٩]. فأطلق على زمن القحط والجدب والشدائد اسم السنين، بينما الزمن الذي يأتي فيه الفرج وتعود السماء فيه للهطول والأرض للإنبات والإثمار سماه عاما!

وهذا التدقيق يشبه ما ورد في قصة نبي الله نوح عليه السلام، فقد أخبرنا الله عن الزمن الذي عاشه فيهم، فقال عز من قائل: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ [العنكبوت: ١٤]، ومن الواضح أن استخدام السنة تعبير عن ما واجهه نوح عليه السلام من متاعب وصدود واتهامات وأصناف من الأذى طيلة أكثر من تسعة قرون، ولكن لماذا استخدم في تكملة الألف سنة اسم العام؟

يبدو والله أعلم أنه درس من دروس التفاؤل، فالخمسون عاما ما تزال في عالم الغيب ولا يعلم ما سيحدث فيها إلا الله، وتعد زمنا محايداً، لكن المؤمن مأمور بالتفاؤل بأن المستقبل سيكون أفضل من اليوم!

مراكمة الزمان لأعمال الإنسان!

يعد الفكر الجبري من الآفات التي أصابت الثقافة الإسلامية وأحدثت ثقوبا في فاعلية المسلمين، ومن صور هذه الآفة ذهاب أحد التيارات المحسوبة على الإسلام إلى القول بالجبرية الزمانية، من خلال الزعم بأن أمة الإسلام تسير دوما في منحنى هابط، وأن الزمان لا يأتي بخير لأن كل زمن أسوأ من الذي قبله، وهذا قاد إلى آفة أخرى وهي الجمود على تراث السابقين وتقليدهم من دون أي بصيرة تراعي تغير الزمان والمكان، وحجة هؤلاء أنه (ليس في الإمكان أحسن مما كان)، وأن الزمن لا يمكنه أن يأتي بأحسن ممن مضوا، وأن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئا!

ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أنها تنظر للزمان كآنية فارغة وأن الفرد والجماعة بإمكانهما ملأه بالخير أو الشر، بالتقدم أو التخلف، بالعروج أو الانحطاط، ولهذا قال ﷺ: «خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وساء عمله»!!

وينطبق هذا الكلام حتى على قلوب الأفراد، فمشاعر المرء وإرادته هي الأساس في أن يصبح من ذوي القلوب الضارعة أو من أصحاب القلوب القاسية، ودور الزمن مقتصر على إنضاج المشاعر التي تختلج في الجوانح، وكأنها تساعد الأقدار التي تتولى التيسير لا التسيير!

إن الزمن قد يكون عاملا من عوامل الخشوع أو سببا من أسباب القسوة، كما نستنتج من قوله عز وجل: ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم...﴾ [الحديد: ١٦]، فقد نزلت هذه الآية بعد أمد من إسلام قدماء الصحابة، ولنترك الصحابي عبد الله بن مسعود، وهو أعلم الصحابة بأسباب نزول القرآن وأماكن تنزلها، يخبرنا بما يعرفه عن هذه الآية، حيث قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: «ألم يأن

للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله» إلا أربع سنين». وذهب ترجمان القرآن عبدالله بن عباس إلى أبعد من ذلك حينما قال: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: «ألم يأنِ»: ألم يحِن للذين آمنوا، «أن تخشع»: ترق وتلين وتخضع قلوبهم لذكر الله...»؟!

ومهما يكن الفارق الزمني بين اعتناق الصحابة للإسلام وتنزل هذه الآية، فإن تأمل النص يشير إلى أن الزمن عامل إيجابي بالنسبة للمؤمنين في عملية اكتساب الخشوع، فالخشوع ثمرة من ثمار الإيمان الذي يزيد بزيادة الأعمال ويتعمق بتعمق المشاعر، وينقص بنقصهما، وما دام المؤمنون في حالة ازدياد في الحالة الطبيعية فمن المتوقع أن يصلوا إلى حالة الخشوع التام مع القرآن خلال أمد من الزمن، ولهذا قال لهم القرآن: ألم يصبح الوقت مواتيا لكي تفيض مشاعركم القلبية وتصيروا في حالة من الخشوع الذي يملأ قلوبكم بالخشية والرهبة والإجلال؟!

وكما يكون الزمن عاملا إيجابيا للمؤمنين في ازدياد الإيمان وتمكن الخشوع، فإن العكس صحيح تماما بالنسبة لمن لم يستوطن الإيمان قلوبهم، حيث تزداد سيئاتهم مع الأيام وخاصة أنهم حينما يتركون الإثم فإنهم يتركون ظاهره دون باطنه، ويميل تعاملهم مع الشعائر بشكل مستمر نحو الأداء الحرفي الخالي من الروح والجاهل بالمقاصد أو المتجاهل، ومع مرور الزمن تصبح الشعائر مجرد قوالب جوفاء وجامدة، لكنه لا يستطيع الانفكاك عنها، وكأنها جزء من العوائد الفردية أو التقاليد الاجتماعية!

وفي ذات الوقت فإن المرء يتعرض لانتقامها، حيث يسكنه شعور بتورم الذات لاعتقاده بأنه قد قدّم لله شيئا كبيرا، ويظل يقارن نفسه بمن هم أقل منه إيمانا وعملا فيزكي نفسه ويصيبه الغرور والعُجب، وكل هذا يورثه قسوة في القلب وتبلداً في المشاعر وجموداً في العين، وهذا ما حذر الله عباده من الوقوع فيه حينما قال في نفس الآية: ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ١٦]، وبالطبع فإن الفسوق يخرج من رحم قسوة القلب، مثلما أن الأعمال الصالحة تخرج من رحم القلب الخاشع المنيب!

أطيارٌ الناس!

_ طائر الشؤم:

ابتدع الإنسان طرقاً كثيرة للفرار من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وللتنصل من المسؤولية الذاتية، ومن تلك الطرق اعتناق فكرة التطيّر، حيث يرمي بعض الناس أوزارهم على الآخرين وكأنها تطير في الأجواء من شدة القذف والتعجل في اتهام الآخرين، ولهؤلاء قال تعالى: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

وعن طائر الشؤم وردت آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، وعن قوم صالح قال تعالى: ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتنون﴾، ونجد موسى وصالح عليهما السلام يعيدان الأمر إلى الله الذي خلق الأفعال، من خلال النتيجة التي أوجدها وفق السبب الذي اجترحه الناس،ولذلك عندما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إنا تطيرنا بكم...﴾ ردوا عليهم: ﴿طائركم معكم...﴾.

ولأن التطير صورة من صور التحلل أو التخفف من المسؤولية، بجانب أضراره الأخرى فقد حرم النبي ﷺ كل صور التشاؤم والتطير ونهى عن مقارفتها بل وحذر من مقاربتها، رابطا الأسباب بالناس والنتائج بالله!

_ جهل التطيّر:

لا يلجأ إلى المنهج التبريري عموماً والتطير بشكل خاص إلا الجاهل وفاقد الوعي ولو حفظ الآلاف من مسائل العلم، ومن هنا فقد قرأنا قول الله تعالى عن المتطيرين من قوم موسى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، أي لا يعلمون ما يمتلك الإنسان من طاقات مذخورة وقوى كامنة،ولا يعلمون النواميس التي يسير عليها الكون، ولا السنن التي تنضبط بها حركة الحياة، ولذلك فإنهم يتحللون من المسؤولية

ويرمون بالتبعة على غيرهم!

_ طيور الأعمال:

اهتم القرآن بتقرير الحقائق التي تجعل الإنسان فاعلاً في هذه الحياة، ومن تلك الحقائق قانون السببية، حيث أنه أساس لعمارة الحياة أو دمارها، وكل إنسان يمتلك طائر العمل الصالح الذي ينشر الفرح ويبث البهجة في الأرجاء، أو طائر العمل الطالح الذي يشيع الخراب ويعيث في الأرض الفساد.

ولهذا قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزرَ أخرى..﴾ [الإسراء: ١٣ _ ١٥]، وبتحمل كل فرد للمسؤولية الملقاة على عاتقه فإن الناس يكونون قد امتلكوا واحدا من أبرز العوامل التي تجعلهم أرقاماً صحيحة في عملية عمارة الأرض وصناعة الحياة، وبدونه يصيرون غثاء لا إرادة لهم ولا فائدة ترجى منهم!

_ درع الإيمان:

إن الإيمان بالله هو الدرع الواقي من الوقوع في مهاوي الأهواء والشبهات ومن التعرض لطيور التشاؤم والعطالة والسلبية والضعف والانحراف.

وربما كان هذا المعنى من بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ [الحج: ٣١]، وكأن الطير هنا يرمز للتطير والخرافات والأوهام التي تنال من فاعلية الإنسان، والريح ترمز إلى الفهم الجبري للقدر؛ ذلك أن الفرقة الجبرية تنظر إلى أن الإنسان أمام الأقدار مثل الريشة الواقعة في مهب الريح، لا تملك من أمرها شيئا!

تقاسيم الوجوه

_ تسويد الوجوه:

لقد سوَّد إخوة يوسف وجوههم بلطخات سوداء من كسب أيديهم، في الوقت الذي أرادوا فيه أن يخلو لهم وجه أبيهم، وملأوا وجهه بالحزن حتى أصابه العمى، بعد أن حملوا إليه قميص يوسف زاعميين أن الذئب قد أكله، وكان يتفرس في وجوههم فيرى الكذب صارخا، وخاصة أن القميص السليم قد أكد تآمرهم الخبيث على أخيهم، ويأبى الله إلا أن يجعل قميص يوسف سبباً لرفع قسمات الحزن عن وجه يعقوب بل ولإعادة البصر إليه، فقد قال يوسف: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً﴾ [يوسف: ٩٣]، وبالفعل فقد حدث ذلك، كما قال تعالى: ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾ [يوسف: ٩٦]، وكم يتصف التعبير القرآني بالدقة، فقد قال (ارتدّ) ذلك أن بصر يعقوب كان سليما تماما لولا الحزن الشديد الذي جلبه له أبناؤه العاقون!

_ وجاهة الأنبياء:

إن من يقيمون وجوههم عند كل مسجد، ويولون وجوههم شطر أوامر الله، ويُسلمون وجوههم لله في شؤون حياتهم كلها؛ يجعلهم الله من الوجهاء في الدنيا والآخره، كما فعل بالمسيح عليه السلام، فقد قال تعالى عنه: ﴿اسمه المسيح ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ [آل عمران: ٤٥].

ومهما حاولت غيوم الاتهامات أن تحجب هذه الوجاهة فإنها لا تستطيع، فقد اتهم بنو إسرائيل موسى بكل نقيصة ﴿فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ [الأحزاب: ٩٦]، وبلغت وجاهته أن كلّمه الله تعالى من غير وسيط في خطاب تكليفه كنبي، وصيّره أحد الخمسة أولي العزم من الرسل الذين يتبوأون أعلى هرم النبوة، وبين هذه وتلك أجرى الله على يديه تسع آيات خارقات في مصر، ثم شق له البحر ليعبر باتجاه الشام،

وبعد أن صار الطاغية فرعون في وسط البحر أعاد الله البحر إلى طبيعته فأغرقه وجيشه، وفجّر الله على يديه اثنتي عشرة عينا من الماء الزلال من قلب الصخر بصحراء سيناء، وأنزل لقومه المنّ والسلوى، وبقي ذكره عطرا إلى الآن وسط أغلب سكان الأرض!

_ وجوه القلق والرجاء:

الوجه هو الجزء الأكثر حساسية بالنسبة للكائن الإنساني، ببعديه المادي والمعنوي وكأنه مرآة قلبه، حيث تنعكس عليه انفعالات القلب من قلق وحيرة، ومن رغبة ورجاء، ومن تعجب واستنكار، ولقد قال تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها...﴾[البقرة: ١٤٤]، حيث كان ﷺ يرجو من الله أن يوليه قبلة إبراهيم وهي الكعبة، إذ كان ما زال في مطلع الدعوة الإسلامية يولي وجهه شطر بيت المقدس كما كان يفعل اليهود والنصارى.

ولأن الوجوه مرآة القلوب فقد قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ [الفتح: ٢٩]، وهي ليست شكلا ماديا، وإنما بريق خفي ونور يشع بالطيبة ويشي بالطمأنينة، وملامح عميقة تكشف عن قلب نقي وجوانح تزخر بالحب والصفاء، ولكن لا يرى هذه التقاسيم إلا أصحاب البصيرة الإيمانية والفطرة السوية السليمة!

_ إقامة الوجه:

أمر الله محمداً ﷺ بقوله: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين﴾[يونس: ١٠٥]، وإقامة الوجه هنا كناية عن تسليم الجوانح والجوارح كلها لله، بحيث لا يحضر أي منها في مواضع النهي ولا يغيب عن مواضع الأمر، ولذلك فقد كرر الأمر في سورة الروم بذات اللفظ، ثم كرره في ذات السورة بقوله: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ [الروم: ٤٣]، فإن هذا هو ما يليق بالدين القيم الذي تنزل من عند الحي القيوم، وسيظل قرآنه يهدي للتي هي أقوم حتى قيام الساعة!

مآسي اليأس!

_ انتحار اليأس:

الانتحار في الرؤية الإسلامية جريمة كبرى في حق الإنسانية كلها، ويستحق المنتحر الخلود في النار. وينقسم الانتحار إلى قسمين:

الأول: يتضمن إهلاك القوام المادي للإنسان من خلال إزهاق الروح وقتل الجسم بأي وسيلة أو طريقة.

الآخر: يتضمن القضاء على القوام المعنوي للإنسان، وذلك من خلال العيش في بيداء التشاؤم ورؤية العالم من ثقب أسود، وصولا إلى اعتناق أفكار اليأس ومعاقرة مشاعر القنوط؛ إذ يتسبب اليأس في قتل إرادة الإنسان واجتثاث عزيمته، ليصير سلبيا في شؤون حياته، حيث يصير متواكلاً غير معانق للأسباب، مما يجعله مجرد غثاء مرمي في قارعة الحياة، ويتولى سيل التيار الاجتماعي أخذه معه حيثما ذهب!

ولأن اليأس صورة من صور الانتحار أو قتل النفس؛ فقد وجدنا القرآن الكريم يقول: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يُذهبنّ كيده ما يَغيظ﴾ [الحج: ١٥]، أي فليمدد اليائس بحبل إلى سقف بيته ثم ليشنق نفسه فيختنق ويموت، ثم لينظر هل يُذهب ذلك ما يجده في نفسه من غيظ نتيجة سوء الأوضاع!!

_ التشاؤم سلاح شيطاني:

لا توجد آية صريحة تؤكد أن التشاؤم من أسلحة الشيطان، لكن تدبر الآيات المتصلة بعداوة الشيطان عموما و تكشف عن أن حقن الإنسان بفيروز التشاؤم هو من أسلحة الشيطان الذي أخبرنا الله بأنه عدو ويجب اتخاذه عدوا، بإغلاق المداخل التي يتسلل منها،

وتفعيل استراتيجية الحماية وعماداها الفكر والذكر، ذلك أنه لا ينفذ إلا إلى الجاهلين الغافلين الذين لا تنشط عقولهم في التفكير ولا تشتغل ألسنتهم وقلوبهم بالذكر.

ولقد أقسم الشيطان أمام الله بأنه سيفترس ذرية آدم، وسيستخدم كافة الأسلحة لتحقيق هذه الغاية، وذكر من ضمن اسلحته أنه سيأتيهم عن أيمانهم وشمائلهم، ومن معاني الأيمان والشمائل الإتيان بأفكار متطرفة عن جهتي اليمين والشمال، مثل الأماني التي لا تسمن ولا تغني من جوع، في مقابل التشاؤم الذي يزرع في المرء يأسا وإحباطاً يقتلان فيه إرادة التغيير والشغف بالحياة!

ومن المعلوم أن التخويف من أسلحة الشيطان، كما ورد في الآية ١٧٥ من سورة آل عمران، ويدخل التشاؤم والتطير ضمن التخويف، وإيقاع العداوة والبغضاء من أسلحة الشيطان، كما في الآية ٩٠ من سورة المائدة، والتشاؤم من أي إنسان أو التطير به يوقع العداوة والبغضاء. ويدخل التشاؤم ضمن نزغات الشيطان ووسوساته وفتنته التي ذكرت في القرآن كأسلحة شيطانية ينبغي الحذر منها!

وهكذا، فإن التشاؤم سلاح شيطاني لا يفله إلا سلاح رباني وهو التفاؤل الذي يقوي الأخذ بمنظومة الأسباب ويوثق رابط التوكل على الله، ويذكي العمل لتحقيق الأهداف المنشودة في هذه الحياة ضمن منظومة العبادة الشاملة لله.

ومن هنا فقد دعا الله المؤمنين للدخول إلى الإسلام من كافة الأبواب، ونهى في ذات الآية عن اتباع خطوات الشيطان الموجودة عند هذه الأبواب قاطبة، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وكأن الانحراف عن أي باب من أبواب الإيمان، يمكن أن يتم من خلال خطوة واحدة من خطوات الشيطان!

نفحاتٌ التفاؤل

_ ثمرة التفاؤل:

أمرنا الرسول ﷺ أن نلتزم بقيمة التفاؤل في كافة شؤوننا الحياتية، وأن نبتعد عن آفة التشاؤم من أي شيء أو التطير بأي أحد، ومنحنا القرآن عددا من الدروس المرتبطة بهذا الشأن عبر شخصية الكليم عليه السلام، فعند فرار موسى من فرعون بعد قتله بالخطأ لشخص قبطي، اتجه شرقا ناحية منطقة مدين، ورغم أن الأرض ضاقت عليه دائبا في البحث عن فرص ومتفائلاً بأن الله سيهديه لما فيه نفعه، كما قال عز وجل حاكياً عنه: ﴿ولما توجّه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ [القصص: ٢٢]، وقد هداه ربه كما أحب وربما أكثر؛ حيث اهتدى إلى المنطقة التي يسكنها نبي الله شعيب من غير معرفة سابقة، وهناك وجد السكن والعمل والزوجة الصالحة، وقبل ذلك وبعده وجد الهداية المتمثلة في رسول الله شعيب عليه السلام!

ونبقى مع الكليم موسى عليه السلام، ففي طريق عودته هو وأهله منمدين إلى مصر رأى من بعيد في ظلمات الليل بصيص ضياء، ويبدو أنهم كانوا في ظلام دامس وبرد قارس ومن دون وسيلة استضاءة أو تدفئة، فقال لأهله: ﴿امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾ [طه: ١٠]، فقد كان يطمع بقبس يستدفئ به من قرّ الصحراء القارس ويستضيء به في ظلمات الليل الحالك، بل وكان يتمنى أن يجد من يدله على الطريق بعد أن اختفت معالمه في دجى الليل البهيم، كما تفيد جملة ﴿أو أجد على النار هدى﴾، وكان كرم الله أكبر من كل أمل وتفاؤل، فلم يجد مخلوقا يهديه إلى الطريق السالك إلى مصر، بل وجد خالق الوجود كله يدله على الطريق إلى السماء، حيث اختاره عز وجل ليكون هاديا إلى الله في حياة الابتلاء ومحرراً لشعب يعقوب من أغلال الاستعباد، بل وجعله كليما له وواحدا من أولي العزم!

لقد أراد قبسا يستدفئ به من برد الليل القارس فوجد الإيمان الذي يمنح الروح الدفئ والسعادة والأمان!

ورغم أن موسى واجه واحدا من أعتى جبابرة العالم، وهو وسط شعبه وجيشه، وفي ذات الوقت كان يواجه خذلانا رهيبا من الأقلية اليهودية المضطهدة التي خاطر بحياته من أجل تحريرها، لكنه لم يتوقف أبدا عن بث نفحات التفاؤل وإشعال مصابيح الرجاء، وعلى سبيل المثال حينما قال له قومه: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، قال لهم في نفس الآية: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾، وكلمة (عسى) هذه تفتح بابا عريضا للرجاء من الله حيث النصرة والفرج والتمكين لعباده الصالحين. ونلاحظ حكمة موسى حينما قال (عدوكم)، ولم يقل أعداءكم مما يبث شعورا بأن الأمر أقل صعوبة مما يحسبون وأسرع تحققا مما يتوقعون!

_ الرجاء الباعث على العمل:

يفرق الإسلام تفريقا حاسما بين الأماني والرجاء، فالأماني مجرد طاقة وجدانية لا يصحبها عمل من قبل الجوارح، لكن الرجاء طاقة عقلية وقلبية تملأ الجوانح باليقين في تحقق المطلوب وتذكي الجوارح للعمل الحثيث من أجل تجسيد الأماني وتحويلها إلى واقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالراجي الحق هو الذي يعمل بجد ودأب لتحقيق المأمول، ويخلص هذا العمل مبتغياً به وجه الله، وهذا يرفع من مستوى تجويده وتحسينه؛ مما يجعل إنتاجية المسلم في منتهى الفعالية.

الفهرس

المقدمة ٥
لقوم يؤمنون: الإيمان قبل القرآن! ٩
فاعلية القرآن الكريم ١١
صفات القرآن تبرز قوته الذاتية! ١٤
عندما يتولى الله ورسوله تعليم القرآن! ١٧
دور تلاوة القرآن في صناعة الحياة! ٢٠
استقامة طريق القرآن ٢٢
التعقّل الخاشع للقرآن! ٢٤
المتابعة الحثيثة للقرآن ٢٦
جريمة تبعيض القرآن! ٢٨
هداية القرآن بين الإنعام والإضعاف! ٣٠
آيات الله بين عطية التصريف وعقوبة الصرف! ٣٢
إنعام الهداية ٣٥
أنواع الهداية (١) ٣٧
أنواع الهداية (٢) ٣٩
تعاضد القرآن والصلاة! ٤١
دور الخشوع في تيسير الصلاة! ٤٣
الشغف النبوي بالهداية! ٤٥
أخلاق الهداة ٤٨
الثمار العملية للعلم ٥٠
العروج إلى الحكمة! ٥٣
منافعُ التعلم المنهجي ٥٥
أفياءُ التآلف ٥٧
التنوع قوة للمناعة الاجتماعية ٦٠

تعدد الصواب(١) ٦٢
تعدد الصواب(٢) ٦٤
المسافة بين وحدة الدين وتفرق المتدينين! ٦٦
بين التفرق في الدين ٦٩
والدخول إليه من أبواب متفرقة! ٦٩
المقاصد والوسائط ٧٢
تجفيف منابع العصبيات ٧٤
مخاطر ثقافة القطيع! ٧٦
مصائب التفرق! ٧٩
مقومات الوعي الجمعي(١) ٨١
مقومات الوعي الجمعي(٢) ٨٤
مقومات الوعي الجمعي(٣) ٨٧
مقومات الوعي الجمعي(٤) ٩٠
مقومات الوعي الجمعي(٥) ٩٢
مقومات الوعي الجمعي(٦) ٩٦
مقومات الوعي الجمعي(٧) ٩٩
مقومات الوعي الجمعي(٨) ١٠١
مقومات الوعي الجمعي(٩) ١٠٤
مقومات الوعي الجمعي(١٠) ١٠٧
من شمائل الرجال ١١٠
شمائلُ المخبتين! ١١٢
نفائسُ التقوى ١١٤
ذخائر الحرية ١١٦
أرباح الإيمان! ١١٨
أثقال المسؤولية! ١٢٠
لفتات حول الموضوعية ١٢٣

أسلحة معنوية للمؤمنين..... ١٢٦
حبالُ السماء!..... ١٢٩
من آداب الدعاء ١٣٢
عطاء الفاعلية!..... ١٣٤
قلوب العباد بين الصرف والتصريف! ١٣٦
تدابيرُ الرحمن ١٣٨
أهمية التفكر في المآلات ١٤٠
فروق قرآنية دقيقة..... ١٤٢
التزكي بين الأقوال والأفعال! ١٤٤
التجليات الدنيوية لكون ﴿الله سريع الحساب﴾..... ١٤٦
ازدواج الجزاء في المعاش والمعاد ١٤٨
التواشُج بين جنتي الأرض والسماء!..... ١٥٠
القوام المعنوي للحياة ١٥٢
مراعاة التكوين المزدوج للإنسان ورعايته!..... ١٥٤
تمازجُ التبشير والإنذار..... ١٥٦
عقلنةُ الجوارح!..... ١٥٨
من زوايا الضعف البشري!..... ١٦٠
طبائع بشرية ١٦٢
سلائق بشرية ١٦٤
خيباتُ التعجّل! ١٦٦
أنواع الخوف..... ١٦٩
انقلاب المصطلحات!..... ١٧٢
الذين يعادون أنفسهم!..... ١٧٤
عندما تنقلب الموازين! ١٨٠
آفات العقول..... ١٨٢
آفاتُ المتدينين..... ١٨٤

آفاتُ النسيان ١٨٦
التبيُّن والحذر ١٨٩
الحذر من الجبناء! ١٩١
مخاطر الغفلة! ١٩٣
دور المعاصي في حلول الذل والهوان(١) ١٩٥
دور المعاصي في حلول الذل والهوان(٢) ١٩٧
عندما يصدّ المسلمون عن سبيل الله! ٢٠٠
تفاهاتُ العقول! ٢٠٢
مقومات الشهود الحضاري ٢٠٥
حلول عذاب الخزي بالمسلمين! ٢٠٨
ريح الرهبة ٢١١
دور البطانة في فَرعنة الحاكم! ٢١٣
سجونُ الفراعنة ٢١٥
المقاصد الأساسية للدولة الإسلامية ٢١٧
الخطايا المتعدية ٢٢٠
استراتيجية الشيطان! ٢٢٢
أسلحة الشيطان! ٢٢٤
أصناف الكائدين! ٢٢٧
عندما ينقلب الكيد الخبيث على أصحابه! ٢٢٩
أواني الزمان! ٢٣٢
مراكمة الزمان لأعمال الإنسان! ٢٣٤
أطيارُ الناس! ٢٣٦
تقاسيم الوجوه ٢٣٨
مآسي اليأس! ٢٤٠
نفحاتُ التفاؤل ٢٤٢